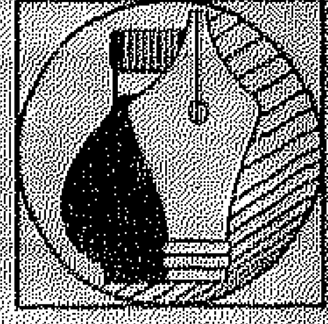
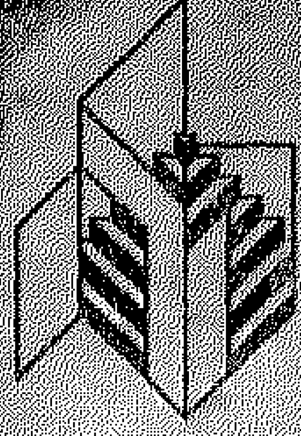


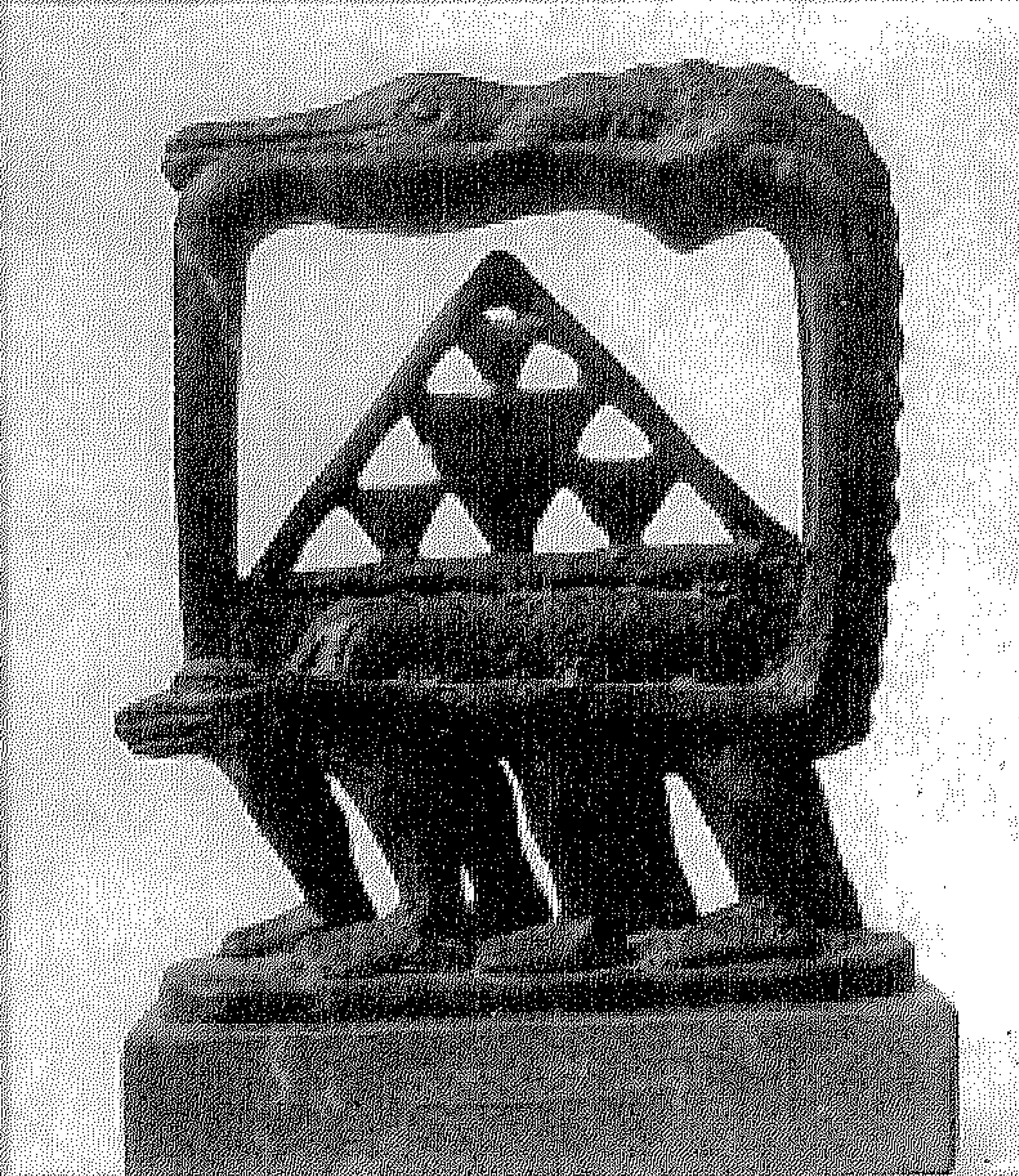
ذاكرة الكتابة



الهيئة العامة لقصور الثقافة

الغُصن الذهبى

دراسة فى السحر والدين



تأليف : سير جيمس فريزر

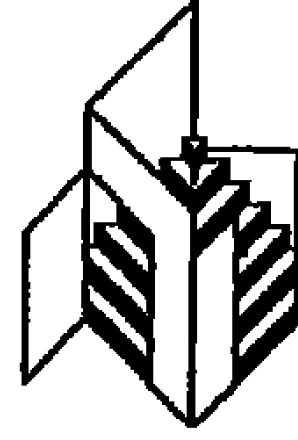
ترجم بإشراف: الدكتور أحمد أبو زيد

الجزء الأول

١

ورثة الكيمياني/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية

إهـــــــداء2006
ورثة الكيمياني/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية



الغصن الذهبى

دراسة فى السحر والدين

تأليف
سيرجيمس فريزر

ترجم بإشراف
الدكتور أحمد أبو زيد

الجزء الأول
(١)

- الكتاب: الغصن الذهبى، دراسة فى السحر والدين
- المؤلف: سير جيمس فريزر
- ترجم بإشراف: د. أحمد أبو زيد
- الجزء الأول (١) - مايو ١٩٩٨
- الطبعة الأولى: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١.
- الطبعة الثانية: الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٨.

تصميم الغلاف للفنانة: ابتهال العسلى

لوحة الغلاف للفنان: السيد عبده سليم

ذاكرة الكتابة

المراسلات : باسم رئيس التحرير
على العنوان التالى ١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
رقم بريدى : ١١٥٦١

المشتركون فى ترجمة هذا الكتاب

دكتور أحمد أبو زيد: الفصول من الأول حتى الرابع + السادس

دكتور محمد أحمد غالى: الفصول من السابع حتى الثانى عشر

دكتور نور شريف: الفصل الخامس

المراجعة والتعليقات وتقديم الترجمة العربية:

دكتور أحمد أبو زيد

مقدمـــة

فريزر والغصن الذهبي

بقلم الدكتور : **أحمد أبو زيد**

يمثل موت سير جيمس جورج فريزر S.James G. Frazer نهاية مرحلة من أهم المراحل التى مر بها التفكير الأنثروبولوجى النظرى وأخصبها، على الرغم من كل ما يوجه إليها الآن من انتقادات، ونعنى بها مرحلة التفسير التطورى الذى صبغ كل التفكير العلمى فى القرن التاسع عشر والذى تأثر تأثراً واضحاً بكتاباته داروين واهتمامه بالبحث عن أصل الأنواع. وعلى الرغم من أن فريزر عاش ما يقرب من نصف حياته (ولد فى عام ١٨٥٤ ومات فى عام ١٩٤١) فى القرن الحالى فإنه يعتبر بشخصيته وثقافته العريضة المتنوعة وأسلوب تفكيره ومنهج كتابته ابناً للقرن الماضى لدرجة أن الكثيرين من مؤرخى الفكر الاجتماعى والأنثروبولوجى يشيرون إليه على أنه من مفكرى ذلك القرن، ويعتبرونه امتداداً لتفكير تايلور Taylor ومورجان Mor-gan وغيرهما من أعلام التفكير الأنثروبولوجى القديم. ولقد كان التيار الفكرى السائد بين هؤلاء الكتاب والعلماء يقوم أساسا على الإيمان بوحدة المعرفة الإنسانية وتطورها فى مراحل ثابتة معلومة واضحة المعالم، ومن هنا كان هؤلاء العلماء يحاولون – من ناحية – الجمع بقدر الإمكان بين مختلف فروع العلم والمعرفة وأن

يوفقوا بين العلوم الطبيعية (كالفيزياء والبيولوجيا) والدراسات الإنسانية بالمعنى الواسع للكلمة الذى يدخل فيه إلى جانب الآداب الكلاسيكية والشعر والتاريخ والفلسفة وما إليها من الدراسات الاجتماعية المتعارف عليها، ومن هنا أيضا كان هؤلاء العلماء يحاولون – من الناحية الأخرى – فهم الحضارات القديمة عن طريق مقارنتها بالثقافات التى كانت سائدة فى مجتمعات القرن التاسع عشر وبخاصة لدى الشعوب المتخلفة التى يطلق عليها بصفة عامة اسم «الشعوب البدائية» أو «الهمجية» – حسب تعبير فريزر، على زعم أن تلك الشعوب تمثل المراحل الأولى والمبكرة التى مرت بها الحضارة الإنسانية فى تاريخها الطويل. وقد ظهر هذان الاتجاهان فى كل كتابات فريزر وبخاصة فى «الغصن الذهبى The Golden Bough». فالكتاب فى أصله محاولة لفهم وتفسير أسطورة بسيطة عن الإلهة ديانا Diana فى نيمى Nemi بجنوب إيطاليا، ولكن البحث لم يلبث أن تفرع وتشعب فى وادٍ وتناول كثيراً من الموضوعات فى مختلف الثقافات والمجتمعات والعصور حتى خرج الكتاب فى آخر الأمر فى اثنى عشر جزءاً ضخما. وهذا الكتاب الذى نقدم لترجمته هنا تلخيص للكتاب الضخم، قام فريزر نفسه بكتابته نزولا على إرادة الكثير من القراء ورغبة منه فى تيسير قراءته واستيعابه وتداوله بين جمع أكبر من القارئين على ما يقول هو نفسه فى «التصدير». والمهم هو أن أية محاولة جديدة لفهم فريزر وتفكيره – وبخاصة كما يتم فى أكبر كتبه وأهمها وهو «الغصن الذهبى» يجب أن تأخذ فى الاعتبار ظروف العصر الذى نشأ فيه، والمؤثرات التى خضع فريزر نفسه لها والتى أسهمت فى تشكيل فكره وتوجيه اهتمامه وجهة معينة بالذات وتحديد المنهج الذى يتبعه فى البحث والدراسة والكتابة.

١

وأول هذه المؤثرات وأهمها التى لقيت مزيداً من التعضيد والتوكيد فيما بعد من الظروف التى أحاطت بحياته العلمية هو نشأته الأولى والجو العائلى الذى وجد نفسه فيه وبخاصة الطابع الدينى الذى كان يطبع الحياة العائلية اليومية ويسيطر عليها. فقد ولد فريزر لأبوين متدينين إلى حد كبير، وكانا من أتباع الكنيسة الاسكتلندية ومن أنصار المذهب الكالفنى ومن المتمسكين بأصول الدين وتعاليمه وحرفيته، بحيث أن حياة البيت اليومية كانت تدور إلى حد كبير حول العبادة والقراءة فى الكتاب المقدس، بل إن معظم النشاط فى أيام الآحاد ذاتها لا يتعدى الذهاب إلى الكنيسة. وقد أدى ذلك إلى توجيه اهتمام فريزر إلى الكتاب المقدس والرغبة فى دراسته دراسة متعمقة. واستمر هذا الاهتمام حياً فى نفسه طيلة حياته لدرجة أنه درس اللغة الآرامية ليقرأ التوراة فيها. وتمثل هذا الاهتمام بجلاء لا فى التأليف والكتب التى خصصها لدراسة بعض النواحى الهامة المتعلقة بالعهد القديم وأهمها كتابه الكبير عن «الفولكلور فى العهد القديم[1]» (وهو فى أساسه دراسات مقارنة فى الدين

(١) لاحظ العنوان الأصلى لهذا الكتاب هو Follore in the Old Testament : Studies in Comparative Religion, Legend and Law, 1918. وقد ظهر الكتاب في الأصل فى ثلاثة أجزاء كبيرة ولكن لم يلبث فريزر أن أعد منه كتابا موجزا على غرار ما فعل بكتاب «الغصن الذهبى». وقد ظهرت هذه الطبعة الموجزة لأول مرة فى عام ١٩٢٣، ثم ترجم إلى اللغة الفرنسية وظهرت الترجمة عام ١٩٢٤ تحت عنوان Le Folklore dans L'Ancien Testament.

والخرافات والقانون)، فحسب؛ بل أيضاً في الإشارات الكثيرة إلى الكتاب المقدس التي تمتلىء بها كتبه الأخرى، ولكن من الإنصاف أن نذكر أنه على الرغم من كل هذا الاهتمام فإن فريزر لم يقبل الكتاب المقدس بحرفيته، بمعنى أنه لم يأخذ الأحداث التي وردت فيه على علاتها ولم ينظر إليه على أنه سجل تاريخي علمي، بل اعتبره نوعاً من الأدب الراقي الذي يسهم إسهاماً كبيراً في التسامي بالجنس البشري. إلا أن هذا لا يعني أيضاً أن فريزر – برغم تشككه الدائم في صحة الأحداث الواردة فيه من الناحية التاريخية – كان يقف موقف العداء الصريح من الدين مثلما فعل كثير من معاصريه من أمثال تايلور أو هربرت سبنسر. فقد تركت نشأته الدينية الأولى أثراً عميقاً في نفسه كان يمنعه من التهجم على الدين أو التمادي في إظهار معارضته لبعض تعاليمه، وعلى أية حال فإن هذه التنشئة الدينية الأولى وتأثير والديه الذي لازمه إلى ما بعد فترة الطفولة والصبا حتى فترة الشباب كان لهما دخل كبير في اختيار الجامعة التي يلتحق بها، بل نوع التعليم الذي يتلقاه في الجامعة. فقد كان فريزر يرغب في الالتحاق بجامعة اكسفورد بعد مرحلته الجامعية التمهيدية بجامعة جلاسجو ولكن والده عارض في ذلك وفضل الالتحاق بجامعة كمبردج. وقد كانت جامعة اكسفورد في ذلك الحين مسرحاً لبعض الاتجاهات الدينية المتحررة التي كان الأب يراها اتجاهات مارقة وخشي أن يقع ابنه فريسة لها، وفي كمبردج خضع فريزر بطبيعة الحال لتأثير تيارات علمية وثقافية من طابع معين كان لها دخل كبير في تحديد ملامح تفكيره .

وقد خضع فريزر أثناء فترة تعليمه الجامعي في جامعة جلاسجو ثم في جامعة كمبردج لتأثير قوي مستمر متنوع من بعض كبار الأساتذة في عهده، تمثل في توجيه اهتمامه نحو آفاق جديدة من العلم والمعرفة مما كان له أثره لا في تنوع

معلوماته وكثرتها فحسب بل أيضا - وهذا هو الهام - فى شمول نظرته إلى الكون والعالم والإنسان والمجتمع والثقافة الإنسانية. فلقد اتصل فى جلاسجو بثلاثة من كبار العلماء ترك كل منهم طابعه الخاص فى حياته وتكوينه الذهنى والعلمى. وأول هؤلاء الثلاثة هو جورج جيلبرت رامساى G.G. Ramsay الذى أفلح فى أن يثير فيه اهتماما دائما وعميقا بالدراسات الكلاسية. وكان رامساى «أستاذاً» للغة اللاتينية فى جلاسجو ما بين ١٨٦٣ و ١٩٠٦ ولكنه - حسب قول فريزر نفسه - كان يتمتع بقدرة هائلة على تذوق الأدب وعلى إثارة اهتمام تلاميذه به، ويعترف فريزر بأنه يدين له فى توجيه تفكيره لعدة سنوات نحو الكتابات الكلاسيكية القديمة. وقد تمكن من أن يرد له هذا الدين فيما بعد حين أهدى إليه ترجمته لكتاب بلوسانياس Pausanias(١) الذى سنتكلم عنه فيما بعد. ولقد حقق فريزر فى تلك الدراسات مستوى رفيعا إلى حد كبير جدا وأظهر قدرة فائقة فى كل كتاباته وبخاصة فى «الغصن الذهبى» الذى يكشف عن مدى إحاطته الشاملة العميقة بالآداب الكلاسيكية. وقد ساعده على ذلك إجادته التامة للغة اللاتينية التى كان قد تعلمها فى رحلة التعليم العام قبل دخوله إلى الجامعة، كما أن هذا الاهتمام ذاته هو الذى أدى به إلى الاعتقاد بأن أفضل مدخل لدراسة الإنسان وفهمه (وهو موضوع الأنثربولوجيا) هو دراسة الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية القديمتين. ويتمثل هذا الاهتمام لا فى المعلومات الهائلة وحدها التى حشدها فى كتاباته المختلفة والتى سنجد لها مثالاً فذاً فى كتاب «الغصن الذهبى»، بل أيضاً فى الجهود الكبيرة التى بذلها إما فى ترجمة بعض الكتب الصعبة

---

(١) Downie. R.A.: *James George Frazer*. Watts, London, 1940, pp.5-6.

الهامة عن هاتين الحضارتين أو التأليف فيهما[1].

وثانى هؤلاء الأساتذة الذين أثروا فى منهج تفكيره وفى اتجاهه العام هو جون فايش John Weuch أستاذ المنطق والميتافيزيقا فى جلاسجو الذى تعلم منه فريزر طريقة عرض أفكاره بوضوح مهما تكن درجة التعقد والتشعب التى بلغتها الموضوعات التى يعالجها من الكتابة فى الوقت ذاته بأسلوب رصين محكم يقوم أساسا على انتقاء اللفظ الجزل والترفع عن الأساليب والعبارات الشائعة الضحلة. ومع أن أسلوب فريزر برصانته ودقته وإحكامه وثروته اللفظية الهائلة يأخذ القارىء ويقدم له مادة ومعلومات مشوقة ومثيرة فإنه يعتبر فى الوقت ذاته من أكبر العوائق التى تصادف كل من يحاول ترجمة أعمال فريزر إلى اللغات الأخرى. ومن هنا كانت ترجمة كتبه وبخاصة «الغصن الذهبى» من أشق الأعمال التى تحتاج إلى بذل جهود طويلة ومضنية. وهذا لا يعنى على أية حال أن فريزر فى اهتمامه بجزالة اللفظ وفخامة الأسلوب كان يبحث عن الكلمات الغريبة أو القليلة الاستعمال، أو أن ذلك أدى إلى غموض كتاباته. فهى تتميز على العكس من ذلك بالوضوح وترتيب الأفكار بطريقة منطقية سليمة.

أما الأستاذ الثالث الذى تأثر به منذ عهد تلمذته الأولى بجامعة جلاسجو فهو لورد كلفن Lord Kelvin «عالم الفيزياء» التى تعرف فى ذلك الحين باسم «الفلسفة الطبيعية». وقد استمد منه فريزر قوة الإيمان بوجود نظام عقلى ومعقول يحكم

---

(١) من أهم الأعمال التى قام بها فريزر فى ميدان الدراسة الكلاسيكية ترجمته لكتاب باوسانياس Paisanias عن «وصف بلاد اليونان Description of Greece» وقد قام بالتعليق عليه بحيث ظهر فى ستة أجزاء وكذلك ترجمته لكتاب أوفيد المشهور وتعليقه عليه بحيث ظهر فى خمسة أجزاء The Fast of Ovid: Text, Translation and Commentary ومن الكتب التى قام فريزر بتأليفها فى هذا الميدان أيضا : Studies in *Greek Scenery Legend and History;* Graecia Antiqua, Maps and Plans to Illustrate Pausanias' Description of Greece; the Growth of plato's Ideal theory, etc.

الطبيعة ويسيطر على أحداثها، وأن الكون يخضع لمجموعة من القوانين الطبيعية المطلقة الثابتة التي لا تتغير والتي يمكن التعبير عنها في صيغ رياضية دقيقة ومضبوطة. وقد لازمته هذه الفكرة في كل كتاباته وكانت هي الأساس الذي بنى عليه نظريته المشهورة عن السحر والدين والعلم والقوانين التي تحكم عمليات السحر والعلم على السواء[1]. وكثيرا ما يستخدم فريزر في كتاباته مصطلح «القانون الطبيعي» ليعني به هذه المبادىء التي تسيطر على الكون بكل ظواهره وأحداثه.

ولكن إذا كان كل أستاذ من هؤلاء الثلاثة ترك أثراً خاصاً في تفكير فريزر، أو على الأصح في ناحية محددة بالذات من تفكيره فقد كان لاتصاله الوثيق بهم جميعا في وقت واحد أثره القوي في تنوع اهتماماته واتساع أفق تفكيره وشمول نظرته إلى المعرفة الإنسانية بحيث جمع بين الفيزياء والبيولوجيا وغيرهما من العلوم الطبيعية من ناحية والآداب الكلاسيكية واللغات القديمة والحديثة من الناحية الأخرى ثم أضاف إلى هذا كله في مرحلة تالية اهتمامه بالدراسات الاجتماعية والأنثروبولجية التي يدين بالفضل فيها إلى روبرتسون سميث Robertson Smith حين التحق بجامعة كمبردج. ومن هنا كان كثير من مؤرخي الفكر الاجتماعي والأنثروبولوجي يدخلون فريزر بحق ضمن دائرة العلماء الموسوعيين الذين ينظرون إلى الثقافة في ذاتها ويؤمنون بوحدة المعرفة الإنسانية وتكاملها على نحو ما ذكرنا.

وعلى أية حال فإن اتصاله برويرتسون سميث كان هو العامل الحاسم في توجيه فريزر نحو الأنثروبولوجيا ونحو الاهتمام بأشكال منهج البحث التطوري الذي كان سائداً على أية حال في كل كتابات القرن التاسع عشر. وبعد ظهور هذين المقالين

---

(١) *diner and Prebre : They Studied Man,* Inowski .B.: *A Scientific Theory of Culture, p. 179.* *Mentor Books, p. 72.*

بعامين اثنين – أى فى عام ١٨٩٠– ظهر كتاب «الغصن الذهبى» وكان يتألف فى ذلك الحين (الطبعة الأولى) من جزءين لا غير.

وطبيعة الحياة التى عاشها فريزر فى كمبردج والظروف التى أحاطت به والتسهيلات التى قدمتها له هذه الجامعة تعتبر كلها مسئولة إلى حد كبير عن الإنجازات الهائلة التى حققها فريزر فى مجال الدراسات الأنثروبولجية النظرية وبخاصة فى مجال الدين والفولكلور. فقد استطاع فريزر بفضل هذه التسهيلات أن ينقطع تماما إلى الدراسة والبحث والتحصيل سنوات طويلة جدا فى مكتبة الجامعة وأن يشبع رغبته فى الإطلاع الواسع المتشعب العميق. والواقع أن فريزر كان قد حصّل الشىء الكثير منذ صباه قبل أن يلتحق بجامعة جلاسجو ذاتها. فقد وجد فى بيته مكتبة زاخرة بشتى الكتب ومختلف فروع المعرفة لا فى الدين وحده. فأبوه دانييل فريزر Daniel Frazer كان يملك متجراً للعقاقير والكيماويات فى جلاسجو ولكنه كان رجلا واسع الاطلاع محبا للقراءة، وكانت لديه مكتبة خاصة ممتازة وبخاصة فى الأدب الانجليزى؛ غير أن كل هذا لا يقاس إطلاقا بما وجده فى جامعة كمبردج التى قدمت له كثيراً من المنح الدراسية لكى ينقطع فى مكتبتها للقراءة والإطلاع، ثم منحته آخر الأمر منحة مدى الحياة، وبذلك استطاع أن يستغنى تماما عن العمل لكسب العيش، فيما عدا سنة واحدة أمضاها فى ليفربول كأول أستاذ للأنثروبولوجيا فى تاريخ ذلك العلم وذلك على ماسبق ذكره. ولم يكن فريزر يترك عمله فى القراءة إلا لفترات قصيرة، كان يسافر أثناءها بعيداً عن كمبردج لإلقاء المحاضرات أو لتقبل درجة من الدرجات العلمية الفخرية أو من درجات الزمالة فى الجمعيات والمؤسسات والمعاهد المختلفة . وليس من شك فى أن هذا الانقطاع للدراسة والتحصيل هو الذى هيأ له الفرصة لتأليف كل هذه المصنفات التى تملأ

عناوينها وحدها أكثر من أربعين صفحة. ومعظم المصنفات يتألف من عدة مجلدات(1). لكن حياة كمبردج على ما وفرته له من فرص للقراءة والاتصال بكثير من العلماء الكثيرين فى ذلك العصر صرفته فى حقيقة الأمر عن الاتصال بالعالم الخارجى بحيث أصبح يعيش فى عالم خاص به يتألف من الأديان والأساطير والفولكلور والآلهة وأنصاف الأرباب وما إليها. وكانت النتيجة المتناقضة الغريبة لهذا كله هى أن الكاتب الذى كرس حياته لدراسة دراما الوجود الإنسانى لم يعش هو نفسه تلك الدراما، وإنما تعرف عليها وعلى الوجود الإنسانى من خلال القصص والأساطير والخرافات ومختلف الآداب. وهذا نقص شديد بغير شك لعله لم يكن يعيب علماء الأنثروبولوجيا فى القرن الماضى ولكنه يعتبر من أشد العيوب التى يمكن أن يوصف بها أحد الأنثروبولوجيين المحدثين.

ثم يأتى بعد هذا كله الدور الذى لعبته زوجته الفرنسية فى تشكيل حياته وتوجيهها وتهيئة الجو الملائم للقراءة والكتابة. ولقد كرست «الليدى فريزر» حياتها كلها لخدمته وترتيب اتصالاته مع غيره من العلماء والهيئات العلمية والعمل على توسيع هذه الاتصالات بالإضافة إلى إشرافها العام على كل شئون حياته اليومية التى لم يكن يفهم فيها الكثير، كما عملت على تعريف الفرنسيين بكتابته وتفكيره. ولقد كانت تدرك قبل الزواج أى نوع من الحياة ينتظرها مع زوجها العالم الباحث.

---

(1) لعل أفضل مثل لذلك هو كتاب «الغصن الذهبى» نفسه الذى يتكون من اثنى عشر مجلدا، ولكن هناك بالإضافة إلى ذلك عددا آخر من الكتب التى قام فريزر بتأليفها والتى يضم كل منها عدة أجزاء مثل كتاب «الزواج الاغترابى Totemism and exogamy» وهو يتألف من أربعة أجزاء وكتاب «الاعتقاد فى الخلود The Belief in Imortality» وهو يتألف من ثلاثة أجزاء صدرت بين عامى ١٩١٣ و ١٩٢٤، وكتاب الفولكلور فى العهد القديم Folklore in the old Testament» فى ثلاثة أجزاء أيضا ثم كتابه عن «الخوف من الموتى فى الدين البدائى the fear of the Dead in Primitive Religion» الذى صدر بين عامى ١٩٣٣ و١٩٣٦ «وفريزر كان يشتغل بعدد من الكتب فى وقت واحد. وربما كان ذلك هو الطريقة التى كان يتبعها فى القراءة والتلخيص وجمع المعلومات وتبويبها وتصنيفها فى شكل كتب، ثم لقلة التفكير النظرى فى هذه الكتب.

بل المعتقد أن الزواج ذاته لم يتم إلا بعد أن تم الاتفاق بينهما على أن تتركه وشأنه فيما يتعلق بالقراءة والتأليف والحياة بين الكتب، ومن هنا لم يصرفه الزواج عن عمله الأساسى. بل السائد بين العلماء هو أن فريزر كان يمضى بين الكتب بعد الزواج وقتا أطول مما كان يمضيه بينها قبل أن يتزوج. ولقد ظلت ليدى فريزر شديدة الارتباط بزوجها وبخاصة فى السنوات الأخيرة من عمرها وعمره.. حين أصيب هو بالعمى وأصيبت هى بالصمم ثم تبعته حتى فى موته. فقد ماتت بعده بساعات قليلة بعد أن أتمت دورها فى تمكينه من إتمام عمله والانصراف إلى المهمة التى اختارها لنفسه والاضطلاع بها فى ميدان الفولكلور والأنثروبولوجيا.

٢

على الرغم من أهمية هذه المؤثرات فى تكوين فكر فريزر وتوجيه حياته العلمية وصياغة آرائه وأفكاره فإنها كلها مؤثرات شخصية بحتة، بمعنى أنها أثرت فيه نتيجة لاتصالاته الخاصة بأشخاص وعلماء معينين بالذات أو نتيجة للظروف الخاصة التى أحاطت به سواء كانت هذه الظروف ظروفا عائلية أو ظروفا تتعلق بالدراسة الجامعية وما شابه ذلك. ولكن كان هناك إلى جانب هذا بعض عوامل أخرى ذات طبيعة عامة وأكثر شمولا لعبت دوراً أساسياً فى تحديد موقفه من المعرفة الإنسانية بعامة ومن الأنثروبولوجيا بخاصة وفرضت عليه اتباع منهج معين فى دراساته وكتاباته، وأعنى بذلك المناخ الفكرى العام الذى كان يسود القرن التاسع عشر والاتجاهات الفكرية البارزة حينذاك. ولقد كان فريزر نتاجاً حقيقيا للقرن التاسع عشر، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، ففى كتاباته تظهر كل الملامح الرئيسية التى تميز ذلك القرن عن غيره من فترات تاريخ الفكر البشرى وتاريخ الفكر الاجتماعى والأنثروبولوجى بالذات، وهى الملامح التى تتعلق على الخصوص بالتفكير التطورى الذى يعتبر السمة الأساسية لذلك العصر.

وليس من شك فى أن ظهور كتاب داروين عن «أصل الأنواع» كان من أهم العوامل التى دفعت علماء القرن التاسع عشر إلى اتباع المنهج التطورى. فقد ظهرت إثر ذلك كتب كثيرة تبحث فى «أصل» الحضارة أو «أصل» القانون أو «أصل» اللغة

أو «أصل» الفقه أو «أصل» العائلة وهكذا. وقد افترضت كل هذه الكتب والدراسات وجود مراحل معينة بالذات مرت بها الحياة والنظم الاجتماعية فى تطورها بحيث أن كل مرحلة من هذه المراحل تعتبر بسط من المراحلة اللاحقة لها وممهدة لظهورها.

ولكن من الخطأ القول إن كتاب داروين كان وحده المسئول عن ذلك الاتجاه التطورى الذى سيطر على الدراسات الإنسانية المختلفة. فالظروف والأوضاع العامة السائدة فى أوروبا فى ذلك الوقت كانت تدفع دفعاً إلى السير فى ذلك التيار. فالمعروف مثلا أن القرن التاسع عشر هو عصر التصنيع. وعلى الأصح العصر الذى شهد الثورة الصناعية فى أوجها، وتحول المجتمع الأوروبى فيه من أنماط الحياة الاقتصادية التقليدية إلى الأنماط الصناعية . وهى مرحلة أكثر رقياً وتقدماً. كذلك كان القرن التاسع عشر هو عصر الكشف الجغرافى وعصر الاستعمار وبالتالى بداية الاحتكاك القوى المستمر بالشعوب الأخرى المتخلفة أو «البدائية». وقد أدى ذلك إلى الاهتمام بأنماط الحياة الاجتماعية وأشكال التجمع الإنسانى ومحاولة تصنيفها وترتيبها فى سلسلة واحدة تتدرج من البسيط إلى المعقد تنتهى إلى المجتمعات الغربية التى كان علماء ذلك القرن يفترضون أن نظمها وقيمها تمثل قمة التطور الإنسانى وأعلى ما وصلت إليه الإنسانية فى تاريخها الطويل.

ولم يشذ فريزر بطبيعة الحال عن هذا الاتجاه العام. وكتاباته وبخاصة كتابه «الغصن الذهبى» ونظريته فى السحر والدين – وهى المحور الرئيسى الذى يدور حوله الكتاب تمشياً مع النهج التطورى، وإن لم يكن فريزر قد وضع نظرية ومنهجاً متكاملا وواضحاً عن المراحل التى مر بها الإنسان بنفس الدقة والوضوح اللذين تجدهما عند غيره من علماء عصره التطوريين مثال مورجان وحتى تايلور الذى لا يرتفع إلى مستوى مورجان فى هذا الصدد. بل إنه يمكن القول بوجه عام إن سيطرة

التفكير التطورى فى ذلك الوقت بالإضافة إلى تأثير روبرتسون سميث الذى سبقت الإشارة إليه يرجع إليهما أكبر الفضل فى اهتمام فريزر بدراسة كل ما هو «بدائى» وبالتالى عنايته بدراسة المعتقدات والعادات والممارسات والشعائر الدينية والسحرية عند «البدائيين» أو «المتوحشين» أو «الهمج» كما كان يسميهم هو وغيره من علماء عصره، وذلك على اعتبار أن دراسة الإنسان البدائى هى المدخل الطبيعى لفهم الحضارة الإنسانية فى عمومها من ناحية وفهم الحضارة الحديثة المعقدة من ناحية أخرى. فلقد كان فريزر يهتم فى أعماق كتاباته بمأساة الوجود الإنسانى، إذن فلم يكن ثمة بد من أن يتتبع هذه المأساة من جذورها ومن أن يبدأ من أبسط أشكالها – وهو فى الوقت ذاته أروع هذه الأشكال .

ولقد كان فريزر – وشأنه فى ذلك شأن الكثيرين من علماء عصره الذين تأثروا بفلسفة عصر الاستنارة أو عصر التنوير يؤمن بتشابه الجنس البشرى فى الأساسيات، ولذا كانت المشكلة التى واجهته وواجهت الكثيرين من العلماء التطوريين هى البحث عن أسباب الاختلافات العميقة القائمة بالفعل بين الأجناس والمجتمعات البشرية. وظهر نتيجة لذلك عدد من النظريات التى تعالج مظاهر التفاوت بين المجتمعات الإنسانية المعروفة فى ذلك الوقت وتحاول المقارنة بينها على أساس ما حققته من تقدم خلال تطورها. فالمجتمع الإنسانى عموما يتطور ببطء ويتقدم أثناء ذلك التطور. ولكن المجتمعات المتمايزة لا تتقدم بدرجة واحدة أو بسرعة موحدة أثناء ذلك التطور وإن كانت كلها تتقدم تدريجيا من المستوى البدائى إلى المستويات الأخرى الأكثر تقدما. ففكرة التطور ترتبط فى أذهان هؤلاء العلماء بفكرة التقدم، بل إن التطور عندهم يعنى التقدم الذى يتحقق بأكمل صوره فى المجتمع الأوروبى الصناعى. وقد يكون من الصعب التعرف بدقة على مراحل التطور بطريق مباشر،

وذلك نظرا لأن بعض هذه المراحل موغل فى القدم ويصعب الحصول على معلومات وبيانات دقيقة عنه خاصة وأن بعض مظاهر الحضارة فى تلك المراحل قد اندثر تماما. ولذا فإن الوسيلة الوحيدة التى كان يمكن الاعتماد عليها حينذاك لتحديد مراحل التطور ومظاهره وأشكاله هى الاستنباط عن طريق ما يعرف فى الكتابات الأنثروبولوجية باسم الرواسب أو المخلفات الثقافية cultural survivals وهى السمات الثقافية التى «تلكأت» فى سيرها وتخلفت عن ركب التطور، أو على الأقل لم تتطور بنفس السرعة التى تطورت بها بقية السمات والنظم، وأصبحت نتيجة لذلك غريبة إلى حد كبير عن الحياة الاجتماعية الجديدة فى مجملها ولم يعد وجودها يتلاءم مع بقية النظم السائدة فى ذلك المجتمع كما لم يعد لها وظيفة معينة فى الحياة الاجتماعية[1].، وتتمثل هذه المخلفات أو البقايا والرواسب فى بعض العادات التى يمارسها المجتمع المتحضر دون أن يدرك لوجودها سبباً، كما يتمسك بها الناس دون أن يعرفوا معناها الأصلى الذى نسوه تماماً. كذلك تتمثل هذه الرواسب والبقايا فى نفس النظم الاجتماعية والأنماط الثقافية السائدة فى المجتمعات البدائية على اعتبار أن هذه المجتمعات تمثل مراحل سابقة فى تاريخ المجتمع الإنسانى ككل. ومع أن

---

(١) لم تقابل فكرة الرواسب الثقافية بالرضا من علماء القرن العشرين وبخاصة العلماء الوظيفيين من أمثال مالينوفسكى الذين يرون أن لكل ظاهرة اجتماعية أو ثقافية وظيفة معينة تؤديها فى المجتمع الذى توجد فية وبذلك فإن من الخطأ فى رأى هؤلاء العلماء الزعم بأن الرواسب هى سمات ثقافية لا تؤدى أى دور فى حياة المجتمع.. وعلى هذا الأساس فإن ما يوصف بأنه رواسب ثقافية إنما هو فى الحقيقة عناصر ثقافية أو اجتماعية يمكن الكشف عن وظائفها عن طريق البحث والتحليل العميقين. إلا أن هذا الموقف الذى يقفه مالينوفسكى لا يخلو هو نفسه من التطرف والغلو بحيث لا يكاد يجد له أنصارا حتى من بين تلاميذ مالينوفسكى أنفسهم الذين دلتهم خبراتهم المستمدة من دراساتهم الحقلية على وجود ظواهر اجتماعية «متخلفة» من الماضى لا تكاد ترتبط بأى شىء آخر فى المجتمع الذى توجد فيه ولا يكاد يكون لها أى أثر فى الحياة الاجتماعية. انظر فى ذلك الجزء الأول من كتابنا «البناء الاجتماعى، المفهومات»، صفحتى ١٢٠-١٢١. وأنظر أيضا كتابنا عن «تايلور» . (مجموعة نوابغ الفكر الغربى، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٨ صفحات ٦٢-٦٧).

فريزر لم يذكر لنا صراحة أى تعريف أو تحديد لمعنى الرواسب أو المخلفات الثقافية – بعكس تايلور – فالفكرة ذاتها واضحة إلى حد كبير جدا فى كتاباته، ويبدو أنه متأثر فى هذا الصدد بما كتبه تايلور عن هذا الموضوع فى كتابه «الثقافة البدائية Primitive Culture» كذلك اضطر هؤلاء العلماء إزاء النقص الشديد فى المعلومات الإثنوجرافية المؤكدة عن ماضى تلك الثقافات إلى الإلتجاء لوسيلة أخرى لا تقل سوءاً عن الاعتماد على «الرواسب» الثقافية وأعنى بها التاريخ الظنى أو التاريخ التخمينى Conjectural History الذى كان الباحث بمقتضاه يتصور وجود أحداث لم يقم الدليل على حدوثها بالفعل فى الماضى وذلك حتى تظهر نظريته فى صورة منطقية محكمة. وليس هنا مجال الإفاضة فى الحديث عن هذه الطرق والمناهج. إلا أن الإنصاف يدعو إلى القول إن هؤلاء العلماء ومنهم فريزر بطبيعة الحال – كانوا يحاولون قدر الإمكان الإستعانة بالمعلومات التى بدأت ترد بكثرة فى كتابات الرحالة والمبشرين عن المجتمعات الهمجية أو البدائية المعاصرة لهم، وكانوا يفترضون أن ثقافاتهم تمثل المراحل الأولى من تاريخ الثقافة الإنسانية فى عمومها، وذلك على زعم أن «الرجل البدائى» يمثل طفولة الجنس البشرى مثلما يمثل الطفل أولى مراحل نمو الإنسان نحو النضج» والاكتمال. والهام من هذا كله هو أن علماء القرن التاسع عشر حاولوا عن طريق الأساليب والمناهج المختلفة الوصول إلى «أصل» النظم والأشياء مثلما وصل داروين إلى تحديد «أصل الأنواع».

وعلى الرغم من أن فريزر سار فى نفس الطريق الذى سلكه علماء القرن التاسع عشر التطوريون وتأثر فى كتابته بأفكارهم وآرائهم بحيث أصبح اسمه يتدرج تحت مجموعة المدرسة التطورية، فلم يكن له فى حقيقة الأمر «منهج» واضح يتبعه ويتمسك به ويدافع عنه، بل إنه لم يحاول أن يشرح بإسهاب موقفه من دراسة الظواهر

الاجتماعية والثقافية التى يملأ بها كتاباته، ولم يترك لنا بذلك نظرية متماسكة واضحة المعالم مثلما فعل غيره من العلماء المعاصرين له. فهو لم يشرح لنا مثلا رأيه فى التطور أو المراحل التطورية أو فكرة «الأصل الأول». بل إنه لم يذكر لنا صراحة أى تعريف أو تحديد لمعنى «الرواسب» أو «المخلفات» التى ترددت كثيراً فى كتاباته والتى استعارها بغير شك من كتابات تايلور وبخاصة من كتابه «الثقافة البدائية» Primitive Culture على نحو ما ذكرنا. والواقع أن الناحية النظرية فى كتابات فريزر تعتبر أضعف النواحى فى كتاباته وهى تثير بالتالى كثيرا من الشكوك حول مكانته فى الأنثروبولوجيا مما يضعه فى مرتبة متأخرة عن المرتبة التى يحتلها تايلور وسبنسر مثلا، وذلك على الرغم من أنهما لم يتلقيا تعليما جامعيا منتظما بعكس فريزر الذى عاش حياته كلها فى أروقة الجامعة. فالأفكار التى اقتبسها فريزر من المدرسة التطورية ليست فى الواقع إلا مبادىء عامة استرشد بها فى كتاباته، ومن الصعب اعتبارها منهجا صريحا متكاملا التزم به واتبعه بدقة، وكل ما يقال عن «منهج» فريزر التطورى هو استنتاجات نخلص إليها من قراءة كتبه العديدة التى هى فى مجموعها أقرب إلى كتب الأدب والثقافة العامة منها إلى الكتب العلمية الدقيقة بالمعنى الضيق لهذه الكلمة. ولقد كان فريزر نفسه أديباً وفناناً أكثر منه عالماً أكاديميا وهو يعالج فى كتبه كثيراً من الموضوعات الصعبة التى كانت ولا تزال تعتبر من الموضوعات التى يتعرض لها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وظهرت فيها عدة نظريات محكمة تهزأ كلها من طريقة فريزر فى التفكير والتأليف والكتابة والعرض، على اعتبار أنها طريقة تتنافى تماما مع متطلبات التفكير العلمى الدقيق الصارم. ومن ثم فإن الكثيرين من علماء الأنثروبولوجيا المحدثين ينفرون الآن من هذه الكتابات نفوراً شديدا ويرفضون اعتبارها كتابات فى الاجتماع والأنثروبولوجيا حين

يخضعونها للمقاييس الحديثة المتبعة فى هذين العلمين. وامتد هذا النفور حتى أصبح نوعا من الجحود والتنكر للجهود التى بذلها فريزر فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية . نجد الآن من بين العلماء من يرفض الاعتراف بأثر فريزر وكتاباته فى توجيه الجيل التالى من الأنثروبولوجيين، وإذا كان له أى أثر على الإطلاق فى هذا المجال فهو – فى زعمهم – أقل بكثير من أثر كثير من العلماء المعاصرين له الذين لم يتركوا مثل ذلك الانتاج الضخم من الكتابات التى تركها فريزر.

وترجع بعض المسئولية فى ذلك إلى الطريقة التى اتبعها فريزر فى التأليف والتى تعتمد على جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات من كل أنحاء العالم عن أى موضوع ورصها رصا بعضها إلى جانب بعض والمغالاة فى ذكر التفاصيل التى يضيع بينها القارىء وتضيع معها أية مبادىء نظرية كان يمكن استخلاصها منها، ولقد ذكر من قبل أن مثل هذه الطريقة كانت متبعة من قبل جميع العلماء فى القرن التاسع عشر وأنها السبب الرئيسى فى تضخم كتابات هؤلاء العلماء، إلا أن فريزر فاقهم جميعا فى هذا المضمار نظرا لظروف حياته الخاصة وانقطاعه تماما للقراءة والتأليف. ولقد أدى ذلك إلى أن تصبح كتاباته وبخاصة «الغصن الذهبى» مزيجا غريبا من الحقائق والمعلومات الأثنوجرافية الجزئية التى تبدو لأول وهلة أنها لاتخضع لأى ضابط أو مبدأ. وإن كان فريزر يسلط عليها فكرة المنطق محاولا أن يردها إلى شىء من الوحدة والتماسك. ولقد وصفت روث بندكيت كتاب «الغصن الذهبى» بالذات بأنه يجمع اشتاتاً من مظاهر السلوك والتصرفات التى ينتقيها فريزر من كل الثقافات رغم ما بينها من تباين ثم يحاول أن يزاوج بينها بحيث يخرج لنا فى النهاية مسخاً مشوهاً «عينه اليمنى من فيجى وعينه اليسرى من أوروبا. وإحدى ساقيه من تييرا ولفويجو بينما الساق الأخرى من تاهيتى وكل أصبع من أصابع يديه وقدميه من

منطقة مختلفة فهو بذلك مخلوق لا يوجد له مثيل فى الحقيقة والواقع لا فى الماضى ولا فى الحاضر[1]». وهذا قول يمكن أن يصدق على كتابات معظم علماء القرن التاسع عشر ولكنه يصدق فى المحل الأول وبكل قوة وقسوة على فريزر.

ويزيد الأمر سوءاً أن فريزر، على الرغم من تأثره الذى لا شك فيه بكتابات روبرتسون سميث وتايلور، لم يفلح فى أن يدرك دقائق نظرياتهما فضلا عن أن يتابع السير فى الطريق الذى شقه كل منهما وأن يعمل على تطوير تلك النظريات. بل إن كتاباته فى بعض الميادين أغفلت تماما كثيرا من النواحى الهامة المثمرة التى كان هذان العالمان، وبخاصة روبرتسون، قد طرقاها، وبذلك جاءت كتاباته أقل فى مستواها من كتابتهما. وربما كان أفضل مثل لذلك هو موقفه من دراسة الدين الذى يحتل مكانا هاما فى معظم كتبه. فالمعروف مثلا أن روبرتسون سميث كان أول من وجه الأنظار إلى العناصر الاجتماعية فى الدين وبين أن أى محاولة للوصول إلى فهم عميق للعقائد والشعائر فى أى دين من الأديان وبخاصة فى أديان المجتمعات البسيطة يجب أن تعطى جانبا كبيرا من العناية بدراسة المكونات الاجتماعية فى هذه العقائد والشعائر، على أساس أن الدين فى تلك المجتمعات هو حصيلة الحياة الاجتماعية التى تسود هناك من ناحية، كما أنه جزء من ثقافة تلك المجتمعات من الناحية الأخرى. ومع أن هذه النظرية أفلحت فى توجيه المدرسة الفرنسية فى علم الاجتماع وتوجيه دراسات إميل دور كايم بالذات فى دراسة الدين البدائى بحيث يمكن اعتبار روبرتسون سميث هو المسئول الأول عن نظرية دور كايم بالذات فى دراسة الدين البدائى بحيث يمكن اعتبار روبرتسون سميث هو المسئول الأول عن

---

(١) Benedict, R. : *Patterns of Culture*, Routledge.

نظرية دور كايم فى الدين كما يعرضها فى كتابه «الصور الأولية للحياة الدينية»، فقد أخفق فريزر كل الإخفاق فى إدراك أهمية هذه العناصر وفى متابعة المناقشات النظرية التى كان روبرتسون سميث قد بدأها، وكان معنى ذلك أن فريزر لم يدرك - بالتالى - العوامل الاجتماعية فى الفولكلور والميثولوجيا، على الأقل بنفس العمق الذى نجده فى كتابات سميث ودور كايم، وظل الدين والسحر بالنسبه إليه - حسب تعبير مالينوفسكى[1] مجرد «فلسفات للحياة والمصير» حسبما كانت تظهر لذهن الرجل البدائى أو الوحشى أو الهمجى أو اليونانى أو الرومانى القديم. كذلك الحال فيما يتعلق بدراسته للتابو أو القانون، فقد فصلهما كل الفصل عن الواقع الاجتماعى الذى يعيشان فيه باعتبارهما جزءاً من الحياة الاجتماعية. فعلى الرغم من أن دراسته لموضوع التابو تشغل مساحة كبير من «الغصن الذهبى» علاوة على المقال الذى كتبه لدائرة المعارف البريطانية كما ذكرنا من قبل فلم يخطر بباله أن يعالجه كجزء من القانون البدائى، كما لم يخطر بباله أن من الصعب فهم القانون البدائى بدون النظر إلى المجتمع ككل. والشيء نفسه يمكن أن يقال فيما يتعلق بتأثير تايلور عليه. فعلى الرغم من أن فريزر نفسه يعترف بأنه مدين بالكثير لتايلور ويرد إليه فضل توجيهه إلى الاهتمام بالثقافة البدائية فإن كتاباته تخلو خلواً عجيبا من التفسيرات الحيوية Animistic التى تصبغ تفكير تايلور والتى أثرت فى كتابات الكثيرين من علماء ذلك العصر، وقد يكون ذلك دليلا على استقلال فريزر فى التفكير وفى تفسير المعلومات التى تصل إليه من الآخرين ولكنه فى الوقت ذاته يعتبر من أكبر العيوب التى تعيب كتاباته والتى ينقصها الاستناد إلى نظريات محكمة ودقيقة

(١) Malinowski, op. cit.

على عكس ما نجد فى كتابات معاصريه كما أن، الآراء النظرية التى قد تظهر من حين لآخر من بين أكوام المعلومات الإثنوجرافية المتراكمة آراء لا تستند إلى الواقع الاجتماعى ولا تكاد تربط تلك المعلومات بالحياة الاجتماعية السائدة فى تلك المجتمعات التى استمدت منها تلك المعلومات ذاتها .

٣

ويعكس لنا كتاب «الغصن الذهبى» أهم ملامح التفكير التطورى بن لمحاسبنه وعيوبه. وقد تضاربت الآراء حول أهميته وقيمته تضارباً شديدا: فبينما نجد اليوت سميث Illiot Smith الذى يعتبر من أهم أنصار المدرسة الانتشارية أو المدرسة القائلة بانتشار الثقافة Diffuion of Culture ينعت الكتاب بأنه مجرد «هراء علمى» فإن مالينوفسكى وهو من أهم أنصار المدرسة الوظيفية Functionalism يصفه بأنه إحدى الملاحم الإنسانية العظيمة، وذلك على الرغم من أن كلتا المدرستين: الانتشار والوظيفية تعارضان المدرسة التطورية معارضة شديدة بل إنهما قامتا فى الأصل لهدم آراء هذه المدرسة التى تعتمد اعتماداً كبيراً على التاريخ الظنى أو التاريخ التخمينى فى إقامة نظرياتها حين كان يعوزها الدليل القاطع والشواهد اليقينية على صدق ما تذهب إليه[1].

(١) على الرغم من أن المدرسة الانتشارية تعيب على المدرسة التطورية افتراضها وجود مراحل معينة مرت بها الإنسانية خلال تاريخها دون أن يكون ثمة دليل على وجود هذه المراحل، فإن اليوت سميث نفسه وقع فى مثل هذا الخطأ حين ذهب فى كتابه المشهور «انتشار الثقافة» وكذلك فى كتابه القصير «فى البدء In the Beginning » إلى القول بانتشار الثقافة فى العالم كله من مصدر واحد أصلى هو مصر القديمة ورسم الخطوط التى سارت فيها الثقافة المصرية أثناء انتشارها من مكان لآخر دون أن يكون لديه دليل على ذلك غير مجرد التشابه بين الملامح والسمات الثقافية فى مصر من ناحية والمناطق البعيدة النائية من الناحية الأخرى. فجانب كبير من نظريات اليوت سميث والانتشاريين تقوم بدورها على مجرد التخمين.

وعلى أية حال فليس من شك فى أن «الغصن الذهبى» هو أهم كتب فريزر لا لأنه أضخم مؤلفاته التى تتصف عموماً بالضخامة فحسب، أو لأنه يستوعب قدراً هائلا من المعلومات التى تجعل منه دائرة معارف هامة تعالج كثيرا من أمور الدين والسحر والشعائر والأساطير والفولكلور، بل أيضا– وربما كان هذا هو النقطة الرئيسية فى الموضوع – لأن الكتاب يضم معظم جوانب تفكير فريزر ومعظم آرائه فى مختلف الموضوعات التى تناولها فى كتبه الأخرى بشىء من التفصيل، ومن هذه الناحية يعتبر «الغصن الذهبى» الكتاب الرئيسى الذى تتركز فيه خلاصة تفكير فريزر بشكل أكثر تنسيقاً مما نجده فى الكتب الأخرى، كما أنه هو الكتاب الوحيد الذى يربط فيه بطريقة منهجية بين تلك الآراء أو «النظريات العديدة التى صاغها عن الدين والسحر والطوطم والتابو وأرواح الموتى وما إليها، بحيث يستطيع القارىء – حتى القارىء المتخصص – أن يستغنى عن بقية كتاباته فيما عدا دراسته القصيرة عن النظام الطوطمى Toteimism التى تتميز رغم قصرها غير المألوف فى كتاباته[1] بالعمق والإحكام. يضاف إلى ذلك أن «الغصن الذهبى» أثر تأثيرا قويا فى الأنثروبولوجيا البريطانية فى بداية هذا القرن وذلك على الرغم من كل ما يثيره الأنثروبولوجيون المحدثون من اعتراضات وانتقادات. وقد يكون هذا التأثير قد أتى بطريق غير مباشر نتيجة للمناقشات الطويلة العنيفة التى دارت حولها أوساط العلماء من أنصار المدرسة الوظيفية التى تعترض على جمع المعلومات والحقائق من مختلف المجتمعات والعصور وترى أن الأجدر بالأنثروبولوجيا أن تركز اهتمامها على دراسة مجتمع

(١) هذا الكتاب القصير هو غير كتابه الذى سبقت الإشارة إليه «الطوطمية والاكسوجامية» والذى يقع فى ثلاثة أجزاء، والواقع أن الكتاب القصير الذى ظهر أولا عام ١٨٨٧ أصبح جزءا من الكتاب الكبير الذى كانت طبعته الأولى عام ١٩١٠.

واحد. من جميع نواحيه بحيث تدرس العلاقات المتبادلة بين النظم الاجتماعية المختلفة السائدة فى ذلك المجتمع المعين. ولكن هؤلاء العلماء جميعا تأثروا بدرجات مختلفة بنظرية فريزر عن النظام الطوطمى بالذات وهى نظرية لا يزال لها بعض الاعتبار، كما أن المنهج الذى اتبعه فى كتاباته ظل لفترة طويلة يعتبر مثالاً للمنهج المقارن وذلك قبل أن يظهر العلماء الوظيفيون فى أواخر الثلاثينيات من هذا القرن وأوائل الأربعينيات لينادوا بأنه ليس ثمة جدوى من مقارنة الأحداث الجزئية والظواهر البسيطة المفردة مثلما فعل فريزر، وأن المقارنة العلمية يجب أن تقوم بين أنساق كاملة من هذه الظواهر، لأن الظاهرة الواحدة قد توجد فى مجتمعين مختلفين فيكون لها معنيان مختلفان. فالانتقادات التى وجهت إلى فريزر إذن كانت من أهم أسباب تقدم الأنثروبولوجيا وظهور المدارس الحديثة السائدة الآن. وليس هذا بالفضل اليسير الذى يعزى إلى كتابات فريزر، رغم ما قد يبدو فى هذا القرن من غرابة.

وأخيراً فإن يمكن القول إن كُتابات فريزر بوجه عام «والغصن الذهبى» بوجه خاص كان لها دخل كبير فى استثارة خيال رواد الأنثروبولوجيا الاجتماعية الأوائل وحفزهم على القيام بالدراسات الحقلية بين الشعوب البدائية أو القبائل الهمجية – كما يسميها فريزر – التى كتب عنها وتناول حياتها الدينية وممارساتها الشعائرية والسحرية بالدراسة والتحليل، وإن كان مزاج فريزر الخاص قد أقعده عن الحركة والانتقال وصرفه عن السفر والرحلة لدراسة تلك الشعوب التى جعل من حياتها موضوعاً لتخصصه. ونحن نعلم أن من أهم ما يميز الأنثروبولوجيا الاجتماعية عن علم الاجتماع اهتمام الأنثروبولوجيين بدراسة الحياة الاجتماعية عند البدائيين بالذات! دراسة تعتمد الملاحظة المباشرة التى تتطلب من الباحث الإقامة الطويلة التى قد تصل إلى عامين أو أكثر فى المجتمع الدى يدرسه. ولم تكن تقاليدالدراسة الحقلية

قد وضعت أيام اشتغال فريزر بتأليف «الغصن الذهبى» ولكن الملاحظ أن أول بعثة فى تاريخ الأنثروبولوجيا فى بريطانيا خرجت من جامعة كمبردج التى ارتبط اسم فريزر بها وضمت البعثة عدداً من علماء كمبردج الذين عاصروا فريزر واتصلوا به اتصالا وثيقاً وبخاصة هادون Haddon[1]. ومع «الغصن الذهبى» الذى ظهر فى طبعته الأولى عام ١٨٩٠ فقد أمضى فريزر سنوات طويلة بلا شك وهو يعد لهذا الكتاب عن طريق الاستعانة بالرحالة والمبشرين ممن عملوا بين تلك الشعوب البدائية، كما أنه أعد فى عام ١٨٨٧ قائمة طويلة من الأسئلة عن «أخلاق الشعوب المتحضرة أو شبه المتحضرة وعاداتها وأديانها وخرافاتها»[2] وكان يرسلها لكل من يعرف أن له صلة بالشعوب البدائية ليطلب إليه الإجابة عليها، وضمن كتاباته المختلفة كثيراً من هذه المعلومات، وتعتبر هذه الوسيلة من الأساليب والطرائق التى يلجأ إليها بعض الأنثروبولوجيين حتى الآن لاستكمال معلوماتهم رغم ما يشوبها من عيوب.

وإذا كان كتاب «الغصن الذهبى» هو أهم كتب فريزر فهو أيضا أشهرها وأكثرها ذيوعاً. ولعله الكتاب الوحيد من كتبه الذى لا يزال يُقرأ حتى الآن- فى صورته الموجزة التى نقدم الآن لترجمتها- خارج دائرة المتخصصين فى الأنثروبولوجيا، وإذا كان الأنثروبولوجيون المحدثون يرون أن معظم نظرياته أصبحت الآن بالية ولا يعتد

(١) الواقع أن فكرة قيام الأنثروبولوجيين بالدراسات الحقلية بدلا من الاعتماد على تقارير الرحالة أخذت تسيطر على الأذهان فى أواخر القرن الماضي، وقد بدأالعالم الأمريكي بوس Boas دراساته الحقلية بين عامى ١٨٨٣- ١٨٨٤، أما بعثة جامعة كمبردج فقد اتجهت إلى المضايق Torres Straits وغينيا الجديدة عام ١٨٩٨ واشترك فيها ستة من العلماء تخصصات مختلفة، ولم يكن بينهم أى عالم أنثروبولوجي وإن كان بعض اتجه بعدها إلى التخصص فى الأنثروبولوجيا مثل هادون نفسه و سيلجمان Seligman وريفرزRivers ، وقد أصبح الثلاثة فيما بعد من الأنثروبولوجيين الذين قاموا بدراسات وأبحاث حقلية فى مناطق أخرى.

(٢) Questions on the Manners, Customs, Religions, Superstitions, etc., of Uncivilized or Semi-Civilized People (1887). وقد أضاف إليها عدة إضافات وأدخل عليها كثيرا من التعديلات فيما بعد بحيث ظهرت عام ١٩٠٧ فى شكل كتيب قصير.

بها كثيراً بالإضافة إلى بساطة هذه النظريات وسذاجتها التى قد تصل أحياناً إلى حد الفجاجة فإن للكتاب خصائص أدبية لا يمكن إنكارها مما يقربه إلى غير المتخصصين.

والكتاب رغم طوله وكثرة المعلومات فيه بشكل غير مألوف يدور حول موضوع مركزى بسيط ولكنه هام ويعتبر من أهم أشكال التنظيم الاجتماعى فى المجتمعات البدائية، وأعنى به نظام الملك المقدس أو المؤله. ويبدأ الكتاب بمعالجة أسطورة قديمة مؤداها أن كاهن الإلهة ديانا فى نيمى – وهو فى الوقت ذاته ملك المنطقة التى تسكنها الإلهة – لا يصل إلى مكانته السامية إلا إذا تمكن من قتل الكاهن الملك الذى يحتل تلك المكانة بالفعل واستولى منه عنوة على السلطة بنوعيها: سلطة الملك وسلطة الكهنوت، وأنه قبل أن يفعل لابد من أن يقطع غصنا معينا من شجرة معينة بالذات يعتقد به الكتاب أنه هو الغصن الذهبى الذى ورد ذكره فى شعر فيرجيل فإذا ما تم له النصر على خصمه كان عليه أن يعمل ما استطاع للمحافظة على حياته هو ومنصبه وأن يدافع عنهما طيلة الوقت فهو يدرك تماما أنه ما قتل سلفه فسوف يُقتل بيد آخر فهذا مصير كل ملك كاهن وقدره. ومن هذه البداية يتتبع فريزر الأسطورة فى أشكالها وصورها المختلفة فى كثير من شعوب الأرض سواء فى العصور الغابرة أو فى الأزمان السالفة حيث توجد الأسطورة- بل والنظام ذاته مع لدى عدد من الشعوب الإفريقية، وإن كان هذا النظام قد اندثر الآن تماماً أو كاد أن بعض هذه القبائل لا تزال تقوم بتمثيل الأسطورة حين يأخذ السن برؤسائها ويُطلب إليهم اعتزال مناصبهم وتركها لرؤساء آخرين من الأجيال التالية. وقد شدت هذه الأسطورة انتباه فريزر إليها واهتم منذ البداية بالبحث عن إجابته لسؤالين هامين فى نظريته الأول هو: لماذا كان يتعين على كاهن ديانا فى نيمى أن يقتل الذى سوف

يحل محله؟ والثانى هو: لماذا كان يتحتم عليه قبل أن يفعل ذلك أن يقطع ذلك الغصن الذى أشرنا إليه والذى اتخذه عنوانا لهذا الكتاب؟ وفى محاولته الإجابة على هذين السؤالين كتب فريزر كتابه الضخم بأجزائه الإثنى عشر.

بيد أن الكتاب ليس على هذه الدرجة من البساطة، فهو أبعد وأعمق بكثير من أن يكون مجرد سرد لأسطورة معينة وتتبع أشكالها ومحاولة تفسيرها على الرغم من مظهر الكتاب الخادع. فليست الأسطورة فى حقيقة الأمر سوى ذريعة يتذرع بها فريزر ليعرض رأيه فى تطور الفكر الإنسانى والمجتمع البشرى تمشياً مع التيار العام الذى كان يسود فى القرن التاسع عشر. ولقد حدد فريزر نفسه موضوع الكتاب بأنه دراسة للتطور الطويل الذى مر به فكر الإنسان وجهوده للسيطرة على العالم وعلى الكون كله خلال عدد من المراحل المتتالية التى تتصف كل مرحلة منها بطابع عقلى عام يمثل موقف الإنسان من الكون وعلاقته به. فالطابع الغالب على الكتاب إذن هو الطابع التطورى المقارن الذى يعتمد على جمع المعلومات والحقائق من جميع أنحاء العالم وفى كل الأزمان للتعرف على أوجه الشبه أو الاختلاف بينها. فهو فى جوهره كتاب فى الأنثروبولوجيا الثقافية التطورية، شأنه فى ذلك شأن الكثير من الكتب التى صدرت عن أقلام كبار العلماء الأوائل الذين ظهروا فى ذلك القرن من أمثال تايلور وباخوفن J.J Bachofen وسير هنرى مين Sir Henry Maine وماكلينان Mclennan ولويس مورجان وغيرهم من العلماء التطوريين الذين اتبعوا المنهج التطورى المقارن وأرسوا بذلك قواعد الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأنثروبولوجيا الثقافية، على الرغم من كل الأخطاء التى وقعوا فيها نتيجة لاعتمادهم على التاريخ التخمينى وعلى الافتراضات التى لا تستند إلى الشواهد والأدلة المؤكدة الثابتة، وإن كان فريزر يقل عن هؤلاء جميعا فى قدرته على التفكير النظرى، كما أنه لم يلبث أن

أسقط من حسابه تماما كل محاولة لتحليل المعلومات التى جمعها والتى تزخر بها كتبه التى ظهرت بعد «الغصن الذهبى» وبخاصة كتبه المتأخرة التى لم تعد إلا أن تكون مجرد سرد وصفى للظواهر الاجتماعية والثقافية فى مختلف أنحاء العالم.

ولقد مر العالم فى رأى فريزر من حيث العلاقة بين الإنسان والكون بثلاث مراحل كبرى هى مرحلة السحر ثم مرحلة الدين وأخيراً مرحلة العلم الذى يعتبره فريزر قمة ما وصل إليه الإنسان من ناحية ونهاية الإنسان نفسه التى سوف يلقى حتفه فيها من ناحية أخرى. وفكرة التمييز بين ثلاث مراحل فى تاريخ الإنسان والمجتمع فكرة كانت شائعة شيوعاً كبيراً فى كتابات علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا فى القرن التاسع عشر وإن اختلفت التسميات من عالم لآخر. إذ نصادفها فى قانون الحالات الثلاث الذى قال به أوجيست كونت Auguste Conte والذى بمقتضاه ميز بين ثلاث حالات أو مراحل أساسية للمجتمع الإنسانى هى المراحل اللاهوتية والميتافيزيقية ثم الوضعية. ولكن هذا التقسيم الثلاثى بلغ ذروته عند علماء الأنثروبولوجيا الأوائل الذين أفاضوا- كل على طريقته الخاصة وتبعا لتصوره لتاريخ العالم وحسب نظريته فى ذلك- فى شرح خصائص كل مرحلة فى هذه المراحل الثلاث ومميزاتها وأهم ملامحها وعلاقتها بالمرحلتين الأخريين. وربما كان تقسيم لويس مورجان هو أهم هذه التقسيمات، أو على الأصح أكثرها ذيوعاً، نظراً لأنه اكتسب فيما بعد بعض المضامين السياسية حين اتخذه فلاسفة الشيوعية أساساً من الأسس التى أقاموا عليها نظريتهم السياسية. ولقد ميز مورجان فى تاريخ العالم بين ثلاث مراحل رئيسية هى الوحشية أو الهمجية Savagery والبربرية Barbarism ثم الحضارة الحديثة. بل إنه حين أراد التمييز داخل كل مرحلة من المرحلتين الأوليين بين فترات زمنية وحضارية متمايزة قسم كل مرحلة منهما إلى ثلاث فترات هى الدنيا والوسطى

والعليا. فكأن فريزر فى محاولته التمييز بين ثلاث مراحل فى تاريخ الإنسان وعلاقته بالكون ومحاولته السيطرة عليه وتسخيره لصالحه الخاص إنما كان يسير فى نفس التيار الفكرى الذى كان يسود فى ذلك العصر والاختلاف الوحيد فى هذا الصدد هو الزاوية التى نظر منها إلى ذلك التاريخ. فبينما كان غيره من العلماء يقيم تصنيفه على أساس التمايز فى أنماط الحياة الاقتصادية أو السياسية أو الجنسية أقام فريزر نظريته على أساس التمايز فى نظرة الإنسان إلى الكون الذى يحيط به ونوع العلاقات المتبادلة بين الإنسان من ناحية وبقية الكائنات التى تعمر هذا الكون والظواهر الطبيعية الهامة من الناحية الأخرى. وفريزر يقترب من ذلك اقترابا شديدا من موقف تايلور وإن لم يتعمق فى تحليل هذه العلاقات بنفس الطريقة أو على نفس المستوى اللذين نجدهما عند تايلور .



وتعتبر نظرية السحر والدين أهم ما أسهم به فريزر فى الدراسات الأنثروبولوجية التطورية وإن كانت له بعض نظرات مقبولة فى علاقة النظام الطوطمى والزواج الإكسوجامى على ما سبق أن ذكرنا وربما كان أطرف ما فى هذه النظرية محاولته، الربط والتقريب بين السحر والعلم اللذين يقفان موقف التعارض مع الدين، ولكنهما يقومان على أسس ومبادىء منطقية واحدة تعتمد على تداعى المعانى أو ترابط الأفكار وإن كانت عملية التداعى فى السحر تتم بطريقة خاطئة. فالسحر صورة من صور تطبيق - أو على الأصح إساءة تطبيق- مبادىء تداعى وترابط المعانى، ولذا يطلق عليه فى كتابات كل من تايلور وفريزر اسم «العلم الزائف» أو «العلم الكاذب» Pseudo-Science[1] وليس ثمة ما يدعو إلى الدخول هنا فى كثير من التفاصيل عن نظرة فريزر إلى السحر، فهو يعرضها فى هذا الكتاب عرضا دقيقا وطريفا وبكثير من التفاصيل ويبرز رأيه بكثير جدا من الأمثلة التى يستمدها من كل أنحاء العالم. ويكفى هنا أن نشير إلى المبدأين الأساسيين اللذين يقوم عليهما السحر وهما المبدأ القائل بأن «الشبيه ينتج الشبيه» والمبدأ القائل «باستمرار التأثير المتبادل بين

(١) أنظر فى ذلك كتابنا عن «تايلور» المرجع السابق ذكره، صفحات ٨٤-١٠٠.

الأشياء المتصلة حتى بعد انفصالها بعضها عن بعض». أى أن الأشياء التى كانت متصلة فى وقت من الأوقات يؤثر أحدهما فى الآخر بعد أن يتم انفصالها. ويعتبر هذان المبدآن فى نظر فريزر قانونين للسحر البدائى، أو على الأصح موقف البدائى من السحر، وإن كان البدائيون أنفسهم عاجزين بحكم الواقع عن صياغة هذا الموقف أو تلك النظرة فى شكل مبادىء وصيغ وقوانين مجردة، على الرغم من أنهم يتخذون من هذين المبدأين أساسا لفهم مجريات الأمور وكل أحداث الطبيعة التى تتم بدون أى تدخل من الإرادة الإنسانية، وعلى الرغم أيضا من اعتمادهم عليهما فى تسخير قوى الطبيعة لصالحهم الخاص. فنظرية السحر عند فريزر هى فى الحقيقة نظريته فى موقف الرجل البدائى من العالم ونظرته إليه، وهى نظرة تقوم على التجربة وعلى الملاحظة والخبرة الطويلة بظواهر الحياة وأحداثها وتقلبات الفصول، وكلها أسس هامة فى قيام العلم والتفسير العلمى. ومن هنا كان الربط والتقريب بين السحر والعلم فى كتابات فريزر .

وتفسير السحر بالخطأ فى تداعى الأفكار وترابطها يثير فى الذهن ما ذهب إليه عالم الاجتماع الفرنسى لوسيان ليفى بريل Lucien Levy - BruhL من أن العقلية البدائية عقلية سابقة على المنطق Pre-Logique، وهو قول أخطأ فهمه الكثيرون من الكتاب وهاجموا بذلك ليفى بريل ونظريته حيث اعتقدوا – خطأ– أنه يقصد القول بأن الرجل البدائى عاجز عن التفكير المنطقى. والواقع أن كل ما كان يقصده ليفى بريل بجملته المشهورة هو أن للرجل البدائى منطقا يختلف عن منطق الرجل الحديث نظرا لاختلاف الأصول التى يستمد منها كل من الرجل البدائى والرجل المتحضر فى المجتمعات الغربية مادة تفكيره، وكذلك نظرا لاختلاف الظروف التى تحيط بكل منهما، وهو قول لا غبار عليه. وكثير من النظريات الحديثة عن السحر ومحاولة

تفسيره تبين لنا أن خطوات التفكير التى يسيز فيها عقل الرجل البدائى خطوات منطقية تماما بالنسبة له ولظروف حياته والبيئة التى يعيش فيها. فما نسميه نحن سحراً هو «علم» الرجل البدائى الذى يتحدد بمدى معرفته بأسرار الكون وظواهر الطبيعة، بينما ينشأ الدين من أصول أو مبادىء مختلفة كل الاختلاف عن الأصول أو المبادىء التى يقوم عليها علم البدائيين (السحر) الذى نسميه علما زائفا أو كاذبا، وعلم المتحضرين على السواء، وربما كان ذلك هو السبب الرئيسى فى اهتمام علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع بالتمييز بين السحر والدين وتبيين التعارض بينهما مما أدى إلى ظهور كثير من النظريات التى تعتمد كل منها على مقاييس مختلفة للتمييز بين الاثنين.

ولقد أقام فريزر تمييزه بين السحر والدين على أساس أن الدين يشترط الاعتقاد فى الكائنات الروحية أو الإلهية والأرباب بينما يتألف السحر من الأعمال والممارسات والشعائر التى تتصل بالكائنات الأخرى. ويتفق رأى فريزر مع رأى معظم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا فى القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن فى أن السحر أسبق فى الزمن من الدين. ولقد كان الرحالة والمبشرون والعلماء الأوائل على العموم يفترضون أن الرجل البدائى لا يعرف الدين الذى يرتبط فى نظرهم بالأشكال الأكثر تقدما من الحضارة، وحتى تايلور Tylor نفسه، على الرغم من أنه لم ينكر وجود الدين كل النكران فى الأشكال البدائية للحياة الاجتماعية، كان يرى أن فكرة الله لم تظهر إلا فى مرحلة متأخرة من تاريخ الإنسانية بعد تطور طويل فى التفكير الحيوى أو الأنيمى animism الذى كان يرى الحياة والروح منتشرتين بصورة أو بأخرى فى كل الموجودات وجميع الكائنات. وقد بلغ من شيوع هذه الفكرة وسيطرتها على الأذهان أن ضاعت الأصوات التى أرادت التدليل على أن فكرة الله كانت موجودة

دائما فى ضمير البشرية ومنذ أقدم العصور، وأن الرجل البدائى فى كل المجتمعات المتأخرة المعروفة لنا عنده فكرة الدين(١). فالرأى السائد إذن بين هؤلاء العلماء هو أن السحر مهد لظهور الدين، وأن معظم الممارسات والطقوس التى يمارسها البدائيون والتى تتصل بعالم الغيبيات وبالكائنات الإعجازية أو الخارقة للطبيعة هى ممارسات وطقوس سحرية، ولم يشذ فريزر عن ذلك الرأى أو يخرج عليه.

واختلاف النظريات التى تدور حول التفرقة بين السحر والدين وتعدد هذه النظريات يكشف لنا عن صعوبة التمييز بينهما. والكتابات الأنثروبولوجية زاخرة بالآراء والقواعد والأسس المتضاربة التى يحاول أصحابها الالتزام بها فى محاولتهم التمييز بين الاثنين. ولكن معظم الآراء تكاد تتفق على عدد من الأسس الهامة؛ أولها أن السحر له القدرة على «إجبار» عالم ما فوق الطبيعة أو عالم الغيبيات على تحقيق مطالبه، وأن الممارسات السحرية لا يمكن أن تفشل فى تحقيق النتائج المرجوة إلا نتيجة ارتكاب أحد الأخطاء أثناء ممارسة تلك الطقوس أو نتيجة لتدخل سحر آخر مضاد يكون أقوى مفعولا وذلك بعكس الدين الذى لا يحقق – فى رأى أنصار فريزر على الأقل– النتائج المطلوبة فى كل الأحوال نظرا لأنه يقتصر على التضرع والابتهال والسؤال دون القيام بأى عمل إيجابى لتحقيق مطالبه. ومن ناحية أخرى فإن الممارسات السحرية لا يمكن القيام بها على مستوى المجتمع كله، أو الجانب الأكبر منه، كما هى الحال بالنسبة للدين، بل إنها كثيرا ما تمارس فى الخفاء وقد لا يكون لها أى مظهر اجتماعى على الأطلاق، ومن أهم الاختلافات بين السحر والدين أن

(١) يعتبر آندرو لانج Andrew Lang من أهم أنصار الرأى القائل بقدم فكرة الدين عند الإنسان، وقد هاجم لانج كتابات فريزر وبخاصة الغصن الذهبى هجوما عنيفا ومريرا أمتنع فريزر على أثره عن قراءة أى نقد يوجه إلى كتاباته نظرا لما أصابه من اضطراب بعد قراءة نقد لانج صرفه مدة طويلة عن الكتابة والتأليف.

السحر يعتمد على عبارات تعاويذ وصيغ كثيرا ما تكون غير مفهومة حتى للأشخاص الذين يستخدمونها، وذلك بعكس الدين الذى يستخدم اللغة العادية السائدة فى المجتمع، وأخيرا فإن السحرة يؤلفون جماعة منعزلة عن رجال الدين كما أن نظرة المجتمع إليهم تختلف اختلافا كبيرا عن نظرته إلى رجال الدين، إذ يعتبرهم أقل منهم مكانة وأدنى فى المرتبة حتى وإن كان بعضهم يسخر سحره لصالح الجماعة كلها. ذلك كله بالإضافة إلى أن رجل الدين يحتاج فى العادة إلى فترة إعداد طويلة قبل أن يباشر وظيفته، وهى وضيفة يعترف بها المجتمع نفسه ويقرها، وذلك بعكس الحال بالنسبة للسحر، أو على الأقل بعض أنواعه وبخاصة السحر الأسود Black Magic أو السحر الضار. ولكن على الرغم من هذه الأسس فكثيرا ما يفشل العلماء فى التمييز بين ما هو سحر وما هو دين[١]، وكثير جدا من الأمثلة التى يوردها فريزر للسحر فى «الغصن الذهبى» يمكن بسهولة أن تؤخذ على أنها شعائر دينية ويبدو أن فريزر نفسه أحس بذلك إذ يشير فى أكثر من موضع من كتابه إلى أن بعض العناصر الدينية قد تجد طريقها إلى الممارسات السحرية، ولكن ذلك لا يحدث فى رأيه إلا فى المراحل الأكثر تقدما فى تاريخ الحضارة.

ومهما يكن من أمر هذه الاختلافات فإن الرأى السائد بين علماء الأنثروبولوجيا المحدثين الذين قاموا بدراسات وأبحاث حقلية بين الشعوب المتخلفة والتقليدية هو أن كلا من السحر والدين يقتضى نوعا مختلفا من السلوك الاجتماعى رغم أنهما يتعلقان بعالم الغيبيات ويستعينان بالكائنات الروحية أو بالقوى الخفية الخارقة للطبيعة لتحقيق الطمأنينة والهدوء وراحة البال والتوفيق. ويقف العلماء المحدثون من

---

(١) أنظر فى ذلك كتابنا عن «البناء الاجتماعى»، الجزء الثانى (الأنساق) دار الكاتب العربى للطباعة والنشر الاسكندرية ١٩٦٧ صفحات ٥٢٣-٥٢٧.

دراسة السحر والدين والعلم موقفا يختلف كل الاختلاف عن موقف فريزر ومعاصريه من علماء القرن التاسع عشر. فهم لا ينظرون إليها على أنها مراحل أو حالات مختلفة ومتمايزة يمر بها المجتمع الإنسانى فى تطوره، واحدة بعد الأخرى عبر الزمن، وإنما يعتبرونها ثلاثة أنماط من النشاط العقلى، أو ثلاث وجهات نظر إلى الكون وأحداث الطبيعة وأنها توجد جنبا إلى جنب فى المجتمع الواحد وفى وقت واحد ويؤثر بعضها فى بعض كما تؤثر بأشكال ودرجات مختلفة فى السلوك الإنسانى. ومن الإنصاف أن نقول إن فريزر، رغم منهجه التطورى الواضح ورغم ترتيبه للمراحل التى مر بها الفكر الإنسانى من السحر إلى العلم ومروره أثناء ذلك بالدين فإنه يذكر أمثلة كثيرة فى «الغصن الذهبى» تبين وجود هذه الحالات الذهنية الثلاث معا فى المجتمع وتبين التأثير المتبادل بينها، كما أنه لم يغفل تماما المظاهر المختلفة للسلوك البشرى فى المجتمعات التى يتعرض لها بالذكر. وهذا معناه أن بعض ملامح المنهج «الوظيفى» فى دراسة المجتمع – وهوالمنهج الذى يسيطر الآن على الدراسات الأنثربوولوجية – ظهرت فى كتابات فريزر مثلما ظهرت فى كتابات تايلور ومورجان وغيرهما من العلماء التطوريين، وإن كان الطابع الغالب على كتاباتهم هو الطابع التطورى الذى لا يهتم كثيرا – بعكس الحال فى الدراسات الوظيفية – بدراسة العلاقات المتبادلة بين النظم الاجتماعية المختلفة التى توجد معا فى المجتمع، ويحاول بدلا من ذلك أن يتعرف على أصل هذه النظم والعلاقات « التاريخية» بينها. ومن هنا ظهر الانتقاد الذى كثيرا ما يوجه إلى فريزر – والذى لا يخلو من الصحة – من أنه لم يحاول أن يدرس الممارسات السحرية والدينية على أنها ظواهر اجتماعية يقتضى فهمها ضرورة الإلمام ببقية النظم والأنساق الاجتماعية وكذلك نسق القيم السائد فى المجتمع، كما يستلزم الأخذ فى الاعتبار بوجهة نظر الناس أنفسهم عن الشعائر التى

يمارسونها ومعناها الاجتماعى بالنسبة إليهم دون الاكتفاء بتقديم تفسيرات الباحث نفسه لتلك الشعائر، فالأمر يحتاج إلى معرفة التفسيرات والتعليلات التى يقدمها أفراد المجتمع لسلوكهم الشعائرى والسحرى والدينى، وهو ما لم يكن يهتم به فريزر ومعاصروه الذين كانوا يهتمون فى المحل الأول بتقديم تفسيراتهم وتأويلاتهم هم أنفسهم، وهذه كانت متأثرة بغير شك بالمفهومات والتصورات المستمدة من واقع الحياة الشعائرية السائدة فى المجتمعات الغربية فى القرن التاسع عشر.

٥

ويدفعنا هذا إلى التساؤل عن المركز الحقيقى الذى يحتله فريزر فى الأنثروبولوجيا.. وعن مكانته بين الأنثروبولوجيين ومدى تأثيره فى التفكير الأنثروبولوجى على العموم. ولقد سبق أن رأينا كيف أن الكُتَّاب يختلفون فيما بينهم فى تقويم أعمال فريزر وكتاباته وبخاصة «الغصن الذهبى» الذى اعتبره البعض نوعا من الهراء والسخف العلمى وأنه أشبه شىء بالمسخ المشوه بينما يرتفع به البعض الآخر إلى مستوى أرقى الملاحم الإنسانية الرفيعة. وهذا الاختلاف نفسه لا يزال قائما بين العلماء المحدثين. فبينما نجد العلماء الشبان المتمردين على التقاليد الأنثروبولوجية القديمة يوجهون الكثير من النقد اللاذع الملىء بالسخرية إلى كتابات فريزر على نحو ما يفعل جارفى Jarvie مثلا يقوم بعض الأساتذة الكبار بالدفاع عنه والسخرية من الساخرين كما فعل ليتش Leach فى سخريته من جارفى والانتقادات التى يوجهها إلى فريزر. ومن الإجحاف أن نطبق على فريزر المعايير التى تستخدم الآن فى الدراسات الأنثروبولوجية أو أن نحكم على كتاباته بالمناهج المتبعة حاليا عند العلماء المحدثين. فلم تكن الدراسات الحقلية التى تعتبر الآن أداة البحوث الأنثروبولوجية قد عرفت حين عكف فريزر على التأليف، كما أن المدارس والاتجاهات السائدة الآن فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية وبخاصة الاتجاه البنائى الوظيفى لم تكن قد تبلورت

واتضحت فى أذهان علماء القرن الماضى وإن كانت بوادرها قد أخذت فى الظهور، كما أن المنهج المقارن بالمعنى السائد الآن لم يكن معروفا فى ذلك الحين وكانت المقارنة تعنى بكل بساطة محاولة تبيين أوجه الشبه أو الاختلاف بين ظواهر جزئية يجمعها الدارسون من كل زمان ومكان على ما ذكرنا من قبل. ولو أخذنا هذه الاعتبارات كلها فى الحساب فإنه يمكن القول بدون تردد إن فريزر كان يعتبر من أكبر علماء عصره، وأنه إذا كانت أهميته فى الوقت الحالى قد تضاءلت وكادت تتوارى فإن ذلك يرجع فى حقيقة الأمر إلى انحسار أهمية الكتابات الأنثروبولوجية التطورية وتراجع النظريات التطورية فى الأنثروبولوجيا أمام تيار النزعة الوظيفية البنائية الجارف نتيجة لتقدم الدراسات الحقلية. ومع ذلك فإنه على الرغم من كل ما يثيره المتشككون فى كتابات فريزر من انتقادات فإن التقارير الحقلية التى جاءت من رواد الأنثروبولوجيا الذين اتصلوا اتصالا وثيقا بالمجتمعات البدائية من أمثال سير بولدوين سبنسر B.Spencer وجيلين Gillin أيدت إلى حد كبير كثيرا من آرائه عن الرجل البدائى.

ومهما كانت نظرة العلماء «الكبار» إلى كتابات فريزر فلا يزال لهذه الكتابات وللغصن الذهبى بالذات تأثير هائل فى المبتدئين فى الدراسات الأنثروبولوجية كما أنها تعتبر؛ شأنها فى ذلك شأن كتابات عدد قليل محدود من العلماء المحدثين من أمثال مارجريت ميد Margaret Mead من الكتب الجذابة التى تحبب الأنثروبولوجيا إلى نفوس هؤلاء المبتدئين، ولذا فإنها تعد خير مدخل لهذه الدراسات على الرغم من كل ما يؤخذ عليها ويوجه إليها من انتقادات، وعلى الرغم من أن معظم العلماء المحدثين يضعون «الغصن الذهبى» بين كتب الأدب الإنجليزى وليس بين كتب الأنثروبولوجيا، ولقد تعدى هذا التأثير مجال الأنثروبولوجيا بالمعنى الدقيق للكلمة إلى

كثير من المجالات العلمية الأخرى، واعتمد كثير من العلماء - وبخاصة علماء التحليل النفسي - على المعلومات الكثيرة التي يزخر بها «الغصن الذهبي» في إقامة نظرياتهم . ولعل أفضل مثل لذلك هو اعتماد سيجموند فرويد في كتابه عن «الطوطم والتابو» على ذلك الكتاب واستمداده كثيرا من الأمثلة منه. والغريب في الأمر أن فريزر لم يكن يأبه كثيرا بفرويد ونظرياته بل كان يأبى أن يقرأ ما يكتبه هو وأعضاء مدرسته كما كان يحمل الكثير من الاحتقار للتحليل النفسي ذاته ولكل ما يتصل به[1]. ويعتبر الكثير من العلماء هذا الموقف من جانب فريزر دليلا على ضيق نظرته رغم اتساع معلوماته، وعلى تحيزه وتعصبه لآرائه واعتزازه الشديد بتلك الآراء وهو اعتزاز كثيرا ما كان يؤدي إلى إلحاق الأذى بسمعته. فقد صرفه عن مناقشة آراء الآخرين في كتاباته والتعرف على وجهة نظرهم في الموضوعات التي عالجها. وحين سلط عليه آندورو لانج لسانه اللاذع - كما ذكرنا - ووصف كتاب «الغصن الذهبي» وما فيه من نظريات وآراء ومعلومات بأنه «سوق خضار» المدرسة الأنثروبولوجية انتاب فريزر كثير من الألم والاضطراب بحيث أوقف العمل كلية لمدة طويلة.

وهذا كله يعزز الرأي الذي يسود بين جمهرة مؤرخي الأنثروبولوجيا من أنه على الرغم من التأثير العميق الذي كان فريزر يتركه في الناس والتلاميذ والقراء بكتاباته فلم يكن أستاذاً بمعنى الكلمة. فقد كان عزوفاً بل عاجزاً عن المناقشة، منطوياً على نفسه في الأوساط العلمية ولذا كانت نظرياته تعاني الكثير من الضعف والقصور. بيد أنه يبقى له الفضل رغم ذلك كله في إثارة الحماس في نفوس الكثيرين من شباب العلماء في عصره ممن أمكن لهم السير بخطى ثابتة في الطريق الذي شقه لهم

(١) Kardiner and Preble, op. cit.

الأستاذ. ويكفي أن نقرأ لأحد هؤلاء العلماء الذين ترتبط الأنثروبولوجيا الآن باسمهم، ونعني به مالينوفسكي، ما يقوله عن فضل فريزر عليه وأثره في توجيهه وتشجيعه أثناء دراسته الحقلية في غينيا الجديدة وميلانيزيا من أن «الخطابات والرسائل التي تسلمتها من فريزر أثناء إقامتي هناك ساعدتني بما أثارته من إيحاءات وتساؤلات وتعليقات أكثر من أي تأثير آخر». كما يبقى له بعد ذلك كله أيضا الفضل في جمع كل تلك المعلومات الهائلة من جميع الثقافات والشعوب والعصور وتقديمها للقارئ بطريقة مشوقة. وقد تكون النظريات التي أقامها فريزر نظريات ساذجة بسيطة خاطئة، لكن كتاباته لا تزال تدعو العلماء المحدثين إلى إعادة النظر في كل تلك الذخيرة المتنوعة من المعلومات وإعادة دراستها وتحليلها من زوايا جديدة بعد أن تقدمت النظرية الاجتماعية والأنثروبولوجية وظهر كثير من الاتجاهات والمدارس التي لم يكن لها وجود من قبل.

وقد يكون في نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ما يساعد المشتغلين بالدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية في العالم العربي على ارتياد بعض آفاق البحث العلمي التي لم تلق حتى الآن ما تستحقه من اهتمام وعلى بذل مزيد من العناية بدراسة تراثنا القديم وآدابنا الشعبية وثقافاتنا التقليدية المتنوعة في ضوء النظريات الحديثة حتى نصل إلى فهم أعمق وأفضل لذلك التراث وتلك الآداب والثقافات التي لا تزال تؤثر بشكل أو بآخر في حياتنا ونظمنا وقيمنا الروحية والأخلاقية والاجتماعية .

والله ولي التوفيق

أحمد أبو زيد

الاسكندرية سبتمبر ١٩٧٠

أهم أعمال فريزر :

(نكتفى هنا بذكر أهم كتب فريزر – غير كتاب «الغصن الذهبى» الذى يقع فى اثنى عشر مجلدا. وقد طبع معظم هذه الكتب عدة مرات، ولكننا نذكر هنا تاريخ الطبعة الأولى فقط. وقد تولى نشر هذه الكتب دار ماكميلان Macmillan بلندن إلا فى الحالات التى سوف نشير إليها):

1887 1) Questions on the Manners, Customs, Religions, Superstitions. etc., of Uncivilized or Semi- Civilized Peoples.

2) Totemism, Edinburgh, Adam and Charles Black.

1895 Pausanias's Description of Greece, Translated with a Commentary, six volumes.

1905 Lectures on the Early History of Kingship.

1908 The Scope of Social Anthropology. A lecture de- livered before the University of Liverpool, May 14, 1908.

1909 Psyche;s Task, A Discourse concerning the Influence of Superstitions on the Growth of Institutions.

1910 Totemism and Exogamy, A Treatise on certain Early Forms of Superstition and Society (Four volumes).

1913 The Belief in Immortality, The Belief Among the Aborigines of Australia, the Torres Straits Islands, New Guinea and Melanesia (Three volumes, vol. II in 1922, vol. III in 1924).

1915 Essays of Joseph Addison (two volumes).

1917 1) Studies in Greek Scenery, Legend and History

2) Folklore in the Old Testament, Studies in Comparative Religion, Legend and Law (three volumes).

1920 Sir Roger de Coverley and other Literary Pieces.

1921 Apollodorus, The Library (two volumes).

1923 Sir Ernest Renan, Paris, Geuthner and Co.

1926 The Workship of Nature.

1929 Publii Ovidii Nasonis Fastorum Libti Sex (five volumes).

1930 1) Graecia Antiqua.

2) Myths of the Origin of Fire. An Essay.

3) The Growth of Plato's Ideal Theory.

1933 1) Condorcet on the Progress of the Human Mind, Oxford.

2) The Fear of the Dead in primitive Religion (three volumes, vol. II in 1934, vol III in 1936).

1935 Creation and Evolution in Primitive Cosmogonies.

1936 Aftermath : A Supplement in the Golden Bough.

1937 Totemica: A Supplement to Totemism and Exogamy.

38/39 Anthologia Anthropologic (four volumes, passages Selected from Frazer's Notebooks and Edited by R.A. Downice).

تصدير المؤلف:

الهدف المبدئى لهذا الكتاب هو تفسير القاعدة الغريبة التى كانت تنظم عملية تولى منصب الكهنوت الخاصة بالإلهة ديانا فى أريكيا. وحين عكفت لأول مرة منذ أكثر من ثلاثين سنة على دراسة هذه المشكلة لإيجاد حل لها كنت أعتقد أن هذه مسألة هينة ميسورة. ولكننى لم ألبث أن أدركت أن الوصول إلى حل جائز أو حتى مقبول عقلا يحتاج إلى مناقشة عدد كبير من المسائل العامة الأخرى التى لم تكد تحظى بعناية أحد من الدارسين حتى الآن. ولقد شغلت مناقشة هذه المسائل والموضوعات المتفرعة عنها حيزاً كبيراً من الكتاب كان يتسع ويمتد فى الطبعات المتتالية، كما أن البحث ذاته تشعب فى مختلف الأنحاء بحيث أن الكتاب الذى كان يتألف فى الأصل من مجلدين اثنين تضخم حتى أصبح يضم اثنى عشر مجلداً. وفى الوقت ذاته أبدى الكثيرون رغبتهم فى أن يروا للكتاب طبعة موجزة. والمجلد الحالى هو محاولة للاستجابة لهذه الرغبة، وبالتالى لتيسير الكتاب ووضعه فى متناول عدد أكبر من القراء. ومع أن حجم الكتاب انكمش وتقلص إلى حد كبير جداً، فقد بذلت جهدى لكى أحتفظ فى هذا المجلد بالمبادىء الأساسية التى قام عليها الكتاب الأصلى، وأبقيت فيه على قدر كبير من الشواهد والأدلة التى توضح تلك المبادىء بجلاء، كما حافظت فى الأغلب على لغة الكتاب الأصلية رغم أننى أوجزت فى الوصف فى بعض المواضع. وقد اضطررت إزاء الرغبة فى الإبقاء على أكبر قدر ممكن من النص ذاته إلى حذف كل التعليقات والهوامش بل كل المراجع والمصادر التى اعتمدت عليها أيضا. وعلى ذلك فإنه يتعين على القارىء الذى يريد التحقق من مصدر أى حكم معين بالذات الرجوع إلى الكتاب الأصلى الكبير الملىء بالأسانيد والذى زودته بقائمة كاملة للمراجع.

ولم أضف لهذا الكتاب الوجيز أية معلومات جديدة، كما أنني لم أغير أو أبدل في الآراء التي أبديتها في الطبعة الأخيرة، وذلك لأن كل المعلومات التي وصل إليها علمي في هذه الفترة كانت إما شواهد وأدلة جديدة تعزز النتائج السابقة وتؤكدها، وإما أمثلة جديدة توضح المبادئ القديمة. مثال ذلك أن المعلومات المتعلقة بعادة ممارسة قتل الملوك في نهاية فترة زمنية معينة من بدء حكمهم أو حين تتدهور قواهم الصحية والجسمية زادت زيادة هائلة تدل على مدى شيوع هذه العادة وانتشارها. ومن الأمثلة الصارخة لذلك النمط من الحكم الملكي المحدد بفترة زمنية مرسومة النظام الذي كان سائداً في مملكة الخزر القوية التي قامت في جنوب روسيا في القرون الوسطى، حيث كان الملوك يتعرضون للموت إما عند نهاية فترة زمنية محددة وإما حين تنزل بالبلاد إحدى الكوارث العامة كالجدب أو القحط أو الهزيمة في الحرب. مما كان يُعتبر علامة على اضمحلال قواهم الطبيعية وتدهورها. ولقد سبق لي أن جمعت في مكان آخر(١) القرائن والشواهد الخاصة بنظام قتل ملوك الخزر، وهي مستمدة في عمومها من كتابات الرحالة العرب القدامى. كذلك تزودنا إفريقيا بكثير من الأمثلة الجديدة عن نظام مماثل لقتل الملوك وربما كان أبرز هذه الأمثلة العادة التي كانت متبعة في الماضي عند البونيورو Bunyoro والتي تقوم على اختيار «ملك زائف» كل عام من عشيرة معينة بالذات ويفترضون أنه يتقمص شخصية الملك الراحل ويباح له بذلك الاتصال جنسيا بأرامله في المعبد الذي دفن فيه الملك ثم

---

(١) J.G. Frazer "The Killing of the Khazer Kings" Folklore, XXVIII (1917) pp. 382-407. المؤلف.

يقتلونه بعد أن يحكمهم لمدة أسبوع[١]. وتشبه هذه العادة عيد السكايا Sacaea عند البابليين القدماء شبهاً قوياً. فقد كان البابليون يختارون لذلك العيد ملكاً زائفاً يضعون عليه ملابس الملك الحقيقي ويبيحون له الاستمتاع بمحظياته وتولى مقاليد الحكم فيهم لخمسة أيام يجرودنه بعدها من ملابسه وينزلون به أشد أنواع العذاب حتى يلقى حتفه. وقد تم العثور أخيراً على بعض النقوش الأشورية[٢] التى تلقى مزيداً من الضوء على هذا المعبد والتى يبدو أنها تعزز تفسيرنا له على أنه احتفال بالسنة الجديدة وأنه هو أصل عيد البوريم Purim عند اليهود[٣]. ومن الأمثلة المشابهة لنظام الملوك الكهنة السائد فى أريكيا أيضا والتى يرسلون إلى حتوفهم فى نهاية فترات زمنية تتراوح بين عامين وسبعة أعوام كانوا يتعرضون خلالها لكثير جدا من الهجمات إلى أن يتمكن أحد الرجال الأشداء من قتلهم وتولى منصب الكهنوت أو الملك بعدهم[٤].

إزاء كل هذه الأمثلة وغيرها من العادات المماثلة لم يعد من الميسور أن تعتبر قاعدة الخلافة أو تولى منصب الكهنوت الخاصة بالإلهة ديانا فى أريكيا حالة استثنائية. فهى تمثل بلا ريب نظاماً شائعاً إلى حد كبير، وإن كانت معظم الحالات والأمثلة المشابهة تأتى من إفريقيا. ولست أزعم أن هذه الوقائع والحقائق تدل على أن إيطاليا تعرضت لبعض التأثيرات الوافدة من افريقيا أو أن بعض الجماعات الإفريقية

---

(١) Rev. J. Roxoe,The Soul of Central Africa(London, 1922), p. 200; J.G. Frazer. " The Mackie Ethnological Expedition to Central Africa Man". XX, (1920), p. 181. المؤلف.

(٢) H. Zimmern, Zum Babylonischen Neujahrsfest, (Leipzig, 1918); A.H. Sayce in Journal of the Royal Asiatic Society, July 1921. pp. 440-442. المؤلف.

(٣) The Golden Bough, Part VI, The Scapegoat, p. 354 sqq., p. 412 sqq. المؤلف.

(٤) P.Amaury Talbot, in Journal of the African Society. July 1916,p. 309 sq.; id., in Folklore XXVI (1916),p. 279 sq.; H.R. palmer in journal of the African Society, july 1912, pp.403, 407. المؤلف.

استوطنت فى جنوب أوروبا فى زمن مبكر، فالعلاقة بين القارتين فى عصور ما قبل التاريخ غامضة ولاتزال فى حاجة إلى مزيد من البحث والدراسة.

ولا بد لى أن أترك للمستقبل أمر الحكم على مدى صحة أو خطأ التفسير الذى أقدمه هنا لهذا النظام. ولكننى على استعداد تام ودائم للتخلى عن هذا التفسير إذا أمكن تقديم تفسير آخر أفضل منه. بيد أننى أرجو فى الوقت الحالى وأنا أضع الكتاب فى صورته الجديدة تحت حكم القراء ألا يخطئوا فى تقدير مجال الكتاب الذى لا يزال متخماً ومثقلاً بالمعلومات رغم كل ما حاولت الآن لتحديد هذا المجال. وإذ كنت قد عالجت فى الكتاب الحالى موضوع عبادة الأشجار بشىء من الإطناب فإن هذا لا يرجع إلى الرغبة فى المبالغة فى أهميتها بالنسبة لتاريخ الأديان أو حتى الرغبة فى أن استنبط منها نظرية كاملة فى الميثولوجيا. وإنما يرجع ذلك ببساطة إلى استحالة إغفال هذا الموضوع فى محاولتى شرح أو تفسير أهمية الكاهن الذى يحمل لقب «ملك الغابة»، والذى يعتبر من مبررات توليه تلك الوظيفة انتزاعه لأحد الأغصان من شجرة معينة فى الروضة المقدسة، وهذا الغصن هو الغصن الذهبى، ولكننى لا أزال مع ذلك بعيداً جدا عن أن أعلق على تقديس الأشجار أهمية كبرى بالنسبة لتطور الدين. والواقع أننى أعتبره بوجه عام عاملا ثانويا بالنسبة لغيره من العوامل وبخاصة عامل الخوف من الموتى. الذى أعتقد أنه أكبر قوة تقف وراء نشأة الدين البدائى. وأرجو بعد هذا التنصل الصريح ألا أتهم بأننى أعتنق نظرية معينة فى الميثولوجيا، فهذا أمر لا أعتبره غير صحيح فحسب بل أعتبره أيضا مجافيا للعقل والواقع. ومع ذلك فإننى أعرف تماما «أخطبوط»[1] الخطأ، ولا أتوقع بذلك أن اجتزاز

(١) الكلمة المستخدمة فى الأصل هى هلدار Hydra وهو حيوان خرافى له تسعة رءوس، ويشير فريزر هنا إلى الأسطورة اليونانية التى تدور حول صراع هرقل مع هذا الحيوان حتى تمكن من ذبحه..(أ.أ).

إحدى رءوس الوحش سوف يمنع من أن ينبت بدلا منها رأس أخرى أو حتى نفس الرأس التى سبق قطعها. وكل ما أستطيع عمله هنا هو أن أعتمد على رجاحة عقل القارىء وفطنته فى تقويم هذا التصور الخاطىء الشنيع لآرائى، وذلك بالرجوع إلى هذا الموقف الذى أعلنه هنا بوضوح وصراحة(١).

ج.ج. فريزر **ابريك كورت - تمپل**

لندن، يونيو ١٩٢٢

---

(١) على الرغم من قدرة فريزر الفائقة على جمع المعلومات، وتبويبها وتصنيفها وعرضها بطريقة منطقية فإن كتاباته تخلو خلوا عجيبا من التفكير النظرى المجرد. وفيما عدا نظريته العامة عن نشأة السحر والدين فإنه كان يحاول بقدر الإمكان أن يبتعد عن صياغة النظريات أو حتى الارتباط بنظرية معينة أو الانتماء إلى مدرسة فكرية واضحة المعالم ، ومن هنا كان هذا الدفاع أصلا ضد الآراء التى ظهرت فى بعض المقالات والكتب والتى حاول أصحابها أن يحددوا مكان فريزر من بعض المدارس والنظريات التى كانت تعنى فى ذلك الحين بتفسير الأساطير-(أ.أ).

الفصل الأول

ملك الغابة(*)

* ملك الغابة: ترجمة: د. أحمد أبو زيد

١- ديانا وفيربيوس :

هل هناك من لا يعرف لوحة الغصن الذهبى التى رسمها تيرنر Turner؟ إن المنظر الذى يغمره وهج المخيلة الذهبى الذى غمس فيه تيرنر ذهنه الإلهى ثم أضاء به حتى أشد المناظر الطبيعية بساطة هو أشبه شىء برؤيا حالمة لبحيرة نيمى Nemi الصغيرة الراقدة بين الأحراش والتى كان القدماء يسمونها «مرآة ديانا». ومن الصعب على من شاهد المياه الساكنة وهى ترقد فى هدوء فى حضن أحد تجاويف تلال آلبا الخضراء أن ينسى هذا المشهد. ولا يكاد منظر القريتين الإيطاليتين النائمتين على شواطىء البحيرة، ومنظر القصر الإيطالى ذى الحدائق المتدرجة التى تنحدر بشدة نحو البحيرة يعكران من سكون ذلك المشهد الذى يوحى بالعزلة والانزواء وصفائه. وربما كانت ديانا ذاتها لاتزال تهفو إلى هذا الشاطىء المنفرد وتتوقف إلى تلك الأحراش الموحشة.

لقد كان هذا المكان الذى تكسوه الغابات والأشجار مسرحاً لمأساة غريبة كانت تتكرر فى الماضى تلو المرة. فعلى الشاطىء الشمالى للبحيرة وتحت صخوره العالية الوعرة مباشرة تجثم قرية نيمى الحديثة تقوم روضة ديانا نيمورينسيس Diana Nemorensis (أو ديانا ربة الغابة) وهيكلها المقدسان . ولقد كانت البحيرة والروضة تعرفان فى وقت من الأوقات باسم بحيرة أريكيا وروضتها. ولكن مدينة أريكيا (التى تعرف الآن باسم لاريكيا La Roccoa كانت تقوم على بعد حوالى ثلاثة أميال عند سفح جبل آلبا، وكان يفصلها منحدر عميق عن البحيرة التى ترقد على جانب الجبل فى تجويف صغير يشبه فوهة البركان. وفى هذه الروضة المقدسة كانت شجرة معينة يحوم عليها طيلة النهار وحتى جزء كبير من الليل شبح إنسان متجهم الوجه. يحمل

سيفه المشرع فى يده وهو يتلفت طيلة الوقت حوله فى حرص وحذر كمن يتوقع أن يثب عليه فى أى لحظة أحد أعدائه. كان هذا الشخص كاهناً وقاتلا معاً، كما كان مقدراً له أن يموت – إن عاجلا أو آجلا– بأيدى ذلك الشخص الذى يبحث عنه والذى سوف يتولى منصب الكهنوت بدلا منه. لقد كانت هذه هى شريعة الهيكل المقدس: ألا يصل شخص إلى منصب الكهنوت إلا إذا قتل الكاهن، فإذا تم له ذلك احتفظ لنفسه بذلك المنصب حتى يموت بيد شخص آخر أشد منه بأساً وأكثر دهاء.

كان المنصب الذى يتولاه والذى يتعرض من أجله لتلك المخاطر يحمل صفة «الملك». ولكن من المؤكد أنه لم يكن هناك من بين أصحاب الرءوس المتوجة من كان يغزو نومه المضطرب مثل تلك الأحلام المزعجة التى تهاجم ذلك الملك الكاهن. لقد كان يتعين عليه على مر السنين وتعاقب الفصول واختلاف الأجواء أن يقوم بنفسه بتلك الحراسة الفردية. وحين كان يتمكن من الإغفاء لبعض لحظات خاطفة سريعة فإنما كان ذلك على حساب تعريض حياته للخطر، لقد كانت أقل بادرة تبدر منه– ويستدل منها على عدم الانتباه والحذر أو على أن الوهن بدأ يجد طريقه إلى جسمه وأعضائه أو أن قدرته على القتال والمبارزة أخذت فى التدهور– كفيلة بأن تعرضه للهلاك. لقد كان ظهور الشيب فى رأسه بمثابة حكم الإعدام عليه، ولذا كان مجرد ظهوره بطلعته الكئيبة على الحجاج الذين يزورون الضريح في تدين وخشوع كفيلا بأن يطمس بهاء ذلك المنظر الجميل مثلما يحجب الغمام فجأة ضوء الشمس الساطع فى يوم مشرق. والواقع أن هيئته المكتئبة الصارمة لم تكن تتلاءم بحال مع سماء إيطاليا بزرقتها الحالمة أو مع الظلال التى ترسلها أشجار الغابة فى الصيف أو مع مياه الأمواج التى تتلألأ تحت وهج الشمس. وقد يكون الأفضل أن نتخيل ذلك المنظر كما قد يبدو لمسافر وحيد فى ليلة من ليالى الخريف الموحشة حين تتهاوى أوراق الأشجار الجافة

الميتة وتعزف الرياح لحن الموت الحزين، الذى تعلن فيه اقتراب العام من نهايته. إنها صورة قائمة بغير شك تتناغم مع الموسيقى الحزينة، ففى خلفية الصورة تقوم غابة سوداء مهلهلة تحت سماء عاصفة مليئة بالغيوم، والرياح تزفر بين الأغصان وحفيف الأوراق الذاوية يئن تحت وطء الأقدام بينما ترقد المياه الباردة فى أحضان الشاطىء. وفى مقدمة الصورة يظهر شبح إنسان مكتئب حزين يتنقل بين الظلمة والنور فيلمع بريق سيفه فوق كتفه حين يرسل القمر من وراء الغمام الشاحبة فتنساب إليه من بين الأغصان الكثيفة المتشابكة.

وليس لهذه القاعدة الغريبة التى يقوم عليها هذا النظام الكهنوتى مثيل فى العصور الكلاسيكية ولذا فلن يمكن تفسيره بالرجوع إليها، وعلى ذلك فيجب البحث فى ميادين أبعد وأوسع للوصول إلى تفسير لها. وقد يكون من الصعب أن ننكر أن هذه العادة ظهرت فى إحدى المراحل البربرية واستمرت فى الوجود حتى عصر إنشاء الإمبراطوريات وأنها بذلك تختلف اختلافا صارخا عن بقية ملامح الحياة فى المجتمع الإيطالى المهذب فى ذلك العصر. فهى أشبه بإحدى الصخور الناتئة التى ترتفع فى شذوذ فوق سطح الأرض المعشبة المستوية المهدة. والواقع أن ما تتميز به هذه العادة من همجية وفجاجة هو الذى يجعلنا نأمل فى الوصول إلى تفسير لها. ذلك أن الأبحاث التى تمت أخيراً حول التاريخ المبكر للإنسان كشفت عن مدى التشابه الأساسى فى عمليات العقل البشرى وهو يضع فلسفته الأولى الساذجة عن الحياة، وإن كان هناك بالطبع كثير من الفوارق والاختلافات الثانوية السطحية. وعلى ذلك فلو استطعنا أن ندلل على أن هذه القاعدة الهمجية الخاصة بنظام الكهنوت فى نيمى توجد فى مكان آخر من العالم، وأن نكشف الدوافع التى أدت إلى أن تتخذ شكل النظام الاجتماعى، وأن نبرهن على أن هذه الدوافع كان لها تأثير كبير أو حتى

تأثير عام فى المجتمع الإنسانى وأنها أدت تحت الظروف المختلفة إلى ظهور عدد من النظم التى تختلف فى التفاصيل رغم تشابهها فى الأصل التكوينى، ثم إذا استطعنا أخيراً أن نبين أن هذه الدوافع وبعض النظم الناشئة عنها كانت موجودة بالفعل فى العصور الكلاسيكية القديمة، فإنه يحق لنا حينئذ، أن نستنتج أن هذه الدوافع ذاتها هى التى أدت فى وقت أكثر تبكيرا إلى ظهور نظام الكهنوت المعروف فى نيمى. ومثل هذه الاستنتاجات التى تفتقر إلى الأدلة المباشرة على الطريقة التى ظهر بها النظام بالفعل قد لا ترقى أبدا إلى مرتبة البرهان، ولكنها تتمتع مع ذلك بدرجة من الاحتمال تتناسب مع قدرتها على تحقيق الشروط التى أشرنا إليها. وهدف هذا الكتاب هو أن يقدم – عن طريق تحقيق هذه الشروط– تفسيرا على درجة عالية من الاحتمال لنظام الكهنوت فى نيمى .

وأبدأ هنا بعرض الحقائق والخرافات القليلة التى وصلت إلينا عن هذا الموضوع.. تذهب إحدى الروايات إلى أن عبادة ديانا فى نيمى وضع أسسها أورستيسOrestes الذى تمكن بعد أن قتل ثوءاس Thoas ملك كرسونيس الطورية Tauric Chersonese (القرم) من أن يهرب مع أخته إلى إيطاليا حاملا معه تمثال ديانا الطورية بعد أن أخفاه داخل حزمة من العصى. وحين مات أورستس نقل رفاته من أريكيا إلى روما ودفن أمام معبد ساتورنوس Saturn الواقع على السفح الكابيتولى بجوار معبد الكونكورد. والشعائر الدموية التى تنسبها القصة إلى ديانا الطورية مألوفة لدى المتخصصين فى الدراسات الكلاسيكية، إذ يقال إن أى شخص غريب تطأ قدماه ذلك الشاطىء كان يُذبح ويُقدم قربانا لها. ولكن حين نُقلت هذه الشعائر إلى إيطاليا اتخذت صورة أكثر اعتدالا، فقد كانت توجد فى هيكل نيمى شجرة معينة كان يحرم على الناس كسر فروعها. ولا يستثنى من ذلك إلا العبد الذى يتمكن من الهرب. فإذا

استطاع أن يكسر أحد أغصان هذه الشجرة حق له أن ينازل الكاهن فى مبارزة فردية، فإذا تمكن من قتله تولى شئون الحكم بدلا منه وحمل بالتالى لقب «ملك الغابة Rex Nemorensis». ولقد كان الأقدمون يعتقدون أن هذا الغصن الحاسم هو الغصن الذهبي الذى انتزعه آينياس Aneas بإيعاز من سيبولا Sibyl قبل أن يشرع فى رحلته الخطرة إلى عالم الموتى. ويقال إن هروب العبد إنما يرمز إلى هروب أورستيس نفسه، وأن مبارزته مع الكاهن ترمز إلى القرابين والأضحيات البشرية التى كانت تقدم إلى ديانا الطورية. وقد ظلت هذه القاعدة لتولى الملك بحد السيف معمولا بها حتي العهود الامبراطورية، إذ نجد مثلا أنه من ضمن نزوات كاليجولا Caligula أنه اعتقد أن كاهن نيمى شغل وظيفته مدة أطول مما يجب فاستأجر أحد السفاحين الأشرار ليقتله. وقد لاحظ أحد الرحالة اليونانيين الذى زار إيطاليا أيام عائلة أنطونينوس Antonines أن منصب الكاهن كان حتى ذلك الوقت يقدم جائزة يظفر بها الشخص الذى يفوز فى المبارزة الفردية.

وثمة بعض ملامح أساسية أخرى يمكن ذكرها عن عبادة ديانا فى نيمى. إذ يبدو من القرابين التى كان الناس ينذرونها والتى تم الكشف عنها فى تلك المنطقة أن الناس كانوا يعتبرن ديانا إلهة للقنص فى المحل الأول، وإن كانت تمنح إلى جانب ذلك الرجال والنساء النسل والذرية، وتساعد الحوامل على الولادة السهلة الميسرة. كذلك يبدو أن النار كانت تلعب دورا. جوهريا فى الشعائر المتعلقة بها. ففى أثناء الاحتفال بعيدها السنوى كان يقام فى الثالث عشر من أغسطس، أى فى أشد أيام السنة حرارة. كانت غيضتها المقدسة تضاء بعدد كبير جدا من المشاعل التى كان ضوءها الأحمر القانى ينعكس فى مياه البحيرة، كما كان الناس يحتفلون بذلك اليوم فى طول إيطاليا وعرضها بإقامة الشعائر المقدسة أمام المواقد فى البيوت. وقد عثر

فى حرم المعبد على بعض التماثيل البرنزية الصغيرة التى تمثل الإلهة ذاتها وهى تحمل مشعلا فى يدها اليمنى وترفعه إلى أعلى، كما كانت النساء اللاتى تستجاب صلواتهن ودعاؤهن يتوافدن على الهيكل وقد توجت رءوسهن بالأكاليل وهن يحملن المشاعل المضاءة وفاء بنذورهن. ولقد كرس شخص مجهول مشعلا يوقد باستمرار فى ضريح صغير فى نيمي لتأمين حياة الامبراطور كلوديوس[1] Claudius وأسرته.

أما القناديل المصنوعة من الطين المحروق والتى اكتشفت فى الغيضة فمن المحتمل أنها كانت تخدم نفس الغرض بالنسبة للأشخاص الأقل مكانة ومنزلة. ولو صح ذلك فإن المماثلة بين هذه العادة وعادة الكاثوليك فى نذر الشموع المقدسة فى الكنائس تصبح واضحة. والأكثر من ذلك أن لقب «فيستا» Vesta[2] الذى تحمله ديانا فى نيمى يشير بجلاء إلى وجود نار مقدسة أبدية فى هيكلها. ففى الركن الشمالى الشرقى من المعبد كان يوجد (بدروم) دائرى فسيح تؤدى إليه ثلاث درجات ولا يزال يوجد به بعض بقايا ممشى مرصوف بالفسيفساء، ومن المحتمل أنه كان يقوم عليه

---

(١) الواقع أن هناك اثنين من أباطرة الرومان يحملان اسم كلوديوس، وهما كلوديوس الأول الذى حكم ما بين عامى ٤١، ٥٤ بعد الميلاد، وهو أخو الامبراطور تيبريوس Tiberius وكان فى شبابه ماجنا ومهرجا إلى جد كبير ولكنه لم يلبث أن تحول إلى طاغية بعد أن تولى الحكم بعد الامبراطور كاليجولا المشهور بنزاوته وقسوته، وقد قتل زوجته الثالثة مسالينا Messalina لخيانتها وعلاقاتها الفاضحة، وتزوج بعدها أجريبينا Agrippina الصغرى التى تآمرت عليه بعد أن أعلن أن ابنها سوف يتولى العرش بعده، ثم ندم على ذلك وأراد الرجوع فى قراره. وقد تولى ذلك الابن العرش وعرف باسم نيرون المشهور وأما كلوديوس الثانى فقد حكم روما ما بين عامى ٢٦٨–٢٧٠ وكان ينتسب إلى عائلة مغمورة فى الأصل ولكنه اكتسب شهرة عريضة فى الحرب، ويبدو أنه كان أحد المتآمرين على الامبراطور جالينو سGallenus، ولم يحكم سوى فترة قصيرة ولكنها امتازت بالانتصارات الحربية. ويبدو أن إشارة فريزر هنا فقصد بها كلوديوس الأول(أ ، أ).

(٢) فيستا هى آإهة أو ربة الموقد فى روما، وهى تقابل فى ذلك الآلهة هستيا Hestia عند الإغريق، وكان الناس يعبدونها فى روما أمام الموقد الخاص الموجود فى كل بيت وكذلك أمام المذبح «المركزى» للمدينة أو الدولة. وكان ضريحها فى الفورم Ferum الرومانى يضم النار المقدسة التى يقال إنها جلبت من طروادة وكان يشرف عليها ست فتيات يعرفن باسم «عذارى فيستا» وكانت مهمتهن تنحصر فى المحافظة على النار بحيث لا تخمد أبدا. وكان يفترض فى هؤلاء العذارى العفة المطلقة بحيث إن العذراء منهن التى تحيد عن السلوك المفروض فيها كانت تدفن حية. وقد ظلت هذه العبادة قائمة حتى أبطلها الأباطرة المسيحيون(أ.أ.).

معبد دائرى لديانا باعتبارها هى ذاتها فيستا كما هو الحال بالنسبة لمعبد فيستا الدائرى فى الفورم Forum الرومانى. والظاهر أن عذارى فيستا كن يشرفن على تلك النار المقدسة. فقد تم العثور على رأس لفيستا من الطين المحروق فى ذلك الموقع، كما أن عبادة النار الأبدية التى تشرف عليها العذارى المقدسات كانت شائعة على ما يبدو فى إقليم لاتيوم Latium[1] منذ أقدم الأزمنة حتى أكثرها حداثة. ومن ناحية أخرى، فإن كلاب الصيد كانت تتوج أثناء العيد السنوى للإلهة، وكان الناس يحرصون على عدم التعرض للحيوانات البرية، كما كان الشبان يخضعون لبعض الطقوس التطهيرية بينما تقدم الخمور للجميع. أما الوليمة ذاتها فكانت تتألف من لحم الجدى ومن الكعك الذى يقدم ساخنا جدا على صحاف من أوراق الشجر بينما يتدلى التفاح بكثرة من أغصانه.

ولكن ديانا لم تكن تنفرد بالحكم فى غيضتها المقدسة فى نيمى، وإنما كان يشاركها هيكلها فى الغابة اثنان من الأرباب الأقل شأنا وأحد الاثنين هى الربة إيجيريا Egeria، حورية الماء الصافى التى كانت تندفع إلى أعلى من بين الصخور البازلتية لتهبط فى رشاقة على شكل شلال فى البحيرة فى المكان المعروف باسم

---

(١) لتيوم هو أحد أقسام وأقاليم ايطاليا القديمة وإليه ينتسب اللاتين الذين يظن أنهم كانوا أول السكان فى العصور التاريخية والذين كانوا فى الأغلب مزيجا من العناصر الأصلية والجماعات الغازية، وكانوا يعيشون فى قرى ومدن مستقلة على التلال وسفوح الجبال. ومن المحتمل أنهم كانوا يؤلفون فيما بينهم اتحادات قوية لأغراض دينية وسياسية ومع أن روما استطاعت تدمير مدينتهم الرئيسية وكانت تحتل مركز الزعامة والقيادة حوالى عام ٦٠٠ ق.م فإن الأمر لم يستتب لها تماما إلا بعد ذلك بوقت طويل.(أ.أ).

ليمولى Le Mole حيث توجد الطواحين التابعة لقرية نيمى الحديثة. ولقد أشار أوفيد Ovid[1] إلى خرير ماء النهر فوق الحصباء والحصى وأنه كثيرا ما كان يشرب منه. وكانت النساء الحوامل يقدمن القرابين إلى ايجيريا التى كن يعتقدن فى قدرتها على تسهيل الولادة، مثل ديانا تماما. وتذهب الأخبار إلى أن هذه الحورية كانت زوجة – أو عشيقة– للملك نوما Numa الحكيم، وأنه بنى بها سرا فى الغيضة المقدسة، وأن القوانين التى منحها نوما للرومان كانت مستوحاة من معاشرتها الربانية ويقارن بلوتارك Plutarch هذه الأسطورة بغيرها من قصص الحب الذى كانت كثيرا ما كان ينشأ بين الربات والآدميين مثل حب كوبيلى Cybele والقمر لاثنين من أجمل الشبان هما آتيس Attis وأندوميون Andymion. ويذهب البعض إلى أنمكان التقاء العشاق لم يكن فى غابات نيمى وإنما فى إحدى الغيضات خارج بورتا كابينا Porta Capena فى روما، وهو مكان كثير المياه. إذ كان يتدفق من الكهف المعتم نبع مقدس لإيجيريا. وكانت عذارى فيستا الرومانيات يخرجن كل يوم لجلب الماء من ذلك النبع فيحملنه

---

(١) الشاعر المشهور بيبليوس أفيدوس ناسو Papluas Ovidus Naso (٤٣ ق.م – حوالى ٧١ ميلادية) ولد فى سولو Sulmo بجنوب ايطاليا من عائلة ذات مركز محترم. وعلى الرغم من كل ما بذلته عائلته لحمله على التخصص فى القانون وشئون الحكم فقد كان يميل إلى الشعر وإن كان قد تولى مع ذلك بعض المناصب القضائية الدنيا. وشعره جذب إليه انتباه المجتمع الرومانى ولكن عبثه وطيشه أوغر صدر الامبراطور أوغسطس عليه خاصة وأنه كان يريد تطهير المجتمع من مفاسده عن طريق العودة إلى الأخلاق والتقاليد القديمة، ولذا نفاه إلى البحر الأسود حيث أمضى بقية حياته. ولا يعتبر أوفيد على العموم من الشعراء العظام والفحول رغم جودة معظم شعره وبخاصة فى الحب والغزل . وربما كان أكبر أعماله تحررا وعبثا هو عمله عن «فن الحب Ars amotoria» الذى يعرض فيه كثيرا من أساليب وطرق الاغواء والفتنة كما لو كانت علما يستحق الدراسة بكل دقة وعناية. وعلى أية حال فإن أعظم أعمال أوفيد التى يحفظها لنا التاريخ للآن هو كتابه عن «المسخ أو الانسلاخ Metamorphosis» وهو قصيدة طويلة تزخر بقصص عديدة عن التغير والانسلاخ معظمها مستمد من الميثولوجيا الاغريقية ومن الكتب التى تهمنا هنا بوجه خاص كتابه الذى ترجمه فريزر بعنوان The Fasti of Ovid ونشره فى خمسة اجزء مع تعليقات مطولة عام ١٩٢٩وهو دراسة شعرية للتقويم الرومانى يسجل الأحداث التاريخية والظواهر الفلكية والممارسات الدينية شهرا بشهر. وكان عمر فريزر حين نشر الكتاب خمسا وسبعين سنة انظر فى ذلك: Downie R.A.
: James George Frazer: The Portrait of a Scholar, Watts, London, 1940, pp.48-50

على رءوسهن فى جرار من الفخار لغسل معبد فيستا. ولكن الصخرة الطبيعية كانت مغطاة تماما بالرخام فى زمن جوفينال Juvenal[1]، كما أن البقعة المقدسة انتهكت حرمتها بفعل جماعات اليهود والفقراء الذين كانوا يتزاحمون للإقامة مثل الغجر فى الغيضة. ويمكن أن نزعم أن النبع الذى كان يصب فى بحيرة نيمى كان هو إيجيريا الأصلية الحقيقية، وأنه حين نزل المستوطنون الأوائل من فوق تلال آنيا إلى شواطىء نهر التيبر أتوا معهم بالحورية وأقاموا لها موطنا جديدا فى إحدى الغيضات خارج الأسوار. وتدل بقايا الحمامات التى عثر عليها داخل الحرم المقدس وكذلك التماثيل العديدة المصنوعة من الطين المحروق والتى تصور مختلف أجزاء الجسم البشرى على أن مياه ايجيريا كانت تستخدم فى شفاء المرضى الذين كانوا يعبرون عن آمالهم أو عن شعورهم بالجميل والعرفان بإهداء هذه التماثيل التى تصور أعضاءهم المريضة إلى الإلهة، وذلك تبعا لبعض العادات التى لا تزال موجودة حتى الآن فى كثير من أنحاء أوروبا. والظاهر أن النبع لا يزال محتفظا ببعض فوائده الطبية.

أما الرب الثانى الأقل شأنا فى نيمى فهو فيربيوس Virbius الذى تذهب القصة إلى أنه كان هو البطل الإغريقى هيبوليتوس Hippolytus العفيف الجميل الذى تعلم فن الصيد والقنص من القنطور خيرون Chiron[2] وكان فيربيوس يمضى كل أيامه فى

---

(١) أحد الشعراء الرومان الهجائيين ، عاش بين عامى ٥٠ – ١٣٠ تقريبا ويبدو أن أباه كان عبدا ثم أعتق، وقد أغرم جوفينال فى صباه بالخطابة التى مارسها سنوات طويلة حتى نفى من روما. ولم يبق لنا من شعره إلا بعض قصائد الهجاء التى تدور فى معظمها حول مهاجمة الجريمة والرذيلة والمجون التى كانت تشيع فى روما فى ذلك الوقت، وإن كان بعضها الاخر يدور حول موضوعات شتى ذات طابع أخلاقى على العموم، وهى كلها تعطى على أى حال صورة حية لما كان عليه المجتمع الرومانى فى عهده .

(٢) القنطور Centaur كائن خرافى يظهر فى كثير من الأساطير اليونانية القديمة ويظهر نصفه الأعلى على شكل إنسان بينما بقية جسمه على شكل حصان، وكان اليونانيون القدماء مغرمين بالقنطور بحيث كان يظهر كثيرا فى ر فقة الإنسان ويدعى إلى مجالسه، إلى أن حدث فى إحدى حفلات الزواج بين بعض الأرباب أن فقد أحدهما وعيه من كثرة الشراب فحاول أن يعتدى على العروس وتبعه فى ذلك زملاؤه وحدثت معركة قتل فيها

الأحراش، ولم يكن يصحبه فى هذه الرحلات سوى الصيادة العذراء أرتميس Artemis(وهى المقابل لديانا). وقد بلغ من اعتزاز هيبوليتوس بصحبتها الإلهية أن ترفع عن حب النساء مما جلب عليه المصائب، فقد آلم ذلك التعفف أفروديتى Aphroditeه فى قلب فيدرا Phaedra زوجة أبيه، فلما ازدرى مراودتها الخبيثة عن نفسه اتهمته ظلما أمام أبيه ثيسيوس Theseus الذى صدق التهمة وابتهل إلى مولاه بوسيدون Poseidon أن يثأر له من أجل هذا الجرم المزعوم. وترتب على ذلك أنه بينما كان هيبوليتوس يقود عربته الحربية بجوار شاطىء الخليج السارونى أرسل عليه إله البحر (بوسيدون) ثورا هائجا طلع من بين الأمواج فهاجت الخيل وركضت بعنف من الخوف الفزع وألقت هيبوليتوس من فوق العربة وداسته بأقدامها حتى مات. ودفع الحب ديانا إلى أن تقنع المطبب اسكلابيوس Aesculapius بأن يستخدم علمه وفنه ليرد الحياة إلى الصياد الشاب الجميل. وحنق جوبيتر Jupiter لعودة أحد البشر الفانين من أبواب الموت فأرسل المطبب نفسه إلى عالم الموتى جزاء له على تجاوزه حدوده وتدخله فى غير شئونه. ولكن ديانا أفلحت فى أن تخفى محبوبها (هيبوليتوس) عن الإله الناقم داخل غمامة كثيفة بعد أن غيرت ملامحه بأن أضافت إلى عمره بضع سنين ثم حملته بعيدا إلى وديان نيمى حيث تركته فى حمى الحورية إيجيريا

عدد كبير من هذه الكائنات الخرافية. وسجلت هذه الواقعة فى كثير من أعمال الفن القديم سواء فى ذلك = الشعر والحب، ولكن القنطور خيرون لم يكن على مثل هذا الخلق السيى، لقد أشرف على تعليمه وتنشئته أبوللو وديانا واكتسب كثيرا من المهارة فى القنص والطب والموسيقى بل اكتسب القدرة على التنبؤ، وتتلمذ عليه كثير من الأبطال الاغريق الذين ترد أسماؤهم فى القصص والأساطير القديمة، ولعل من أهمهم هيبوليتوس نفسه وكذلك اسكلابيوس الذى سوف يرد ذكره بعد قليل والذى حذق على يديه فنون الطب لدرجة أنه تمكن فى إحدى الحالات، كما سترى، من أن يرد الحياة إلى هيبوليتوس نفسه بعد أن مات تحت أقدام الخيل. وقد لقى اسكلابيوس جزاء على ذلك إذ سلط عليه جوبيتر Jupiter بأمر من بلوتو Pluto البرق فصعقه. والمهم هو أن القنطور خيرون كان يعتبر من أفضل تلك الكائنات الخرافية وأحكمها لدرجة أنه حين مات رفعه جوبتير إلى السماء ووضعه بين النجوم.(أ.أ). راجع فى ذلك: Bulfinch, T.; The Age of Fable, Doubleday & Co.,

ورعايتها. وهناك عاش فى أعماق الغابة الإيطالية مجهولا وحيدا متخفيا تحت اسم فيربيوس وقدحكم فيربيوس هناك كملك كما وقف هيكلا للإلهة ديانا وأنجب ابنا لطيفا أسماه فيربيوس أيضا. ولم يرهب الابن مصير الأب وقدره، فقاد كوكبة من الجياد الشرسة لينضم إلى اللاتينيين فى حربهم ضد أينياس Aeneas وأهل طروادة. وقد عبد الناس فيربيوس كإله ليس فى نيمى وحدها بل فى كثير من الأماكن الأخرى أيضا. والمعروف أنه كان يوجد فى كامبانيا Campania كاهن مخصص لأداء الشعائر والصلوات الخاصة به. ولقد كان دخول الخيل إلى غيضة أريكيا وهيكلها محظوراً لأن هيبوليتوس مات تحت أقدام الخيل، كما كان لمس تمثاله محرما على الناس. وكان البعض يعتقدون أنه هو الشمس، ولكن سرفيوس يقول : «إن الحقيقة هى أنه كان أحد الأرباب الذين ارتبطوا بديانا مثلما ارتبط آتيس بأم الآلهة واريختونوس Erichthonius بمينرڤا Minerva وأدونيس Adonis بفينوس Venus . وسوف نرى فيما بعد طبيعة هذه العلاقة أو الرابطة. ولكن مما هو جدير بالملاحظة أن هذه الشخصية الأسطورية أظهرت قدرة عجيبة على التشبث بالحياة والإصرار عليها. إذ لا يكاد يوجد أدنى شك فى أن القديس هيبوليتوس Saint Hippolytus الذى يظهر فى التقويم الرومانى والذى سحبته الخيول حتى مات فى الثالث عشر من شهر اغسطس- وهو اليوم المخصص لعيد ديانا ليس إلا البطل اليونانى الذى يحمل نفس الاسم والذى استطاع بعد أن مات مرتين كإنسان وثنى خاطىء أن يبعث من جديد فى صورة أحد القديسين المسيحيين.

ولسنا فى حاجة إلى أى برهان دقيق أو محكم لكى نقتنع بأن القصص التى تروى عن عبادة ديانا فى نيمى ليست قصصا تاريخية. فواضح أنها تنتمى إلى تلك الطائفة الكبيرة من الأساطير التى تصاغ لكى تفسر أصل إحدى الشعائر الدينية

دون أن يكون لها أساس آخر غير التشابه - حقيقيا كان أو متخيلا - الذى قد تمكن رؤيته بينها وبين بعض الشعائر الأجنبية الأخرى، والواقع أن الأساطير الخاصة فى نيمى تعانى الكثير من الغموض والاضطراب نظرا لأن أساس العبادة يرد أحيانا إلى أورستيس وأحيانا أخرى إلى هيبوليتوس تبعا للجوانب أو الخصائص التى تؤخذ فى الاعتبار حين النظر إلى تلك الشعائر. والقيمة الحقيقية لهذه القصص هى أنها تعطينا فكرة عن طبيعة العبادة يمكن فى ضوئها إجراء المقارنات. كما أنها تحمل بعض الشواهد التى تدل بشكل أو بآخر على قدمها فى الزمن، وذلك حين تبين أن الأصل الحقيقى لهذه العبادة غير معروف لأنه ضاع واندثر فى ضباب الأزمنة الخرافية الموغلة فى القدم. ومن هذه الناحية الأخيرة فقد يمكن الاعتماد على القصص الخرافية التى تدور حول نيمى أكثر مما تعتمد على الروايات التاريخية التى يؤازرها كاتو الكبير Cato the Elder[1] من أن الغيضة المقدسة كان قد وقفها على عبادة ديانا ديكتاتور لاتينى يدعى ايجريوس باثبيوس Egerius Bacbius أو لايفيوس التكلومى Laecius of Tusculum باسم شعوب تكلوم وأريكيا ولانفويوم ولورنتيوم وكوررا وتيبور وبومينيا وآرديا. فهذه الرواية تشير فى الواقع إلى العصر الزاهر الذى مر به الهيكل، لأنها ترد تأسيسه على ما يبدو إلى ما قبل عام ٤٩٥ ق.م، وهى السنة التى دمر فيها الرومان بوميتا وأزالوها تماما من الوجود. ولكن من

---

(١) ماركوس كاتو من رجال الحرب الرومانيين وأحد زعمائهم السياسيين (٢٣٤ - ١٤٩ ق.م) من أبناء توسكلوم.. بدأ حياته الحربية وهو لايزال فى السابعة عشرة من عمره، ثم اشترك فى الحرب اليونانية الثانية حيث أبدى كثيرا من الشجاعة والقدرة. تولى عدة مناصب سياسية وإدارية وحاول أن يدخل كثيرا من التغيير فى حياة المجتمع الرومانى التى دخلها كثير من عناصر الانحلال والتفكك نتيجة للترف والغنى، وكان ينادى بالعودة إلى الحياة الرومانية التقليدية البسيطة، وأدى ذلك به إلى أن يقف موقف المعارضة من كل المحاولات للتجديد بصرف النظر عن أهميتها وفائدتها.. فى عام ١٥٧ ق.م أرسل سفيرا لروما فى قرطاجة وقد دهش لما كانت عليه قرطاجة فى ذلك الوقت من تقدم وقوة لدرجة أنه أمضى حياته فى الدعوة إلى ضرورة القضاء عليها وتدميرها حتى تستطيع روما أن تعيش فى أمن وسلام(أ.أ).

الصعب علينا أن نفترض أن تلك القاعدة الهمجية الخاصة بنظام الكهنوت فى أريكيا قد اشترك فى وضعها عمدا عدد من المجتمعات التى بلغت درجة عالية من الحضارة. وهو ما كانت عليه تلك المدن اللاتينية بغير شك. فلا بد إذن من أن تكون هذه العادة قد انحدرت من أزمان سحيقة جدا لا تعيها ذاكرة إنسان وحين كانت إيطاليا لا تزال على درجة من التأخر لم نعرفها عنها فى أى مرحلة من تاريخها المعروف. بل إن الثقة فى هذه الرواية تتزعزع إذا أخذنا فى الاعتبار رواية أخرى تنسب إنشاء الهيكل إلى شخص يدعى مانيوس الإجيرى Manius Egerius وهو الذى يدور حول المثل القائل «هناك مانيون كثيرون فى أريكيا». وقد ذهب البعض فى تفسير هذا المثل إلى الزعم بإن مانيوس الإجيرى كان جدا لسلسلة طويلة من الأحفاد الممتازين، بينما يرى البعض الآخر أنه يشير إلى وجود عدد كبير من الأشخاص القبيحى المنظر والمشوهين فى أريكيا وأنهم استمدوا اسم «مانيوس» من كلمة «مانيا» التى تعنى الروح الخبيث أو «البعبع» الذى يخوفون به الأطفال. وقد استخدم أحد الهجائيين الرومان اسم مانيوس فى التشهير بالشحاذين الذين يقفون على منحدرات أريكيا فى انتظار الحجاج. هذه الاختلافات فى الرأى، بالإضافة إلى التضارب بين «مانيوس» الاجيرى فى أريكيا و«ايجيريوس» ليفيوس فى توسكلوم وكذلك التشابه بين هذين الاسمين واسم «ايجيرا» الواردة فى الأسطورة أمور خليقة بإثارة الشكوك. ولكن الرواية التى يسجلها «كاتو» تبدو قريبة جدا مما هو قائم بالفعل كما أن صاحبها يتمتع بدرجة عالية من الاحترام بحيث لا نستطيع رفضها على زعم أنها مجرد خيال سقيم. والأجدر بنا أن نفترض أنها تشير إلى إحدى المحاولات القديمة لترميم الهيكل أو إعادة بنائه، وأن اتخاذ تلك الولايات قام فعلا بتنفيذها. ومهما يكن الأمر، فإن هذه الرواية دليل آخر على الاعتقاد بأن الغيضة كانت منذ زمن بعيد مكانا عاما

العبادة بالنسبة لأقدم المدن فى المنطقة إن لم يكن بالنسبة للاتحاد اللاتينى كله.

٢- أرتميس وهيبوليتوس :

سبق أن ذكرت أن القصص والخرافات الأريكية التى تدور حول أورستيس وهيبوليتوس ليس لها أى قيمة كتاريخ، ولكن لها مع ذلك فائدة لا تنكر فى محاولة الوصول إلى فهم أفضل وأدق للعبادة فى نيمى عن طريق مقارنتها بالشعائر والأساطير التى تدور حول الهياكل المقدسة الأخرى. ولابد لنا من أن نسأل أنفسنا عن سبب اهتمام مؤلفى هذه القصص بأورستيس وهيبوليتوس بالذات فى محاولتهم تفسير فيربيوس ملك الغابة. والجواب واضح فيما يتعلق بأورستيس. فقد استعانوا به وبتمثال ديانا الطورية التى لا ترضى بشىء أقل من إراقة الدم البشرى لتوضيح نظام الخلافة الخاص بمنصب الكهنوت فى أريكيا والذى يقوم على القتل والاغتيال. ولكن الأمر ليس على مثل هذه البساطة فيما يتعلق بهيبوليتوس. صحيح أن الطريقة التى لاقى بها حتفه هى سبب تحريم دخول الخيول إلى الغيضة، ولكن هذا فى حد ذاته ليس مبررا كافيا للربط الكامل الذى يصل إلى حد التوحيد بين الشخصيتين. وعلى ذلك فلابد من أن نتعمق فى دراسة هذه العبادة بالإضافة إلى دراسة خرافة أو أسطورة هيبوليتوس ذاتها.

ولقد كان لهيبوليتوس هيكل مقدس مشهور فى موطن أجداده فى ترويزن Troezen يقوم على ذلك الخليج الجميل الذى تكاد الأرض تحيط به من كل جانب، وحيث ينمو على الشريط الساحلى الخصب الممتد أسفل الجبال الوعرة حدائق البرتقال والليمون وأشجار السرو الباسقة التى ترتفع كالمسلات المعتمة فوق حديقة هسبريديز Hesperides كما تقوم جزيرة بوسيدون Poseidon- بقممها العالية التى تحجبها أشجار الصنوبر الخضراء القاتمة - ويحمى الخليج الهادىء بمياهه الزرقاء

الصـافيـة الجـزيرة من البـحـر المفتـوح. على هذا السـاحل الجـمـيل قـامت عـبـادة هيبوليتوس حيث كان يوجد داخل هيكله معبد به تمثال قديم له، ويقوم بالصلوات الخاصـة به كاهن يشـغل ذلك المنصب مدى الحياة. وكان يقام احتفال قربانى فى كل عام لتمجيده كما كان الناس يحتلفون بذكرى موته المبكر كل سنة بالبكاء والترانيم الحزينة التى ترتلها العذارى. وكان الشبان والفتيات يقدمون بعض خصلات من شعرهم المعبد قبل زواجهم. وعلى الرغم من وجود قبره فى ترويزن فقد كان الناس يرفـضـون الإدلاء بموقـعـه. ويرى البـعـض – وهو رأى له مـا يسنده– أن هيـبوليـتوس الوسيم محبوب أرتميس الذى مات فى عز شبابه والذى كانت العذارى يبكينه فى كل عام.– هو مجرد حالة من حالات العشق الذى كان ينشأ بين الآدميين الفانين والربات الخالدات. وتظهر هذه العلاقة بكثرة فى الدين القديم. ويعتبر أدونيس أشهر هؤلاء العشـاق جمـيـعا. ويقول أصـحـاب هذا الرأى إن تنـافس أرتميس وفـيدرا على حب هيبوليتوس يظهر فى صـور مـختلفة وتحت أسـمـاء أخرى كمـا هو الحـال مثلا فى تنافس أفروديتى وبروسربينى Proserpine على حب أودنيس، إذ ليست فيدرا سوى نسخة من أفروديتى. والواقع أن هذه النظرية لم تهضم هيبوليتوس وأرتميس حقهما، لأن أرتميس كانت فى الأصل واحدة من أعظم ربات الخصوبة. وتبعا للمبادىء التى يرتكز عليـها الدين فى أول مـراحل ظهـوره فإن الإلـهة أو الربة التى تمنح الطبيـعة الخصوبة لابد أن تكون هى ذاتها على درجة عالية جدا من الخصوبة والقدرة على الحمل والولادة. ولن يتيسر ذلك إلا إذا اتخذت لها بعلا من الذكور. ومن هنا كان هيبوليتوس يعتبر زوجا لأرتميس فى ترويزن، كما أن خصلات الشعر المجزور التى كان الشباب وعذارى ترويزن يقدمونها له قبل الزواج كانت تهدف إلى تقوية ارتباطهم بالآلهة، ومن ثم إلى زيادة خصوبة التربة والماشية والناس على السواء. ومما يعزز

هذه النظرة بعض الشيء أنه كانت تقوم داخل أرياض هيبوليتوس فى ترويزن عبادة اثنتين من قوى الأنوثة تعرفان باسم داميا Damia وأكسيزيا Axuesia وهما من القوى التى لها علاقة أكيدة بخصوبة الأرض. وحين عانت أبيداوروس[1] Epidaurus من الجدب والقحط قام الناس- استجابة لإحدى التنبؤات - بحفر صورة من خشب الزيتون المقدس لكل من داميا وأوكسيزيا، وما أن انتهوا من ذلك ودفنوهما فى الأرض حتى أثمرت التربة من جديد. يضاف إلى ذلك أنه فى ترويزن ذاتها وفى نطاق أرباض هيبوليتوس على ما يبدو كان يقام مهرجان غريب تقذف الأحجار تمجيدا لهاتين «العذراوين»، كما يسميهما أهل ترويزن. وثمة أمثلة كثيرة لعادات مماثلة تمارس فى عدد من البلاد للتعبير عن الرغبة والأمل فى الحصول على محصولات وفيرة، كما أن مأساة مقتل هيبوليتوس الشاب لها كثير من القصص المماثلة التى تدور حول شباب من البشر الذين يتمتعون بدرجة عالية من الحسن والكمال ولكنهم دفعوا حياتهم ثمنا لنشوة قصيرة من حب إحدى الربات الخالدات. ويحتمل جدا أن هؤلاء المحبين التعساء لم يكونوا دائما مجرد أساطير، كما أن الخرافات والقصص التى ترى دماءهم المراقة فى براعم البنفسج الأرجوانية أو فى لون شقائق النعمان القرمزية أو فى حمرة الخجل التى تصبغ الورد لم تكن مجرد تشبيهات شعرية للصبا والجمال الذابلين كأزهار الصيف. فالواقع أن هذ القصص الخرافية تتضمن فلسفة أكثر عمقا عن العلاقة بين حياة البشر وحياة الطبيعة، وهى فلسفة قاتمة أدت إلى ظهور كثير من الممارسات المفجعة. وسوف نعرف فيما بعد

---

(١) أبيداوروس هى إحدى مدن اليونان القديمة على الساحل الشرقى للبيلوبينيز حيث تطل على الخليج السارونى، وعلى الرغم من أنها كانت تؤلف دولة مستقلة ومتمايزة فإنها كانت تعتمد إلى حد كبير على أسبرطة، وقد اشتهرت أبيداوروس بمعبدها المخصص لاسكلابيوس الذى سبقت الإشارة إليه وكان يؤمه الكثير من كل أنحاء بلاد اليونان للشفاء، كما اشتهرت أيضا بمسرحها الذى كان يعتبر من أفضل المسارح، ولا تزال أجزاء كبيرة موجودة منه للآن(أ.أ).

الشيء الكثير عن تلك الفلسفة وهذه الممارسات.

٣- الخلاصة :

وقد نستطيع الآن أن نفهم السبب فى أن القدماء ربطوا إلى كل هذا الحد بين هيبوليتوس زوج أرتيمس من ناحية وفيربيوس الذى كان يقف من ديانا - على ما يقول سيرفيوس- موقفا مشابها لموقف أدونيس من فينوس أو موقف آتيس من أم الآلهة فلقد كانت ديانا مثل أرتميس تماما- إحدى ربات الخصوبة بعامة والوضع والولادة بخاصة. ومن هذه الناحية فإنها كانت مثل زميلتها اليونانية تحتاج إلى قرين من الذكور[1]. وكان هذا القرين - لو صحت رواية سيرفيوس - هو فيربيوس. ولقد كان فيربيوس بصفته مؤسس الغيضة المقدسة فى نيمى وأول من تولى الحكم فيها - هو المؤسس الأول بل و المثال الأسطورى لكل تلك السلسلة الطويلة من الكهنة الذين توافروا على خدمة ديانا، حاملين فى الوقت ذاته لقب «ملوك الغابة»، والذين انتهت حياتهم مثله واحدا بعد الآخر نهاية عنيفة . ولذا فإن من الطبيعى أن نزعم أن علاقتهم بإلهة الغيضة كانت تشبه علاقة فيربيوس بها، أى من ملك الغابة الآدمى الفانى كان يتخذ ديانا إلهة الأحراج ملكة وزوجة له. وإذا كانت الشجرة المقدسة التى كان يحرسها ويحيمها بحياته تعتبر - وعلى ما يبدو- تجسيدا خاصا للإلهة، فالأغلب أن كاهن ديانا لم يكن يعبد تلك الشجرة كإلهة فحسب بل إنه كان يحبها أيضا

---

(١) هناك مشابهات كثيرة جدا وصارخة بين الميثولوجيا اليونانية والرومانية. وتظهر ذلك فى خصائص الآلهة والربات والأنوار التى يقومون بها بحيث نكاد نجد لكل إله أو ربة عند اليونان مقابلا مماثلا عند الرومان، وكثيرا ما يستخدم الكتاب اسم أحد هؤلاء الأرباب فى إحدى اللغتين والثقافتين لمقابله فى اللغة والثقافة الأخرى كما يحدث خصوصا فى الخلط فى الاستخدام بين فينوس وافروديتى (أ.أ).

كزوجة، وليس فى هذا الافتراض ما ينافى العقل، خاصة وأن أحد النبلاء الرومان على أيام بلينى Pliny[1] كان يعامل بنفس الطريقة إحدى أشجار الزان الجميلة يحتضنها ويقبلها وينام فى ظلها ويسكب النبيذ على جذعها والظاهر أنه كان يعتبر تلك الشجرة هى الإلهة نفسها. ولا تزال عادة الزواج الفيزيقى بين الآدميين من كلا الجنسين من ناحية والأشجار من ناحية أخرى موجودة فى الهند وبعض بلاد الشرق الأخرى فهل ثمة إذن ما يمنع من وجودها فى إقليم لاتيوم القديم؟

ولو نظرنا إلى هذه الأدلة ككل، فقد نستطيع أن نستنتج أن عبادة ديانا فى غيضتها المقدسة فى نيمى كانت مسألة على جانب كبير من الأهمية، كما أنها ترجع إلى عهود موغلة فى القدم، وأنها كانت تُقدس كإلهة للاحراج والحيوانات البرية، بل ومن المحتمل أيضا كإلهة الحيوانات المستأنسة وثمار الأرض، وأن الناس كانوا يعتقدون أنها ترزقهم النسل والذرية وتساعد الأمهات فى الوضع والولادة، وأن نارها المقدسة كانت تستعر باستمرار - برعاية العذارى الأبكار- فى معبد دائرى داخل حدود حرمها المقدس، وأنه كان يرتبط بها حورية الماء إيجيريا التى كانت تمارس أيضا إحدى وظائف ديانا نفسها فى مساعدة النساء أثناء المخاض، والتى كان الناس يعتقدون أنها تزوجت من أحد الملوك الرومان المسنين داخل الغيضة المقدسة

---

(١) المقصود هنا هو بلينى الأصغر(٦١ - ١٣١م) أحد رجال الأدب اللاتيني المشهورين، وهو غير بليني الأكبر الذى تربطه به روابط القرابة القريبة والذى كان من الكتاب الموسوعيين فى روما (٢٣-٧٩م) والذى تولى تربية بلينى الصغير نفسه. ومع أن بلينى الأصغر اشتغل فترة بالمرافعة أمام القضاء ثم عين حاكماً لبيتونيا Bithunia فى آسيا الصغرى فإن شهرته الحقيقية الباقية للآن ترجع إلى ما خلفه وراءه من مكاتبات ومراسلات عديدة نشر بعضها فى حياته، وهي عبارة عن مقالات أدبية رائعة تتناول كثيرا من نواحي الحياة التى يحياها سادة الرومان وأشرافهم(أ.أ).

بل إن ديانا إلهة الغابة نفسها كان لها أيضا رفيق من الذكور- يدعى فيربيوس - وكانت علاقته بها تشبه علاقة أودنيس بفينوس وعلاقة آتيس بكوبيلى Cpele[١]. وأخيرا فإن هذا الشخص الأسطورى - فيربيوس- كانت تمثله فى الأزمنة التاريخية سلسلة من الكهنة الذين كانوا يعرفون باسم «ملوك الغابة» وكانوا دائما يهلكون بسيوف خلفائهم، كما كانت حياتهم ترتبط بشكل ما بشجرة معينة بالذات فى الغيضة. على اعتبار أنه ما دامت الشجرة سليمة سلمت حياتهم أيضا من الأذى.

وليس من شك فى أن هذه النتائج لا تكفى بذاتها لتفسير تلك القاعدة الغريبة المتبعة فى تولى منصب الكهنوت. ولكننا قد نعثر على بذور حل هذه المشكلة لو أننا عرضنا هذه القاعدة فى مجال أوسع وأكثر شمولا. وعلى ذلك فسوف نكرس جهودنا الآن لهذا العرض الواسع الشامل، وهو عرض طويل وشاق ولا ريب، ولكن قد يكون فيه بعض اللذة والسحر اللذين يصاحبان إحدى رحلات الاستكشاف التى سوف تحملنا إلى كثير من البلاد الأجنبية الغريبة حيث نصادف شعوبا أجنبية غريبة أيضا وعادات أشد غرابة. إن الرياح تضرب حبال السفينة بعنف. فلنرفع لها الأشرعة، ولنبحر مبتعدين تاركين ساحل إيطاليا وراءنا حتى حين.

(١) يطلق عليها اسم أم الآلهة.. كانت زوجة لكرونوس Cronus (الزمن) وأما لزيوس Zeus كبير الآلهة. وتظهر فى بعض أعمال الفن وعليها سيماء الأمومة، وفى أحيان أخرى تظهر جالسة على عرش ويجوارها بعض الأسود أو راكبة مركبتها التى تجرها الأسود أيضا (أ.أ).

الفصل الثانى

الملوك الكهنة(*)

• ترجمة د. أحمد أبو زيد

تركز الأسئلة التى كرسنا أنفسنا للإجابة عنها فى سؤالين رئيسين: الأول هو : لماذا كان يتعين على كاهن ديانا فى نيمى - وهو ملك الغابة - أن يقتل سلفه؟ والثانى، لماذا كان يتعين عليه قبل أن يفعل ذلك أن ينزع أحد الأغصان من شجرة معينة بالذات كان الأقدمون يعتقدون بصفة عامة أنها هى الغصن الذهبى الذى ذكره ڤرجيل؟(١)

والنقطة الأولى التى نعكف عليها الآن هى لقب الملك. فلماذا كان يسمى ملك الغابة؟ ولماذا كانت وظيفته توصف بأنها منصب ملكى أو «الملك»؟

الواقع أن الجمع بين لقب الملكى والواجبات الكهنوتية كان أمرا شائعا فى إيطاليا القديمة وفى بلاد الإغريق. فقد كان يوجد فى روما وغيرها من مدن لاتيوم كاهن يطلق عليه اسم «ملك القرابين» أو «ملك الشعائر المقدسة» كما كانت زوجته تحمل اسم ملكة الشعائر المقدسة أيضا، وفى أثينا الجمهورية كان الحاكم الثانى الذى يختار سنويا للدولة يلقب بالملك، كما كانت زوجته تدعى بالملكة رغم أن واجباتهما كانت دينية خالصة. كذلك كان لكثير من الديموقراطيات الإغريقية الأخرى ملوك اسميون لهم - على ما يبدو - وظائف دينية تدور حول الموقد العمومى للدولة، كما كان

(١) أحد كبار شعراء العصر الأوغسطى. تعتبر ملحمته الرائعة «الانيادة Aeneid فى المرتبة التالية مباشرة لملحمتى هوميروس الشهيرتين(الالياذة والأوديسا) وان كان فرجيل نفسه أقل بكثير فى الاصالة والقدرة على الخلق والابداع من هوميروس، وقد عالج فى ملحمته مغامرات ومخاطرات انياس بعد هزيمته فى حرب طروادة(أ ..أ).

لبعض الدول الإغريقية عدد من هؤلاء الملوك الاسميين اللذين يتولون السلطة معا فى وقت واحد. وفى روما كانت التقاليد تقضى بتعيين ملك القرابين والأضاحى حتى بعد إلغاء النظام الملكى لكى يقدم القرابين التى كان يقوم الملوك بتقديمها فى الماضى. ويبدو أنه كان ثمة نظرة مماثلة عن أصل الملوك الكهنة فى بلاد اليونان القديمة. والفكرة ذاتها ليست بعيدة الاحتمال. وقد ظلت قائمة فى اسبرطة التى تكاد تكون الدولة الإغريقية الحقيقية الوحيدة التى احتفظت بالشكل الملكى للحكومة فى العصور التاريخية. فقد كان الملوك أنفسهم هم الذين يقدمون كل قرابين الدولة فى اسبرطة. وذلك على اعتبار أنهم من نسل الإله، وكان أحد الملكيين هناك يشغل وظيفة «زيوس لاكيدايمونZeus Lacedaemon[1] بينما يقوم الآخر بوظيفة كاهن زيوس السماوى Celestial.

بل إن الجمع بين الوظائف الكهنوتية والسلطة الملكية كان أمرا مألوفا فى كثير من المناطق الأخرى. فلقد كانت آسيا الصغرى مثلا مركزا لعدد كبير من العواصم الدينية الكبرى التى يسكنها آلاف من العبيد المقدسين ويحكمها رؤساء دينيون كانوا يجمعون بين السلطتين الزمنية والروحية مثل بابوات روما فى القرون الوسطى. ومن هذه المدن التى كانت تخضع لحكم الكهنة زلة Zela وبيسينوس Pessinus. كذلك يبدو أن الملوك التيوتون فى العصور الوثنية القديمة كانوا يشغلون منصب كبار الكهنة ويمارسون سلطاتهم ، كما أن أباطرة الصين كانوا يقومون بتقديم القرابين العمومية طبقا للتعاليم التى رسمتها لهم - بكل دقة وبالتفصيل - الكتب الخاصة بالطقوس والشعائر.

(١) يتردد اسم لاكيدايمون أو لاسيدايمون فى الميثولوجيا اليونانية للاشارة إلى حاكم لاكونياLaconia أو إلى ابن زيوس الذى كان يحمل هذا الاسم والذى أطلق اسم زوجته (اسبرطة) على عاصمة ملكه(أ ..أ).

وفى مدغشقر كان الملك يعتبر هو الكاهن الأكبر للمملكة، ولذا فإنه كان يشرف بنفسه على تقديم الأضاحى وأداء صلاة الشكر أثناء الاحتفال الكبير بالسنة الجديدة، بينما كان رجال شعبه ينحرون بأنفسهم أحد الثيران من أجل خير المملكة وسعادتها. وفى الممالك التى لا تزال تحتفظ باستقلالها عند الجالا[١] فى إفريقيا الشرقية يقوم الملك بتقديم الأضاحى على قمم الجبال كما يشرف على عملية ذبح القرابين الآدمية. وتكشف لنا الأضواء الضئيلة الخافتة المنبعثة من بعض التقاليد القديمة عن نوع مماثل من الاتحاد بين السلطتين الزمنية والروحية وبين الواجبات الملكية والدينية عند ملوك ذلك الاقليم البهيج فى أمريكا الوسطى الذى تتميز عاصمته القديمة (المدفونة الآن تحت الغابات المدارية الكثيفة الكريهة) بخرائب وأطلال بالنكوه Palengue[٢] الرائعة الغامضة.

---

(١) الجالا من شعوب شرق أفريقيا، ويوجدون فى الأغلب فى وسط الحبشة وبعض أجزاء الصومال، وهم من المسالة الحامية فى الأغلب. ومع أن معظمهم لايزالون وثنيين فإن بينهم كثيرين من المسلمين ومن الاقباط، ويقوم اقتصادهم على مزيج من النشاط الزراعى والرعوى. ويبدو أن كلام فريزر فيمايتعلق بما يسميه ملك الجالا ينقصه كثير من الدقة إذ لا يكون الجالا مملكة بالمعنى الصحيح للكلمة وإنما يخضعون لحكم كبار السن فيهم الذين يؤلفون طبقة متمايزة عن بقية طبقات المجتمع. والتنظيم الطبقى نفسه غريب لأنه لاي قوم على أساس التفاوت أو التفاضل الاقتصادى وإنما على أساس التفاوت فى العمر بحيث أن جميع الاشخاص الذكور الذين ينتمون إلى فئة عمرية واحدة يؤلفون (طبقة متمايزة ومتماسكة تعرف باسم جاداGada. وتتناوب هذه الطبقات شئون الحكم حين تصل إلى أعلى مراتب العمر، واذا كان لكل جادا شيخ يتكلم بلسانها أو يقوم ببعض الشعائر الدينية فإنه لايرقى إلى مستوى الملوك كما أن وظيفته غير وراثية(أ ..أ).

(٢) تعتبر بالنكوه من أهم المدن القديمة فى جنوب المكسيك نظرا لأنها تعكس كثيرامن ملامح حضارة المايا Maya الزائلة وبخاصة فى فن العمارة. فقد كان المايا يسكنون مكانا وسطا فى امريكا الوسطى، وأثناء الفترة التى سادت فيها حضارتهم انتقل مركز الجاذبية و التقدم والارتقاء من مرتفعات جواتيمالا فى الجنوب إلى الشمال عبر الاراضى المنخفضة فى جواتيمالا ذاتها حتى وصل فى نهاية الامر إلى هندوراس ويوكاتان وجنوب المكسيك وقد ظهرت مدنهم المشيدة بالحجارة لأول مرة فى الأراضى المنخفضة بعد عام ٢٠٠ ق.م وبلغت قمة روعتها أثناء العصور المظلمة فى أوروبا، ثم طرأ عليها بعد ذلك شىء من التفكك والتدهور الذى لا ندرى سببه للآن. وأخيرا بدأت المرحلة النهائية قبل مجىء الأسبان بعد عام ١٠٠٠ م وكان مركزها يوكاتان. وتعتبر بالنكوه بأسلوبها المتحرر فى النحت مثلا رائعا لما بلغته هذه الحضارة فى الفن. وقد بلغت المدينة بفنونها المختلفة سواء العمارة أو النحت أو غيرها ذروة الرقى فى أواخر القرن السابع، وقد تم الكشف فيها عن خرائب قديمة تتألف فى الأغلب من مصاطب أو مدرجات صناعية فسيحة أو من أهرام مدرجة من الحجر المنحوت وتنتهى فى قمتها ببعض صروح ذات طابع هندسى غير مألوف وتغطيها رسوم وأشكال وصور بارزة وحروف هيروغليفية ملونة، بالإضافة إلى وجود عدد من معابد الشمس بين هذه الخرائب، وقد هجرت المدينة على أي حال فى القرن الثانى عشر انظر ترجمتنا لكتاب : وليام هاولز« ما وراء التاريخ » دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٥ صفحتى ٤١٦ ـ ٤١٧.(أ ..أ)

وحين نقول إن الملوك الاقدمين كانوا كهنة فى الوقت ذاته وبوجه عام، فإننا لا نكون قد وفينا الجانب الدينى من وظيفتهم حقه تماما. ففى تلك الأيام لم تكن الألوهية التى تحيط بالملك مجرد صورة لفظية جوفاء، وإنما كانت تعبيرا عن اعتقاد راسخ متين. فقد كان الملوك يقدسون فى كثير من الحالات ليس فقط بصفتهم رجال دين أو كهنة أى كوسطاء بين العبد والرب، بل وأيضا باعتبارهم هم أنفسهم آلهة وأربابا قادرين على أن يمنحوا أتباعهم وعبادهم تلك البركات التى يظن على العموم أنها تتجاوز طاقة البشر الفانين. والتى لم يكن فى استطاعة الناس الحصول عليها - إن أتيح لهم ذلك على الإطلاق - إلا بالصلاة والتضحية التى يقدمونها للكائنات القدسية التى لا تنالها الأبصار .. ومن هنا كان الناس كثيرا ما يتوقعون من ملوكهم أن يرسلوا عليهم المطر أو ضوء الشمس فى الموسم المناسب، وأن يساعدوا على نمو المحاصيل وما إلى ذلك. ورغم ما قد يبدو من غرابة هذه التوقعات فإنها تتفق تماما مع أنماط التفكير المبكر. فلم يكن من اليسير على الرجل الهمجى أن يدرك التمييز الذى تقيمه الشعوب الأكثر تقدما بين الطبيعى والخارق للطبيعة.

وإنما كانت الدنيا بالنسبة له تسيرها قوى خارقة للطبيعة، هى فى الوقت ذاته كائنات مشخصة تخضع لبواعث ودوافع تشبه تلك التى يخضع لها هو نفسه، وأنها تستجيب لمن يستدر عطفها وشفقتها أو يبدى الأمل والرجاء فيها أو الخوف منها. ففى مثل هذا العالم الذى يتصوره على هذا النحو لم يكن الرجل الهمجى يرى حدودا لقوته فى تسخير أحداث الطبيعة لما فيه صالحه الخاص، فالصلوات والوعود والتهديدات قد تكفل له الحصول على الطقس الملائم والحصول الوفير من الآلهة، وإذا حدث أن تجسد أحد الآلهة فيه - كما كان الناس أحيانا - فإنه يصبح فى غير حاجة للالتجاء إلى أى كائن آخر أعلى منه هو نفسه مادام هو - الرجل البدائى - أصبح

يملك فى نفسه كل القوى اللازمة لإسعاد نفسه وعشيرته.

كانت هذه إحدى الطرق التى أمكن بها الوصول إلى فكرة الإنسان الإله. ولكن هناك طريقة أخرى. فإلى جانب النظرة التى تتصور العالم مليئا بالقوى الروحية كان للرجل الهمجي تصور آخر مختلف - وربما كان أسبق فى الزمن وأقدم - قد يمكن أن نجد فيه البذرة الأولى للفكرة الحديثة عن القانون الطبيعى أو تصور الطبيعة كسلسلة من الأحداث التى تتم حسب نظام ثابت لا يتغير بدون تدخل من أية قوة مشخصة. وهذه البذرة التى أتكلم عنها وجد فيما قد يمكن تسميته بالسحر التعاطفى Sympathetic Magic الذى يلعب دورا كبيرا فى معظم أنساق الخرافات ففى المجتمع كان الملك يقوم فى كثير من الأحيان بدور الساحر ودور الكاهن معا، والظاهر أنه كان كثيرا ما يصل إلى السلطة بفضل براعته المزعومة فى كلا الفنين «الأسود والأبيض»[1].

---

(١) يبدو من هذا الكلام أن فريزر يقصد بالفن فن السحر وبالفن الابيض فن الكهانة وهذا قد يسىء إلى فكرته وأفكار غيره من علماء الاجتماع والانثربولوجيا عن السحر وعلاقته بالفن كما يوحى إلى القارىء بأن فريزر يقصد الدين حين يتكلم عن فن الكهانة أو الفن الأبيض والواقع أن فريزر وغيره من العلماء يميزون فى السحر بين لونين الاسود والابيض وهو فى كلا الحالين يبتعد كل البعد عن الدين. والسحر الاسود سحر ضار يمارس بقصد الحاق الاذى بالآخرين، أو على الأقل لإيذاء شخص ما من أجل شخص آخر أو لتحقيق نفع شخص ما على حساب شخص آخر، وهذا الشكل من السحر شائع شيوعا كبيرا فى كل المجتمعات والثقافات وفى كل العصور . وسوف يضرب فريزر على ذلك عشرات الامثلة فى الفصل التالى من هذا الكتاب. أما السحر الابيض فإنه يخدم أهدافا أخرى مختلفة عن ذلك تماما كما أنه أكثر أهمية من وجهة نظر المجتمع نظرا لأنه يحقق أهدافا عملية تعود بالنفع على المجتمع ككل ولاتتعارض مع قيم ذلك المجتمع. ويتمثل السحر الابيض فى أكثر صوره انتشارا فى التعاويذ والطلاسم والرقى التى يستعين بهاالمرء لانجاز أعماله اليومية ويحقق الاهداف التى قد يعجز عن تحقيقها بقواه الخاصة. ولذا فإن السحر الابيض له فروع كثيرة متخصصة تتنوع تبعا لتنوع الحياة الاقتصادية على الخصوص. فهناك سحر خاص بقنص الحيوان وسحر خاص بصيد السمك أوبفلاحة البساتين أو بصناعة الفخار، وأن تكن هناك فروع أخرى تتعلق بغير ذلك من أنواع النشاط الانسانى كما هو الحال مثلا فى السحر الخاص بالحب وهذا معناه فى الحقيقة أنه من الصعب جدا احصاء الصيغ السحرية وتصنيفها من القبائل الصغيرة العدد. ويجمع العلماء على أن أهم نوعين من السحر الابيض فى كل انحاء العالم هما السحر الخاص بالتنبؤ بالمستقبل أو التنبؤ بالغيب من ناحية، والسحر الخاص بالعلاج أو التداوى أو التطبيب وترجع أهميتهما إلى الدور الذى يلعبانه فى حياة الانسان والمجتمع من ناحية كما أن ممارستهما تحتاج إلى كثير من التخصص والدراية والمهارة - راجع فى ذلك على العموم ما ذكرناه عن السحر فى كتابنا عن «تايلور» مجموعة نوابغ الفكر الغربى، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ - (أ ..أ).

ومن هنا ، فلكي نفهم تطور نظام الحكم الملكى وتلك الخاصية المقدسة التى تحيط بهذا المنصب بوجه عام فى أعين الشعوب الهمجية والمتبربرة فإنه يتحتم علينا أن نتعرف مبادىء السحر وأن نكوّن فكرة عن مدى تسلط نسق الخرافة القديم على العقل البشرى فى كل العصور وفى كل البلاد. ولذا فقد يكون من الأفضل أن أدرس هذا الموضوع بشىء من التفصيل.

الفصل الثالث

السحر التعاطفي

١ـ مبادىء السحر :

إذا حللنا مبادىء الفكر التى يقوم عليها السحر فإنه يحتمل أن نجدها تنحصر فى مبدأين اثنين: الأول، هو أن الشبيه ينتج الشبيه أو أن المعلول يشبه علته، والثانى، هو أن الأشياء التى كانت متصلة بعضها ببعض فى وقت ما تستمر فى التأثير بعضها فى بعض من بعيد بعد أن تنفصل فيزيقيا. ويمكن أن نسمى المبدأ الأول «قانون التشابه» وأن نسمى المبدأ الثانى «قانون الاتصال» أو «التلامس» . ومن المبدأ الأول، أى قانون التشابه يستنتج الساحر أن فى استطاعته تحقيق الأهداف والنتائج التى يريدها عن طريق محاكاتها أو تقليدها. ومن المبدأ الثانى يستنتج أن كل ما يفعله بالنسبة لأى شىء مادى سوف يؤثر تأثيرا مماثلا على الشخص الذى كان هذا الشىء متصلا به فى وقت من الأوقات سواء أكان يؤلف جزءاً من جسمه أو لا يؤلف(١). وعلى ذلك يمكن أن نسمى التعاويذ والطلاسم التى تقوم على قانون التشابه بالسحر التشاكلى homoeopathic أو سحر المحاكاة imitative بينما نسمى تلك التى تستند إلى قانو ن الاتصال أوالتلامس بالسحر الاتصالى contagious وقد تكون كلمة «تشاكلى» أفضل من غيرها فى تحديد الفرع الأول من فرعى السحر،

---

(١) لعل أفضل مثل للأشياء التى كانت تؤلف جزءا من جسم الشخص المراد التأثير فيه باستخدام السحر هو الشعر والأظافر بعد أن تقص وتفصل عن جسم صاحبها، بينما تعتبر الملابس مثلا طيبا للأشياء التى لا تؤلف جزءا من جسم صاحبها ولكنها تستخدم مع ذلك فى السحر ويكون مفعولها قويا . وسوف يذكر فريزر فى الصفحات التالية عشرات الأمثلة كعادته فى توضيح الاحكام التى تصدر عنه (أ.أ).

وذلك لأن كلمة «محاكاة» أو «تقليد» توحى - إن لم تكن تعنى بالفعل - بوجود قوة عاقلة تمارس عمدا عملية المحاكاة أو التقليد. وهذا يؤدى إلى تضييق مجال السحر إلى حد كبير جدا. فالساحر يعتقد بطريقة ضمنية أن المبادىء التى يستخدمها فى ممارسة فنونه هى ذاتها المبادىء التى تنظم عمليات الطبيعة الجامدة أو غير الحية. وهذا معناه أنه يسلم منذ البداية بأن قانونى التشابه والاتصال يصدقان على كل شىء وليس على السلوك الإنسانى فقط.

وباختصار فإن السحر نسق كاذب أو زائف للقانون الطبيعى مثلما هو موجه، مضلل للسلوك: إنه علم كاذب زائف بقدر ما هو فن عقيم[1]. فإذا نظرنا إليه على أنه نسق للقانون الطبيعى، أى تقرير للقواعد التى تتحكم فى تتابع الأحداث فى العالم كله. فإنه يمكن تسميته حينذاك بالسحر النظرى. أما إذا نظرنا إليه على أنه مجموعة من القواعد والتعاليم التى يتبعها الناس فى تحديد أهدافهم فإنه يمكن حينذاك تسميته بالسحر العملى. ولكن يجب أن نأخذ فى الاعتبار فى الوقت ذاته أن الساحر البدائى لا يعرف سوى الجانب العملى من السحر وأنه لا يحلل أبدا العمليات الذهنية التى تقوم عليها أفعاله وممارساته، كما أنه لا يشغل نفسه بالتأمل والتفكير فى المبادىء المجردة التى تنطوى عليها تصرفاته . فالمنطق بالنسبة له - كما هو بالنسبة

---

(١) اعتبار السحر علما زائفا أو كاذبا يظهر بوضوح فى كتابات تايلور وبخاصة فى كتابه الرئيسى «الثقافة البدائية» وأساس الفكرة هو أن كلا من السحر والعلم يقوم على أساس معين من تداعى الأفكار أو المعانى ولكن هذا التداعى يتم بطريقة خاطئة فى السحر بعكس الحال فى العلم. فالفكرة فى ذاتها ليست جديدة ولا يمكن القول أن فريزر هو الذى ابتدعها كما يظن الكثيرون من الكتاب. ولكن الأهم من ذلك هو أن فريزر يرى أن ثمة علاقة قوية بين السحر والعلم وأن السحر هو الطريق الطبيعى الذى سلكته البشرية للوصول إلى العلم، وفى ذلك يختلف فريزر عن كثير من العلماء الذين اهتموا بدراسة السحر والذين يرون أن العلاقة الطبيعية تقوم بين السحر والدين وليس بين السحر والعلم(أ ..أ)

لمعظم الناس ـ أمر ضمني وليس أمرا بينا صريحا: بمعنى أنه يفكر تماما مثلما يهضم طعامه دون أن يدرى شيئا على الإطلاق عن العمليات الذهنية أو الفسيولوجية التى تعتبر أساسا لهذين النوعين من النشاط وعلى الجملة، فإن السحر بالنسبة له هو دائما نوع من الفن لا العلم . بل إن فكرة العلم ذاتها لا وجود لها فى ذهنه الكليل المتخلف[1].

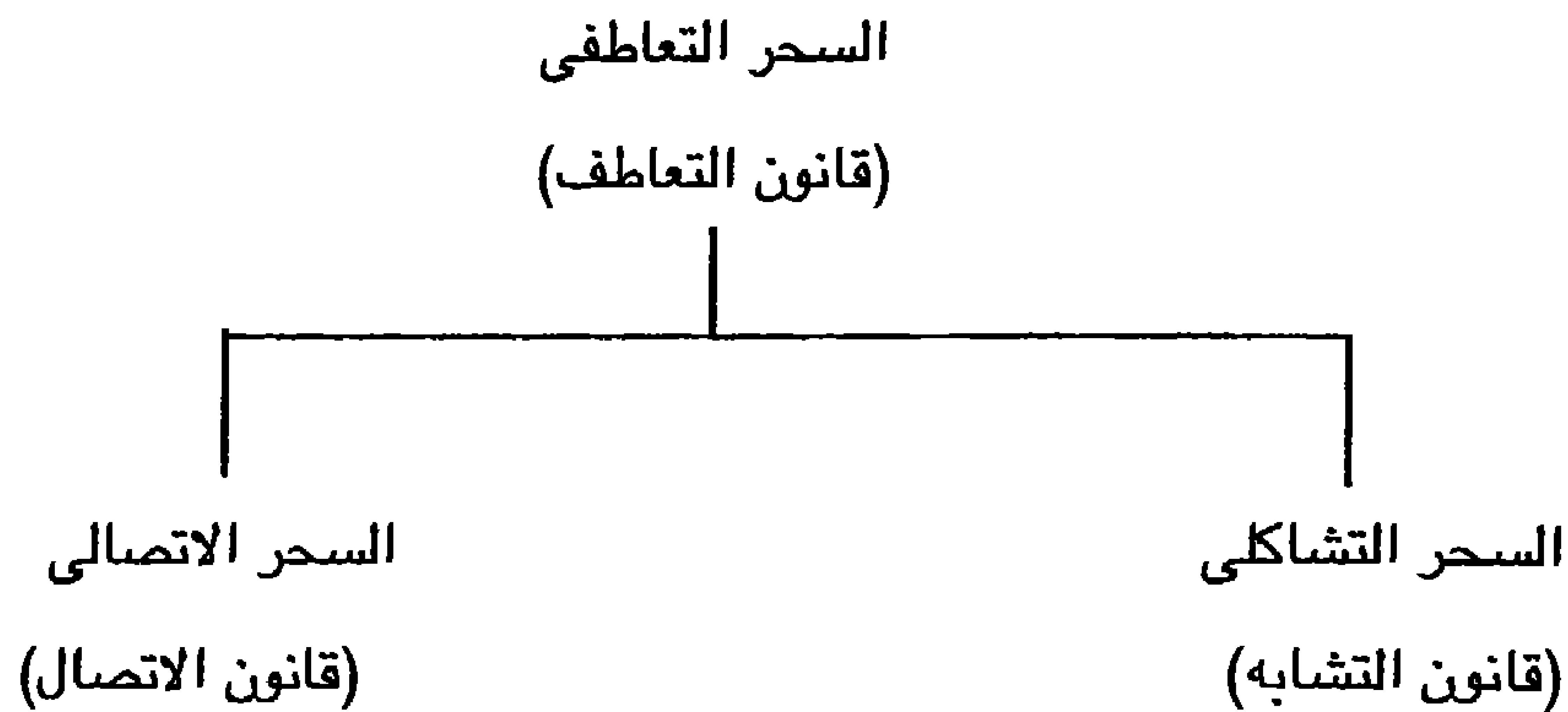
إن تتبع تسلسل الفكر الذى يكمن وراء أفعال الساحر وممارساته هو من عمل العقل المتفلسف الذى يستطيع التمييز والفصل بين الخيوط القليلة البسيطة التى تتألف منها تلك الشبكة المعقدة المتداخلة واستخلاص المبادىء المجردة من تطبيقاتها المادية الملموسة. وبالتالى إدراك العلم الزائف وراء الفن الفاشل العقيم.

ولو صح هذا التحليل لمنطق الساحر فإن المبدأين الأساسين اللذين يعتمد عليهما سوف يظهران على أنهما مجرد طريقتين مختلفتين لاستخدام تداعى الأفكار استخداما خاطئا فالسحر التشاكلى يقوم على تداعى الأفكار عن طريق التشابه. بينما السحر الاتصالى يقوم على تداعى الأفكار عن طريق التجاور أو التلامس : السحر التشاكلى يقع فى خطأ افتراض أن الأشياء المتشابهة متطابقة تماما. والسحر الاتصالى يقع فى خطأ افتراض أن الأشياء التى كانت متلامسة تظل

(١) تمتلىء كتابات فريزر وغيره من علماء القرن التاسع عشر الذين كتبوا عن الشعوب البدائية بمثل هذه الأوصاف والنعوت التى تنبعث من الاعتقاد بأن الرجل «البدائى أو الهمجى» هو نوع من البشر يختلف تماما عن الأوروبى وأنه بطبيعته وليس بحكم الظروف التى يعيش فيها أقل منه كفاءة وقدرة وذكاء، وأن التخلف الواضح فى حياة الشعوب البدائية انما هو نتيجة طبيعية لذلك القصور الطبيعى فى قدراتهم وملكاتهم. وربما كان أول من نادى بضرورة تخلص علماء الانثربولوجيا من مثل هذه الاحكام التقويمية هو تايلور وان لم يفلح هو نفسه فى التخلص تماما من هذا الاتجاه العام، كما ظهرت نفس الدعوة عند دور كايم فى فرنسا، وافلحت الدعوتان على أى حال فى تخليص الكتابات الانثربولوجية والسوسيولوجية الحديثة من هذا العيب(أ ..أ).

متصلة باستمرار . ولكن كثيرا ما يرتبط هذان الفرعان من الناحية العملية معا أو بقول أكثر دقة فإنه بينما يمكن ممارسة السحر التشاكلي أو سحر المحاكاة بذاته فإن السحر الاتصالي يتضمن على العموم الاستعانة بالتشاكل أو المحاكاة. وقد يكون من الصعب فهم هذه التفرقة من هذا الوصف العام. ولكنها سوف تتضح للذهن حين نضرب بعض الأمثلة الأكثر تحديدا. والواقع أن تسلسل التفكير في كلا الفرعين في منتهى البساطة والسذاجة، ولا يمكن أن يكون الأمر على غير ذلك نظرا لأنهما مألوفان في الواقع الملموس. وإن لم يكونا كذلك على المستوى المجرد بالنسبة للذكاء الفج البسيط الذي لا تتصف به الشعوب الهمجية فقط بل وأيضا الشعوب المتخلفة التي لا تتمتع بدرجة عالية من الذكاء والفطنة في كل أنحاء العالم. وقد يمكن فهم فرعي السحر التشاكلي والاتصالي بطريقة أجدى وأفضل إذا أطلقنا عليهما تسمية واحدة شاملة وعامة مثل السحر التعاطفي، نظرا لأن الاثنين يفترضان امكان تأثير الأشياء بعضها في بعض من بعيد عن طريق نوع من التعاطف الخفي، بحيث ينتقل ذلك التأثير من شيء لآخر خلال ما يمكن تصوره على أنه نوع من الأثير الشفاف. ولا يختلف الأمر هنا عما يسلم به العلم الحديث من أجل غرض مماثل تماما وهو تفسير كيفية تأثير الأشياء فيزيقيا بعضها في بعض خلال الفضاء الذي يبدو خاليا.

وقد يحسن بنا أن نضع فروع السحر في الشكل التالي تبعا لقوانين الفكر التي تستند إليها.



وسوف نوضح عن طريق الأمثلة كلا من هذين الفرعين الكبيرين للسحر التعاطفى مبتدئين بالسحر التشاكلى.

٢ـ السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة:

ربما كان أكثر صور استخدام مبدأ التشابه «الشبيه ينتج الشبيه» شيوعا وانتشارا هى المحاولات التى يقوم بها كثير من الناس فى مختلف العصور لإلحاق الأذى أو الدمار بأعدائهم عن طريق إيذاء أو تدمير صورهم، اعتقادا منهم أن ما يلحق بالصورة من شر وضرر يلحق بصاحبها، وأنه حين يتم تدمير الصورة يموت الأصل بالضرورة. ويمكن أن نذكر هنا جانبا يسيرا من الأمثلة الكثيرة التى تظهر فى الحال مدى انتشار هذه العادة فى العالم واستمرارها الفريد خلال الزمن فلقد قامت هذه الممارسات منذ آلاف السنين عند سحرة الهند القديمة وبابل ومصر وكذلك فى بلاد اليونان وروما. كما أنها لا تزال شائعة حتى الآن عند الجماعات الهمجية الخبيثة الشريرة فى استراليا وافريقيا واسكتلندا فالهنود الحمر فى امريكا الشمالية يعتقدون أن رسم صورة الشخص فى الرمل أو الرماد أو الطين أو الحصول على أى جزء من جسمه ونخسه بقطعة حادة من الخشب أو إلحاق أى نوع آخر من الأذى به

يستتبع إلحاق أذى مماثل بالشخص ذاته الذى تمثله هذه الصورة وعلى ذلك فحين يريد شخص عند هنود أوچبواى Ojebway إيذاء أحد أعدائه فإنه يصنع له تمثالا صغيرا من الخشب ثم يغرز إبرة فى رأسه أو قلبه أو يطلق عليه سهما، اعتقادا منه أن عدوه سوف يشعر بآلام حادة نفاذة فى ذلك الجزء من جسمه الذى يقابل الموضع الذى أصابته الإبرة أو السهم من التمثال . أما إذا كان يريد قتل عدوه مباشرة وفى التو واللحظة فإنه يحرق التمثال أو يدفنه وهو يردد بعض الصيغ السحرية. كذلك كان الهنود الحمر فى بيرو يصنعون من الدهن المخلوط بالحنطة تماثيل على هيئة الأشخاص الذين يكرهونهم أو يرهبونهم ويحرقونها فى الطريق الذى يسلكه هؤلاء الأعداء، ويعرف ذلك عندهم باسم «حرق الروح»(١) .

وثمة «تعزيمة» فى الملايو من هذا النوع تقوم على أساس أخذ بعض أجزاء صغيرة من الأظافر والشعر والحواجب وما إلى ذلك بحيث تمثل جميع أجزاء الضحية، واستخدامها مع بعض الشمع الذى يؤخذ من خلية نحل مهجورة، فى صنع تمثال أو دمية على هيئته. وتعرض الدمية كل ليلة لسبع ليال متتالية للهب مصباح كى تحترق ببطء، ويردد الساحر أثناء ذلك :

---

(١) الواقع ان هذا الاسلوب من السحر شائع جدا فى كل المجتمعات المعروفة مع خلاف في درجة الممارسة والتطبيق. ويوجد هذا الاسلوب في مجتمعاتنا كما هو الحال مثلا فى صنع «عروسة» من الورق وغرزها بالابر في عدة مواضع ثم إحراقها لإبطال الحسد والأمثلة الكثيرة التى يضربها فريزر ويبالغ فى الاستشهاد بها تعطى فكرة واحدة عن نمط تفكيره وعن فهمه للمنهج المقارن فالمقارنة عنده لاتخرج عن أن تكون سردا لأكبر عدد ممكن من المعلومات الجزئية المتشابهة التى يجمعها من كل المجتمعات والثقافات والعصور . وهذه طريقة اثنوجرافية بحتة تقوم على مجرد السرد والوصف وتجد الآن كثيرا من المعارضة والنقد من علماء الانثربولوجيا المحدثين الذين يفهمون المنهج المقارن بطريقة أخرى غير مجرد جمع المعلومات الجزئية المبتسرة من كل زمان ومكان. ومن هنا كان كثير من العلماء المحدثين يميلون إلى إخراج فريزر من زمرتهم واعتباره من رجال الادب والفولكلور ـ (أ..أ).

إننى لا أعرض الشمع للهب، إنما أعرض للهب كبد فلان(أوقلبه أو طحاله..الخ) بعد الليلة السابعة يحرق التمثال تماما فيموت صاحبه. وواضح أن هذا الطلسم السحرى يجمع بين مبدأى السحر التشاكلى والسحر الاتصالى، نظرا لأن التمثال المصنوع على هيئة العدو يضم أشياء كانت متصلة بجسمه فى وقت من الأوقات كالأظافر والشعر واللعاب. ومن التعازيم الأخرى المنتشرة فى الملايو والتى تشبه ما نجده عند الأچبواى شبها قويا أن يصنع الشخص دمية من شمع العسل من خلية مهجورة بحيث يكون طولها حوالى طول خطوة العدو. فإذا طعن الدمية فى مكان العين أصاب العمى عدوه، وان طعنها فى موضع المعدة أصابه الغثيان والقىء. أو طعنها فى الرأس أصابه الصداع، أو طعنها فى الصدر مزقت الآلام صدره. وهكذا . فإذا أراد قتله مرة واحدة أولج قضيبا فى الدمية بحيث يخترقها من الرأس حتى القدمين ثم كفنها مثلما يكفن الجسد وصلى عليها مثلما يصلى على الميت ودفنها وسط الطريق بحيث يخطو غريمه فوقها. ولكيلا يقع دم الضحية على رأس الفاعل يقول:

لست أنا الذى يقوم بدفنه

إنما هو جبريل الذى يدفنه

وبذلك يقع الإثم على كاهل كبير الملائكة الذى يستطيع أن يتحمل المسئولية بسهولة ويسر ولكن إذا كان السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة الذى يعمل عن طريق الصور أو الدمى يمارس فى العادة لتحقيق الأغراض الشريرة مثل إزالة الأشخاص المقوتين أوالمكروهين وإبادتهم من هذا العالم، فإنه يستخدم أيضا ـ وإن يكن بدرجة أقل بكثير ـ لتحقيق النوايا الطيبة نحو الاخرين ومساعدتهم فى الحياة. ويقول آخر ، فإنه كثيرا ما يستخدم لتسهيل عملية الوضع والولادة ومنح النسل

والذرية للنساء العاقرات. مثال ذلك أن المرأة العاقر عند الباتاكا Batakas فى سومطرة والتى تتمنى الإنجاب تصنع من الخشب دمية لطفل تحملها فى حجرها على أمل أن يؤدى ذلك إلى تحقيق أمنيتها . كذلك حين ترغب المرأة فى جزر بابار Babar فى أن يكون لها ولد فإنها تطلب من أحد الرجال من أصحاب العائلات الكبيرة العدد أن يصلى من أجلها لروح الشمس المدعو أوبوليرو Upulero ثم تصنع «عروسة» من القطن الأحمر تضمها بين ذراعيها كما لو كانت ترضعها، ويمسك ذلك الرجل ا‏نعيال بإحدى الدواجن من ساقيها ويرفعها فوق رأس المرأة وهويتمتم: «أى أوبوليرو» خذ هذا الطائر ودع الطفل يسقط. دعه ينزل أنى أضرع إليك. إننى أبتهل إليك أن تترك الطفل ينزل وينزلق بين يدى وفى حجرى.» ثم يسأل المرأة: « هل جاء الطفل»؟ فتجيبه: « نعم وهو يرضع الآن بالفعل. ويرفع الرجل بعد ذلك الطائر فوق رأس الزوج وهو يردد بعض الصيغ والعبارات السحرية، وأخيرا يذبح الطائر ويضعه مع بعض أوراق نبات البتل betel[1] فى المكان الذى يقدم فيه أفراد البيت القرابين. وحين تنتهى هذه الطقوس ينتشر الخبر فى القرية بأن المرأة قد وضعت طفلا ، فتسارع صديقاتها إلى البيت مهنئات . فهنا نجد أن التظاهر بولادة طفل هو طقس سحرى محض، يهدف عن طريق المحاكاة أوالتمثيل إلى ضمان الولادة بالفعل وإن كان الناس مع ذلك يعملون على توكيد فاعلية هذه الطقوس بالصلاة وتقديم القرابين.

---

(١) يعتبر نخيل البتل من أنواع النخيل اللاشوكى ويعرف باسم Areca Catechus وترتفع نخلة البتل فى بعض الأحيان ارتفاعا كبيرا قد يصل مائة قدم أو أكثر وهى تنمو بكثرة فى جنوب شرقى آسيا وإن كانت توجد فى بعض جهات أمريكا الاستوائية. ويثمر نخيل البتل ثمارا حمراء اللون أوتميل إلى الحمرة وتحتوى الواحدة منها على نواة صلبة يمضغها الأهالى هناك لخواصها الطبية المنبهة، وان كان لونها يصبغ شفاههم وأفواههم بلون احمر وكثيرا ما يؤدى إلى اسوداد الاسنان وتلفها(أ..أ)

ويقول آخر فإن السحر هنا يمتزج بالدين ويستمد منه مزيدا من القوة.(١).

وعند بعض قبائل الداياك Dayaks فيبورنيو حين يأتى المرأة المخاض تستدعى أحد السحرة لمساعدتها على الوضع. ويقوم الساحر بجس جسمها وتحريك الجنين بيده لمعاونتها على الوضع، وهذه عملية مقبولة عقلا. إلا أنه فى الوقت نفسه يقف ساحر آخر خارج الحجرة ويقوم بأداء بعض الحركات التى تهدف هي أيضا إلى نفس الغاية دون أن تكون لها صلة معقولة بعملية الوضع ذاتها.

وتدور هذه الحركات حول تمثيل ومحاكاة دور المرأة الحامل، فيربط حجرا كبيرا إلى بطنه بقطعة من القماش يلفها حول جسمه لتمثل الطفل داخل الرحم ثم يقوم - مسترشدا بالتعليمات التى يصدرها إليه زميله من داخل الحجرة - بتحريك الطفل المتوهم فى جسمه، مقلدا حركات الطفل الحقيقى حتى تتم الولادة.

هذا المبدأ نفسه الذى يقوم على التظاهر والتوهم والذى يظهر بوضوح عند الأطفال دفع بكثير من الشعوب الأخرى إلى الالتجاء إلى محاكاة وتقليد عملية الوضع والولادة كأداة ووسيلة للتبنى، أو حتى كوسيلة لإرجاع الحياة إلى شخص يعتقدون أنه مات. فإذا تظاهر شخص ما بأنه يلد طفلا معينا أو حتى رجلا متقدما فى السن دون أن يمت إليه بنسب فى الحقيقة، والواقع فإن ذلك الطفل أو الرجل

---

(١) على الرغم من التمييز الحاسم الذى يقيمه فريزر بين السحر والدين فكثيرا ما يستعين الساحر ببعض الطقوس والشعائر الدينية لكى يزيد من مفعول سحره وطلاسمه. ويحدث هذا فى العادة فى المجتمعات التى حققت درجة معينة من التقدم وتخطت مرحلة. التوحش أوالهمجية الأولى ويدأ الدين يلعب دورا هاما، وإن لم يفلح فى القضاء تماما على السحر. والمعروف أن السحر فى نظر فريزر كان أسبق من الدين فى الظهور ولذا فإن هذا الخلط بين الممارسات السحرية والدينية لايحدث فى المجتمعات الهمجية نظرا لعدم معرفتها بالدين ولاعتمادها كليا فى مواجهة أزمات الحياة على السحر(أ.أ)).

يصبح فى نظر القانون والفلسفة البدائيين ابنا حقيقيا له من جميع الوجوه[1] . ويذكر لنا ديودورس Diodorus أنه حين أفلح زيوس Zeus فى اقناع زوجته الغيور هيرا Hera فى أن تتبنى هرقل[2].

رقدت الإلهة فى فراشها وضمت البطل القوى الضخم الجسم إلى صدرها ثم دفعته خلال ثيابها وتركته ينزلق إلى الأرض كما يحدث فى الولادة الحقيقية[3] ويضيف هذا المؤرخ أيضا أن هذه الطريقة ذاتها كانت شائعة على أيامه بين البرابرة كوسيلة لتبنى الأطفال، كما يقال إنها لاتزال تمارس حتى الآن فى بلغاريا وعند

(١) توجد عادة مماثلة لهذه فى كثير من المجتمعات العربية حيث تلجأ المرأة العاقر (فى الأغلب) إلى دفع أحد أولاد قريبة أو صديقة لها خلال ملابسها من فتحة الثوب عند الرقبة واستقباله عند ذيل الثوب وبذلك يصبح كما لو كان ابنا لها، وان كان ذلك لا يترتب عليه أى حقوق شرعية فى الوراثة مثلا(أ..أ)

(٢) تسجل الاسطورة القديمة قصة الصراع العنيف بين هيرا وهرقل ونقمة هيرا عليه باعتباره من نسل زوجها واحدى زوجاته من بنى البشر الفانين وقد اعلنت هيرا الحرب على هرقل منذ مولده اذا أرسلت إليه فى مهده اثنتين من الافاعى القاتلة ولكن الطفل القوى تمكن من قتلهما بيديه؛ فأسلمته هيرا بعد ذلك إلى يوريستيوس Hurystheus وجبرته على أن يفعل ما يؤمر به وبذلك أرسله يوريستيوس فى رحلات خطيرة لتنفيذ بعض المطالب والاوامر الصعبة المهلكة عسى أن يلقى فيها حتفه. وقد سجلت لنا الاساطير أيضا كل هذه المخاطرات التى تعرف عموما باسم متاعب أو مغامرات هرقل الاثنتى عشرة وقد سبقت الاشارة إلى احداها وهى صراعه مع العدو (الهيدرا) ذات الرؤوس التسعة التى تتميز بأنه كلما قطع رأسا منها نبت مكانها رأسان جديدتان كما ان الرأس الوسطى كانت غير قابلة للقطع أو الدمار أو الابادة ومع ذلك تمكن هرقل فى آخر الأمر من أن يقتلها حرقا وأن يدفن تلك الرأس الباقية الخالدة تحت صخرة ضخمة. ولا تقل المغامرات الاخرى التى كان هرقل يقوم بها عن ذلك خطورة ولكنه أفلح فى التغلب عليها كلها بفضل قوته الجسدية الهائلة. ولم ترض عنه هيرا إلابعد أن مات هونفسه محروقا وطهرته النار من الجانب الآدمى الفانى الذى ورثه من أمه ثم رفعه زيوس فى عربة تجرها أربعة خيول إلى السماء حيث احتل مكانة بين النجوم .. ويقال فى الاسطورة إن هيرا قبلت حينئذ أن تزوجه ابنتها. راجع تفاصيل مغامرات هرقل فى كتاب بلفينش عن «عصر الخرافة» المرجع السابق ذكره، صفحات ١٥٩ وما بعدها(أ..أ)

(٣)لا تزال بعض الشعوب والقبائل الافريقية فى جنوب ووسط القارة بوجه خاص تمارس بعض العادات المشابهة لإثبات بنوة الطفل لابيه.. وتقضى هذه العادات على الأب حين يأتى آلام المخاض أن يرقد فى الفراش ويقوم بكل الحركات التى يفترض صدورها عن المرأة أثناء الوضع ثم يمضى مع الطفل حين يولد فترة النفاس، وتعرف هذه العادة باسم الكوفاد Couvade (أ..أ).

الأتراك فى البوسنة. حيث تأخذ المرأة الطفل الذى تنوى أن تتبناه ثم تدفعه أو تجذبه خلال ملابسها، ومنذ تلك اللحظة يعتبر ابنها الحقيقى، فيرث كل ممتلكات والديه بالتبنى. وعند قبائل بيراوان Berawans فى سراواك حين تريد المرأة أن تتبنى شخصا مكتمل النضج - رجلا كان أو امرأة - يتجمع نفر كبير من الناس فى حفل كبير وتجلس المرأة أمامهم على مقعد مرتفع وقد تغطت تماما ثم تسمح للشخص الذى سوف تتبناه بأن يحبو من خلفها بين ساقيها. وبمجرد أن يظهر أمامها تلقى عليه بعض الأزهار من نوع معين له رائحة زكية، ثم يقوم الاثنان وقد ربط أحدهما للآخر ويسيران مترنحين حتى آخر البيت ثم يعودان ثانية أمام الناس وتعتبر هذه الرابطة التى تقوم بين الاثنين بهذه الطريقة التى تحاكى حرفيا عملية الولادة هناك رابطة متينة للغاية لدرجة أن أى اعتداء يتعرض له الشخص المتبنى يعتبر أشد وأنكى من الاعتداء الذى قد يتعرض له الابن الحقيقى لتلك المرأة. وفى بلاد اليونان القديمة كان الشخص الذى يظن الناس خطأ أنه مات وأقاموا له فى غيابه الشعائر الجنائزية المناسبة يعتبر ميتا فى نظر المجتمع حتى يمر بعملية الولادة من جديد. وفى هذه العملية كانوا يجعلونه يمر خلال حجر إحدى النساء ثم يغسلون جسمه ويلفونه فى القماط ويسلمونه لإحدى المربيات للإشراف عليه.

ولم يكن يسمح له بالاختلاط بغيره من الناس الأحياء قبل إتمام هذه الطقوس بكل دقة وعناية. وفى الهند القديمة كان الرجل الذى يعتقد أنه مات يضطر إلى تمضية الليلة الأولى بعد عودته فى برميل ملئ بخليط من الدهن والماء فيجلس فيه صامتا تماما وقد ضم قبضتى يديه إحداهما للأخرى مثلما يجلس الجنين فى الرحم، بينما تمارس عليه كل أنواع الطقوس المقدسة التى كانت تمارس على المرأة الحامل. وفى صباح اليوم التالى يخرج من البرميل وتمارس عليه مرة أخرى كل الطقوس

والشعائر التى سبق أن مر بها منذ طفولته الأولى حتى سنه الحالية، بل إنه يتعين عليه أن يتزوج امرأة جديدة أويرد إليه زوجته الأولى مرة أخرى بكل الطقوس المناسبة.

ومن الأوجه المفيدة الأخرى التى يستخدم فيها السحر التشاكلى الاستعانة به فى معالجة الأمراض أو الوقاية منها[1]. ولقد كان الهندوس القدماء يمارسون بعض الطقوس الدقيقة التى ترتكز على السحر التشاكلى العلاج من مرض الصفرة أو اليرقان. وكان الهدف الأساسى من هذه الطقوس هو نقل الصفرة من جسم المريض إلى الكائنات والأشياء الصفراء الأخرى مثل الشمس التى تنتمى إلى ذلك اللون عن جدارة، ثم حقن المريض باللون الأحمر الذى يدل على الصحة والعافية وذلك من أحد المصادر التى تتمتع بالقوة والحيوية مثل الثيران الحمراء. ولكى يتم ذلك كان أحد رجال الدين عندهم يتلو الرقية التالية «سوف تصعد إلى الشمس آلام قلبك ومرض الصفرة. وسوف نغمسك فى لون الثور الأحمر إننا نغمسك فى الأصباغ الحمراء لتنعم بالحياة طويلا. ألا فلتتحرر وتتخلص من ذلك اللون الأصفر.إننا نضفى عليك

---

(١) سبق أن ذكرنا أن أهم نوعين من أنواع السحر فى كل أنحاء العالم هما السحر الخاص بالتنبؤ بالغيب والسحر الخاص بالتداوى والعلاج. (انظر الحاشية رقم ١ ص ١٠١) ويرد وليام هاولز ذلك الاهتمام إلى أن المرض والشك هما دائما أشد وأقسى أسباب القلق الشخصى والاجتماعي، وهذا نفسه هو السبب فى وجود المشتغلين بقراءة الكف وورق اللعب والعرافين والمنجمين وأمثالهم بيننا ـ ووجودهم نعمة من غير شك ـ كما إنه هو السبب فى أن الناس لايزالون يقبلون كل أنواع طب الركة أو طب العجائز على الرغم من الطب الحديث بكل معلوماته الصحيحة الشاملة (انظر ترجمتنا العربية لكتاب هاولز ما وراء التاريخ، المرجع السابق ذكره، صفحة ٢٣٥ والواقع أن الاستعانة بما يمكن تسميته بطب الركة أو الطب الشعبى فى علاج الأمراض وبخاصة المستعصية والمزمنة شائع فى كثير من المجتمعات والثقافات على اختلاف درجات تقدمها ويعتبر مكملا للطب الحديث ووسائل العلاج العملية بحيث يستخدم المريض الاثنين معا ويرد شفاءه إليهما معا أيضا(أ..أ)

صورة وحيوية تلك الأبقار التى تنتمى إلى الآلهة روهينى الحمراء إننا ننقل صفرتك إلى الببغاوات وطيور الدج وغيرها من الطيور الصفراء. ولكى يسرى رحيق الصحة الوردى فى جسم المريض الشاحب فإنه يرشف أثناء ترديد رجل الدين لهذه الكلمات بعض رشفات من الماء الممزوج بشعر ثور أحمر، وذلك بعد أن يكون رجل الدين قد سكب الماء فوق ظهر الحيوان ليقدمه للمريض. ويجلس المريض أثناء ذلك فوق جلد دب أحمر وقد ربط قطعة من ذلك الفراء إلى جسمه. ولكى يزيل تماما كل آثار الصفرة من جسمه ويستبدل بها لون الصحة الأحمر يخضع المريض لمزيد من الشعائر والطقوس التى تبدأ بأن يدهن له رجل الدين جسمه كله من قمة الرأس حتى أخمص القدمين بنوع من العصيدة الصفراء المصنوعة من الكركم ثم يضعه فى الفراش ويربط ثلاثة أنواع من الطيور الصفراء كالببغاوات أو طائر الدج بخيوط صفراء إلى فراشه من جهة القدمين، ثم يصب الماء على المريض لإزالة العصيدة ومعها بلاريب مرض الصفرة الذى ينتقل بذلك من جسمه إلى تلك الطيور. ولكى تكتسب البشرة شيئا من النضارة والتألق يأخذ رجل الدين بعض الشعيرات من ثور أحمر فى إحدى أوراق الشجر الذهبية اللون ويلصقها إلى جلد المريض. كذلك كان الأولون يعتقدون أنه إذا نظر الشخص المريض باليرقان إلى الكروان الجبلى بحدة وبادله الطائر تلك النظرة فى الوقت نفسه شفى المريض منمرضه. ويقول بلوتارك Plutarch فى ذلك هذه طبيعة ومزاج ذلك الطائر الذى يسحب المرض ببصره فيتدفق كالنهر من جسم المريض. ولقد كان هواة الطيور يعرفون تلك الخاصية التى يتمتع بها كروان الجبل لدرجة أنه حين يخرج أحدهم لبيع إحادها كان يحرص على إخفائه وتغطيته خشية أن ينظر إليه شخص مصاب باليرقان فيشفى من مرضه بدون مقابل . ولم تكن هذه الخاصية مرتبطة بلون الطائر ذاته بل بعينيه الذهبتين الكبيرتين اللتين

تجذبان الصفرة بسهولة ويسر. ويتكلم بلينى Pliny عن طائر آخر - ولعله هو الكروان الجبلى ذاته - كان الإغريق يطلقون عليه نفس الاسم المستعمل عندهم لمرض اليرقان، لأنه لو نظر إليه شخص مصاب بذلك المرض فارقه مرضه فى الحال ومات الطائر كما أنه يتكلم عن نوع من الأحجار التى كان الناس يعتقدون فى قدرتها على شفاء اليرقان لأن لونها كان يشبه لون جلد المريض به[١] .

ومن أكبر أفضال السحرالتشاكلى أنه يسمح بممارسة العلاج على شخص المطب نفسه بدلا من ممارسته على المريض الذى يعفى بذلك من كل المتاعب والمضايقات، فى الوقت الذى يرى فيه طبيبه المداوى يتلوى من الألم أمام عينيه. من ذلك مثلا أن الفلاحين فى منطقة بيرش Berche بفرنسا يقاسون كثيرا من الفزع بسبب اعتقادهم أن استمرار القيىء لمدة طويلة إنما ينشأ من أن معدة المريض تفلت أو تنفصل من «الخطاف» الذى تتعلق به - حسب تعبيرهم - وبالتالى تسقط إلى أسفل، ولذا فإنهم

---

(١) من الوسائل الشائعة شيوعا كبيرا فى المجتمعات البدائية والتى تستخدم بكثرة فى العلاج محاولة تخليص المريض من مرضه وإزالة الأذى عن طريق المص، بأن يضع الطبيب فمه - أو قد يستخدم لذلك انبوبة من البوص أوغيره - على موضع الوجع ويأخذ فى المص بشدة متظاهرا بأنه يمتص المرض من الجسم، ثم يلفظ من فمه قطعة من الحجر أو من العظام أو حتى بعض الرماد أو قطعة من القراء أو ما إلى ذلك، علامة على أنه أخرج المرض بالفعل من جسم المريض. كذلك تلجأ معظم المجتمعات فى طبها الشعبى إلى علاج الأمراض والاوجاع بوسائل تحمل بعض الخصائص أو صفات المرض ذاته كما هو الحال فى قرى مصر مثلا وبين الفئات غير المتعلمة الذين يعالجون أمراض العيون واحمرارها بوضع قطعة من اللحم الاحمر النيىء على العين لكى(يلقط) ذلك الاحمرار على ما يقولون، وهذا هو السبب أيضا فى ارتداء المريض بالحصبة فى كثير من البلاد العربية ملابس حمراء. فهذه العلاقة بين المريض والدواء تعتبر فى نظر تلك الجماعات من أهم الاسباب التى تؤدى إلى الشفاء.وفى كثير من الاحيان تكون ندرة الدواء الشعبى أوارتفاع ثمنه وصعوبة الحصول عليه هو السر الذى يكمن وراء ايمان الناس فى قدرته على الشفاء وعلى أى حال فالمسألة هنا تعتمد إلى حد كبير على المصادفة البحتة(أ..أ).

يلجئون إلى أحد ممارسى التطبيب لإعادة تعليقها فى مكانها الصحيح، وبمجرد أن يستمع المطبب إلى أعراض المرض يأخذ فى التلوى والتثنى بعنف لكى تنفصل معدته هو نفسه عن خطافها. وحين يتم له ذلك يشرع فى العمل على ردها إلى موضعها الأصلى من جديد. ويقوم لذلك بمزيد من الحركات العنيفة، وأثناء ذلك كله يداخل المريض شعور تدريجى بالراحة والهدوء والسكينة. والأجر على ذلك كله خمسة فرنكات فقط. وحين يلجأ المريض عند الداياك إلى أحد المطببين لعلاجه يلقى المطبب بنفسه على الأرض متظاهرا بالموت. ويعامله الناس بنفس الطريقة التى يعاملون بها الجسد الميت فيلفونه فى حصير ويحملونه إلى بيته حيث يسجونه على الأرض. وبعد ساعة تقريبا يأتى مطبب ليخلصه من أساره ويرده إلى الحياة. والمفروض أنه بينما يسترد المطبب المتماوت حياته يسترد المريض صحته. ويصف لنا المدعو مارسيللوس من مدينة بوردو Marcellus of Bordeau وكان طبيب البلاط أيام ثيودوسيوس الأول Theodosius[1] فى كتابه العجيب عن الطب إحدى الوسائل التى كانت متبعة فى علاج الأورام باستخدام مبدأ السحرالتشاكلى . وتتلخص هذه «الوصفة» فى أن يأخذ المريض أحد جذور نبات رجل الحمام vervain ويقطعه ويعلق أحد الجزئين حول عنق المريض بينما يعرض الجزء الآخر لدخان النار. وبينما يجف النبات فى الدخان يجف الورم إلى أن يختفى تماما. ولكن إذا تنكر المريض بعد ذلك للطبيب فإن من

(١) ويعرف أيضا باسم ثيودوسيوس الأكبر من أهم أباطرة الرومان فى القرن الرابع الميلادى(٣٤٦ ـ ٣٩٥ تقريبا) ويعد حياة حربية حافلة عين امبراطورا للاقاليم الشرقية. ويطلق عليه لقب الاكبر للدور الذى لعبه فى تاريخ الكنيسة المسيحية ونشرها، وفى اضطهاد وإبادة الوثنيين أواجبارهم على الاختفاء والهرب. وحين مات قسمت الامبراطورية الرومانية بين ولديه اركاديوس(أوجسطوس) وهوتوريوس وكان ذلك مقدمة لانقسام الامبراطورية انقساما تاما ودائما(أ.أ)

السهل أن يثأرالطبيب لنفسه بكل براعة وسهولة، إذ يكفى أن يلقى بجذر النبات فى الماء. وبمجرد أن يمتص النبات الرطوبة يعود الورم إلى التضخم من جديد. ويوصى هذا الكاتب الحكيم بأنه اذا ظهرت فى الجسم بعض البثور فليس على المصاب إلا أن يترقب سقوط أحد النجوم من السماء فيمسح فى الحال على تلك البثور بقطعة من القماش أو بأى شيء آخر يكون فى متناول يده فكما يهوى النجم من السماء كذلك سوف تتهاوى البثور عن الجسم. ولكنه يحذر من أن يمسح المريض على البثور بيده العارية وإلا انتقلت إليها. وزيادة على ذلك فإن السحر التشاكلى بخاصة، والسحر التعاطفى بعامة، يلعبان دورا كبيرا فى الإجراءات التى يتخذها قانصو الحيوانات وصيادو السمك عند الشعوب الهمجية لضمان الحصول على قدر وافر من الطعام. فتبعا لمبدأ «الشبيه ينتج الشبيه» يقوم الصياد وأصدقاؤه بكثير من الأعمال التى تهدف عمدا إلى محاكاة النتائج التى يريدون الوصول إليها ، بينما يتجنبون من الناحية الأخرى كثيرا من الأمور التى تشبه من بعض الوجوه الأشياء التى يعتقدون أنها ضارة ومؤذية[1]. ولم تمارس نظرية السحرالتعاطفي فى أى مكان بطريقة منهجية من أجل المحافظة على موارد الطعام بأكثر مما استخدمت فى المناطق المجدبة بوسط استراليا. ففى تلك البقاع تنقسم كل قبيلة إلى عدد من العشائر الطوطمية التى تأخذ كل منها على عاتقها العمل بواسطة الطقوس السحرية على

(١) هذا يفسر العادة التى كان يلجأ إليها الانسان المبكر فى عصور ما قبل التاريخ من رسم صور الحيوانات وقد انغرزت فى أجسامها الحراب أو السهام كما هو الحال فى كهوف العصر الحجرى القديم. إذ يمثل هذه الحيلة كان قانصو الحيوانات يتحكمون فيها مقدما بقصد التمكن من قتلها بالفعل أو على الأقل استدراجها اليهم - (أ٠٠أ).

تكاثر أفراد الطوطم[1] الذى تتبعه من أجل صالح الجماعة المحلية كلها. ومعظم الطواطم هناك عبارة عن حيوانات ونباتات صالحة للأكل. والنتيجة العامة المفروض تحقيقها بهذه الطقوس هى تزويد القبيلة بكل ما تحتاج إليه من طعام وضرورات العيش الأخرى . وتعتمد هذه الشعائر فى الأغلب على محاكاة النتيجة أوالتأثير الذى يتمنى المرء تحقيقه. وبقول آخر فإن السحر الذى يمارسونه هنا هو من الضرب التشاكلى أو سحر المحاكاة. فعند قبيلة الوارامونجا Warramunga مثلا نجد أن زعيم

---

(١) تعتبر مشكلة الطوطمية من أهم وأطرف المشاكل التى عنى بها الانثربولوجيون وقد خصص لها فريزر نفسه كتابه المشهور عن «*الطوطمية*» *والزواج الاغترابى*. ولكن على الرغم من كثرة استخدام الكلية فكثيرا ما يقع الكتاب فى الخطأ فى فهم مدلولها وخصائصها. وكلمة طوطم Totem نفسها مستمدة من كلمة شائعة عن هنود الأجبواى وان كان النظام الاجتماعى الذى يرتبط بها يختلف من مجتمع لآخر مع وجود بعض عناصر أساسية مشتركة. ومع أن الكلمة تشير إلى وجود علاقة معينة بين الانسان والحيوان تستتبع قيام معتقدات وممارسات ذات طابع دينى فليس كل علاقة من هذا النوع تشير إلى وجود النظام الطموطى وأهم خصائص الطوطمية هى:

أ- ارتباط النظام الطوطمى بالتنظيم العشائرى الذى تنقسم فيه كل قبيلة إلى عدد من العشائر المتمايزة .

ب- اعتقاد كل عشيرة بأن افرادها ينحدرون من صلب طوطم معين(هو فى الاغلب فصيلة معينة من الحيوانات وان تكن هناك طواطم نباتية وفى أحيان قليلة طواطم من الجمادات) يكون بمثابة السلف الاول والمؤسس الحقيقى للعشيرة وبذلك يصبح معبودا لهم،

ج – الاعتقاد بوجود روابط دم وقرابة بين جميع *أفراد الطوطم* وهذا يفرض قيودا صارمة على *الزواج* بين افراد الطوطم الواحد الذين يحرم عليهم فى الواقع مثل هذا الزواج، كما ان كل علاقة جنسية بين الذكور والاناث من اعضاء الجماعة الطوطمية تعتبر نوعا من الزنا بالمحارم.

د – تحريم قتل الطوطم أوالاعتداء عليه بأى شكل من الاشكال والا أصاب العشيرة كلها ـ وليس الشخص الجانى وحده ـ الأذى والمرض والموت، ولكن يحق لأفراد العشيرة أن يتناولوا لحم الطوطم فى طعامهم فى مناسبات شعائرية معينة بالذات لاكتساب *الخصائص* المستحبة *التى* يتميز *بها الطوطم*.

هـ- استحالة تغيير الشخص للطوطم الذى يتبعه نظرا لعلاقات الدم القوية بينه وبين طوطمه علاوة على العلاقة العشائرية.

و- العلاقة ليست قائمة بين فرد معين وحيوان معين بالذات (أسد معين أوتمساح معين مثلا) وانما بين العشيرة ككل وجميع افراد فصيلة معينة بالذات من الحيوانات (جميع الاسود أو جميع التماسيح) .

ز – وقوع *التزامات* معينة على جميع *افراد الطوطم الواحد* بضرورة *التماسك والتضامن* حتى وان لم يكن يعرف بعضهم بعضا. فكل شخص ينتمى لطوطم الاسد مثلا يعتبر أخا لجميع الاشخاص الذين ينتمون لذلك الطوطم حتى وان لم تكن بينهم علاقات قرابية فعلية، كما أن هذه العضوية فى الطوطم تنتقل معه من مكان لآخر بحيث تعرف القبائل المختلفة نسب أى شخص والقبيلة التى ينتمى إليها من مجرد معرفتها للطوطم الذى يتبعه ـ (أ..أ).

طوطم طائر الككتوه الأبيض (وهو فرع من الببغاوات) يعمل بكل جهده على الإكثار من هذه الطيور، ولذا فإنه يمسك بيده تمثالا لإحداها ويصيح مقلدا صوتها الأجش الخشن. وعند الأرانتا Arunta يقوم أفراد إحدى العشائر التى تتسمى باسم دودة معينة ببعض الطقوس التى تهدف أيضا إلى الإكثار من هذا النوع من الديدان التى يتغذى عليها بقية أفراد القبيلة. وتتلخص إحدى هذه الطقوس فى تمثيل عملية خروج الحشرة المكتملة النمو من البقعة، ولذا يقام من فروع الشجر هيكل طويل وضيق بحيث يشبه غلاف بقعة هذه الحشرة ويقبع فيه عدد من الناس وهم يرددون بعض الأغانى التى تدور حول المراحل المختلفة التى تمر بها الدودة فى نموها ثم يحاولون بعدها أن يشقوا طريقهم من هذا«الغلاف» مثلما تفعل اليفعة تماما. ويرددون أثناء ذلك الأغانى المتعلقة بهذه العملية والمفروض أن هذه الطقوس تساعد على توالد وتكاثر هذه الديدان. كذلك نجد أنه للإكثار من طائر الإيمو emu الذى يعتبر من أهم عناصر الطعام هناك يرسم أفراد العشيرة التى تتبع ذلك الطوطم المقدس صورة الإيمو على الأرض مع الاهتمام بإبراز الأجزاء التى يفضلون أكلها كالشحم الأبيض، ويجلسون حول هذه الرسوم وهم يغنون وقد وضعوا على رؤوسهم بعض الأقنعة التى تمثل عنق الإيمو الطويل ورأسه الصغير كما يقومون بتقليد ومحاكاة هيئة الطائر وهو واقف يتلفت حوله فى كل مكان بغير هدف واضح.

ويعتمد الهنود الحمر فى كلومبيا البريطانية إلى حد كبير فى معاشهم على السمك الذى يتوفر فى البحار والأنهار هناك. فإذا لم يأت السمك فى موسمه المعتاد وقاسى الهنود من الجوع قام أحد سحرة نوتكا Notka بصنع تمثال على هيئةِ سمكة سابحة وألقى بها فى الماء فى الاتجاه الذى يأتى منه السمك فى العادة، على أمل أن يجذب ذلك العمل الذى تصاحبه بعض الصلوات السمك فى الحال. ويصنع سكان جزر

مضايق توريس نماذج السمك الأطوم dugong والسلاحف المائية ويتخذون منها تعاويذ سحرية لجذب هذه الأنواع من الأسماك، كما أن التورادجاToradjas الذين يعيشون فى سيليبيز الوسطى يعتقدون أن الأشياء التى من نفس النوع تجذب بعضها بعضا بفعل الأرواح (أو الأثير الحيوى) التى تسكن فيها، ولذا فإنهم يعلقون عظام فك الغزلان والخنازير البرية فى بيوتهم حتى تتمكن الأرواح التى تسكن تلك العظام من أن توجه الكائنات الحية المماثلة إلى الطريق الذى يسلكه الصيادون وفى جزيرة نياس Nias حين يسقط خنزير برى فى الحفرة التى أعدت لقنصه فإن الناس يرفعونه من الحفرة ثم يحكون ظهره بتسع ورقات من أوراق الشجر المتساقطة على الأرض اعتقادا منهم أن ذلك كفيل بأن يدفع تسعة خنازير برية أخرى للسقوط فى الحفرة ذاتها مثلما سقطت تلك الأوراق التسعة من الشجرة. وفى جزر ساباروبا Sa-paroia وهاروبكوى Hariekoe ونويسا لاوت Noessa Laut وهى كلها من جزر الهند الشرقية، نجد أنه حين يشرع الصياد فى إلقاء شباكه لصيد السمك فى البحر يبحث أولا عن شجرة تكون ثمارها قد تعرضت لنقر الطيور بكثرة فيقطع أحد أغصانها القوية ويصنع منه العمود الرئيسى لمصيدة السمك، على أمل أن يجذب ذلك الغصن سمكا كثيرا إلى المصيدة مثلما أفلحت الشجرة ذاتها فى جذب كل تلك الطيور إلى ثمارها.

وتستعين القبائل الغربية فى غينيا البريطانية الجديدة بتعويذة معينة فى صيد أسماك الأطوم والسلاحف البحرية بالحراب. إذ يضعون إحدى الحشرات الطفيلية الصغيرة التى تغزو أشجار جوز الهند فى الثقب الذى يثبتون فيه رأس الحربة إلى القناة على زعم أن ذلك يساعد على اختراق رأس الحربة بقوة جسم الأطوم أوالسلحفاة والتصاقها بها مثلما تلتصق تلك الحشرة الطفيلية بجلد الإنسان حين

تعضه. وحين ينشر الصياد فى كمبوديا شباكه ويمر وقت طويل دون أن يقع فيها أى صيد فإنه ينضو عنه كل ملابسه ويبتعد بعض الشىء عن تلك الشباك ثم يأخذ فى القفز نحوها كما لو لم يكن يراها حتى يقع فيه فيصرخ: «ما هذا ؟ يبدو أننى قد وقعت فى المصيدة.» ومن المؤكد أن الشبكة سوف تمسك بعد ذلك بالصيد. وقد كان الأسكتلنديون فى المناطق المرتفعة يقومون بتمثيل هذه العمليات حتى عهد قريب جدا. ويذكر لنا الأب جيمس ماكدونالد James Macdonald الذى يعيش فى رياى Reay بمنطقة كيتنس Caithness أنه حين كان يخرج فى صباه مع أصدقائه لصيد السمك فى منطقة لوخ آلين Loch Aline ويمر وقت طويل دون أن يحصلوا على شىء من الصيد فإنهم كانوا يتظاهرون بإلقاء أحدهم من القارب فى الماء ثم ينتشلونه منه كما لو كان سمكة وأنه لم يكن يمر وقت طويل على ذلك حتى يأخذ السمك فى التهافت على الطعم سواء أكان القارب يسير فى النهر أو البحر. وحين كان الرجل عند هنود كاريير Carrier Indians يفكر فى الخروج لصيد الدلق أوالسنسار(وهو حيوان من اللواحم) بالشباك فإنه كان ينام وحيدا منفردا حوالى عشرة أيام بجوار النار وقد ثبت قطعة صغيرة من الخشب حول عنقه بحيث تضغط عليه إيمانا منه بأن ذلك سيجعل لسان المصيدة الخشبى يطبق على عنق الفريسة وعند الجاليلاريز Galela-reese الذين يعيشون فى الجزء الشمالى من هالماهيرا Halmahera وهى جزيرة كبيرة تقع إلى الغرب من غينيا الجديدة، يحرص الناس حين يضعون الرصاص فى بنادقهم استعدادا للخروج للقنص على أن يضعوا كل رصاصة فى أفواههم أولا ثم توضع فى البندقية بعد ذلك، وبذلك يكونون قد ضمنوا من الناحية العملية أنهم سيأكلون لحم الفريسة التى سوف تصيبها تلك الرصاصة وبالتالى فلا يمكن للرصاصة أن تطيش أوتخطىء الهدف. كذلك يحرص الرجل فى الملايو - بعد أن

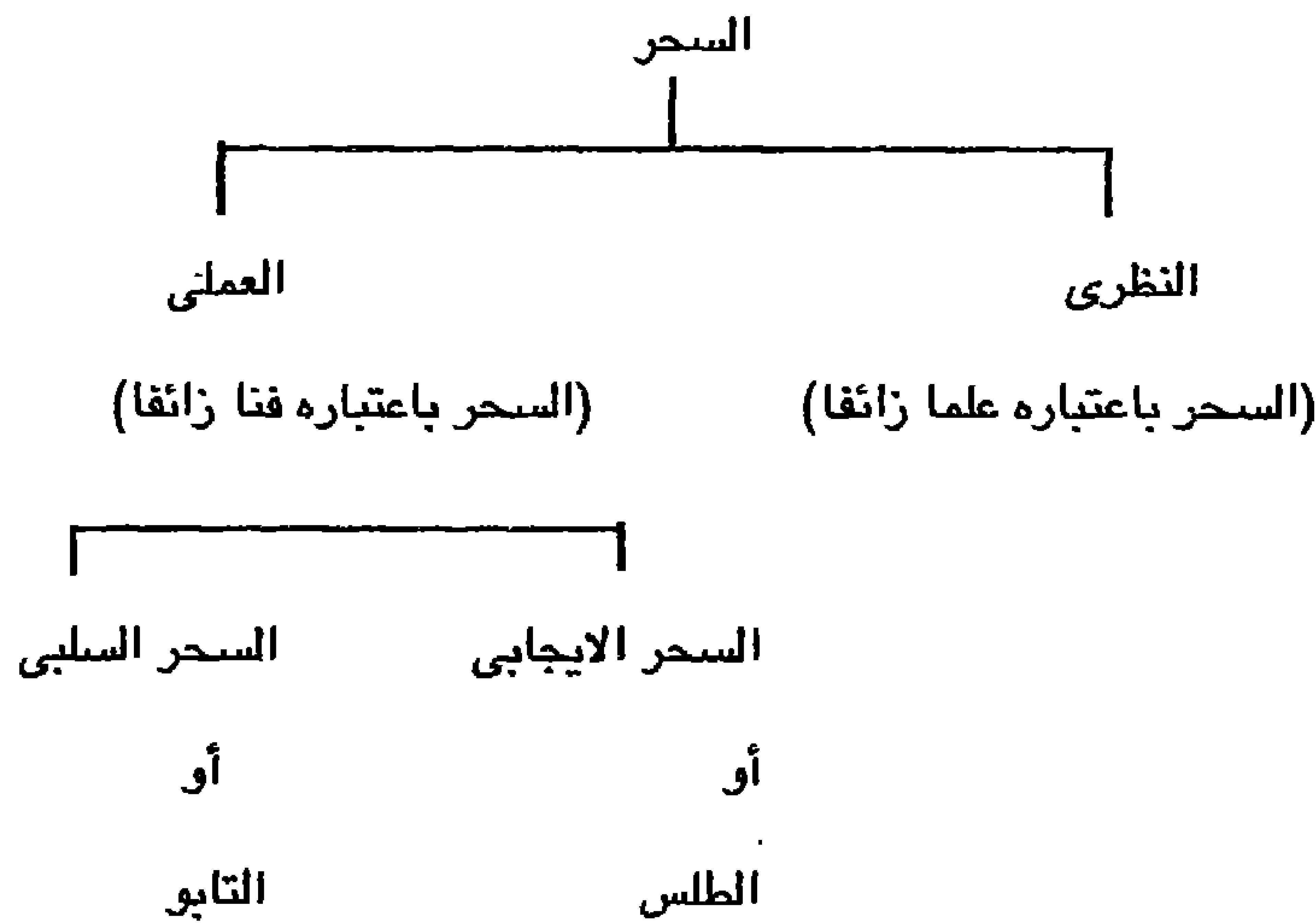
يضع الطعم فى الفخ لصيد التماسيح ويقف مترقبا النتيجة على أن يبدأ طعامه بابتلاع ثلاث حفنات من الأرز الواحدة تلو الأخرى قبل أن يشرع فى تناول «الكارى curry » لأن ذلك يساعد الطعم على الانزلاق بسهولة ويسر فى حلق التمساح. ويحذر الصياد أثناء طعامه من أن يتناول أية قطعة من العظام لأنه لوفعل ذلك فسوف تنفصل قطعة الخشب المدببة التى يثبت إليها الطعم مثلما يفصل العظم عن اللحم وبذلك يتمكن التمساح من الهرب بالطعم. ومن هنا كان الصياد يجد من الحكمة فى مثل هذه الأحوال أن يطلب إلى شخص آخر أن يرفع العظام من طعامه قبل أن يشرع هو نفسه فى الأكل حتى لا يجد نفسه مضطرا فى لحظة من اللحظات إلى أن يختار بين أن يبتلع قطعة من العظم أو أن يفقد التمساح.

وهذه العادة الأخيرة مثل للأشياء التى يتجنب الصياد فعلها خشية أن تؤدى إلى الوقوع فى المحظور تبعا لمبدأ «الشبيه ينتج الشبيه» ولابد من أن نلاحظ هنا أن نسق السحر التعاطفى لا يتألف من قواعد إيجابية فقط وإنما يضم أيضا عددا كبيرا جدا من القواعد والتعاليم السلبية أوالتحريمات فهو لا يحدد للإنسان ما يفعله فحسب بل أيضا ما يتحتم عليه تركه أواجتنابه فالقواعد الإيجابية هى التعاويذ أو الطقوس، والقواعد السلبية هى التحريمات أو التابو[1] والواقع أن نظرية التابو، أو جزءا كبيرا

(١) «التابو» كلمة بولينيزية اكتشفها لأول مرة الرحالة الشهير الكابتن جيمس كوك James Cook أثناء رحلته الثالثة حول العالم وذلك عام ١٧٧ ونظرا لصعوبة ترجمتها ترجمة دقيقة فقد ادخلت الكلمة ذاتها فى الكتابات الانثربولوجية والاجتماعية واصبحت من المصطلحات العلمية المقبولة فى جميع اللغات والمقصود بالتابو على العموم الأشياء المقدسة التى لا يخطر على الناس الاقتراب منها خشية تدنيسها مما يعرض الشخص نفسه للخطر وللدناسة الشعائرية. ويرى فرويد Freud فى كتاب عن الطوطم والتابو أن أقرب ترجمة للكلمة هى الخوف المقدس لأنها تجمع بين خاصية القداسة التى تتمتع بها الأشياء التى تعتبر (تابو) وبين التحريمات والقيود التى تفرض على الناس ازاء هذه الأشياء ذاتها. وتختلف قيود التابو عن القيود الرتيبة فى أنها لا تصدر عن أمر الهى ولكن الناس أنفسهم يفرضونها بأنفسهم على أنفسهم، كما تختلف عن النواهى الأخلاقية فى أنها لا تدخل ضمن نظام متماسك يبرر لنا هذه التحريمات ويبين أسبابها وأصلها، ولذا فإن قواعد التحريم فى التابو تقبل على علاتها كأمر لا مفر منه. ويعتقد بعض الانثربولوجيين ان التابو هو أقدم قانون غير مكتوب للجنس البشرى بل إنه وجد نقبل أن يعرف الانسان الدين والآلهة. وتحريمات التابو تحريمات قاطعة ولذا فإن خرق التابو يستتبع بالضرورة توقيع العقوبة على كل من يخرقه. وكثيرا ما تتم العقوبة بطريقة آلية، أى أن التابو يحمل العقوبة والجزاء ضمنيا، وإن كانت هناك حالات يتولى المجتمع ذاته توقيع العقوبة على المعتدى وحده وإنما بالمجتمع ككل وجعله هو نفسه «تابو» أى مصدر للأذى لأن للتابو القدرة على الانتقال من شىء لآخر أو من شخص لآخر(أ..أ).

منها على الأقل ، هى مجرد تطبيق خاص للسحر التعاطفى بقانونيه الرئيسيين، قانون التشابه وقانون الاتصال، ومع أن الرجل الهمجى لايعبر عن هذين القانونين فى صيغ دقيقة محكمة أو حتى يتصورهما بطريقة مجردة فإنه يعتقد مع ذلك - وبطريقة ضمنية - أنهما ينظمان سير الطبيعة بدون أى تدخل من جانب الإرادة الإنسانية. فهو يعتقد أنه إذا تصرف بطريقة معينة فسوف يترتب على عمله بالضرورة نتائج معينة بالذات تبعا لأحد هذين القانونين. ولو خيل إليه أن النتائج المترتبة على فعل معين بالذات قد تؤدى إلى الإضرار به فإنه يحرص بالطبع على ألا يفعلها بتلك الطريقة حتى لا يتسبب فى ظهور تلك النتائج الضارة. وبقول آخر،فإن الرجل الهمجى يمتنع عن فعل الأشياء التى يتصور خطأ - تبعا لتصوراته الخاطئة عن العلة والمعلول - أنها سوف تؤذيه وبذلك يخضع نفسه للتابو، ومن هذه الناحية يعتبر التابو تطبيقا سلبيا للسحر العملى، وبينما يقول السحر الإيجابى أوالطلسم افعل كذا لكى يحدث كذا يقول السحرالسلبى أوالتابو لا تفعل كذا حتى لا يحدث كذا وبينما يهدف السحر السلبى أو التابو إلى تجنب شىء مرغوب عنه. ومع ذلك فإن كلا النتيجتين - أي المرغوب فيها والمرغوب عنها - تحدثان تبعا لقانونى التشابه والاتصال. وكما أن النتيجة المرغوب فيها لا تتأثر فى الحقيقة والواقع بمراعاة الطقوس السحرية كذلك النتيجة المكروهة أوالمرهوبة لاتنتج فى الحقيقة والواقع من خرق التابو وإذا كان الشىء المفترض حدوثه ينتج بالضرورة منخرق التابو فإن التابو لا يصبح مجرد تحريم وإنما يصبح أحد القواعد الأخلاقية أو قواعد الإدراك السليمة. فليس من التابو أن نقول «لا تضع يدك فى النار» وإنما هذه قاعدة من قواعد الإدراك السليم، لأن الفعل المنهى عنه يؤدى إلى أذى متخيل أو متوهم. وبالجملة فإن هذه القواعد السلبية التى نسميها «تابو» أشياء عديمة النفع والجدوى

تماما مثل القواعد الإيجابية التي نسميها طاوس. وكل ما في الأمر هو أن الاثنين يمثلان ناحيتين متقابلتين أو قطبين لأغلوطة كبيرة مفجعة، أولتصور خاطىء لترابط المعاني. فالطلس هوالقطب الموجب في هذه الأغلوطة، بينما يؤلف التابو القطب السالب. ولو أطلقنا كلمة «سحر» بشكل عام على ذلك النسق الخاطىء بجانبيه النظري والعملي لأمكن تعريف التابو بأنه هو الجانب السلبي للسحر العملي ويمكن التعبير عن ذلك في الشكل التالي:



ولقد ذكرت هذه الملاحظات عن التابو وعلاقاته بالسحر لأنني سوف أضرب بعض الأمثلة عن القيود والتحريمات التي يراعيها قانصو الحيوانات أو صائدو السمك وغيرهم. ولذا أردت أن أبين أنها تندرج كلها تحت عنوان «السحر التعاطفي» على اعتبار أنها تؤلف حالات من النظريات العامة. فالإسكيمو مثلا يحرمون على زطفالهم أن يلعبوا اللعبة المعروفة باسم «مهد القط» لأن ذلك سيؤدي بهم إلى أن تشتبك أصابعهم بخيط حربة صيد السمك حين يكبرون ويخرجون للصيد. وواضح أن التابو هنا ناشىء عن تطبيق التشابه الذي هو أساس السحر التشاكلي. فكما أن

الطفل يشبك أصابعه بالخيط حين يلعب «مهد القط» كذلك سوف تشتبك أصابعه فى خيط الحربة حين يصبح رجلا ويخرج لصيد الحيتان وعند الهوزل Huzul فى جبال كرابات تمتنع زوجة الصياد عن الغزل حين يخرج زوجها للقنص حتى لا تأخذ الفريسة فى اللف والدوران حول نفسها مثل المغزل فيعجز الصياد عن إصابتها . وهنا أيضا نجد أنالتابو مستمد من قانون التشابه. ولقد كان من المحرم على المرأة فى معظم أنحاء إيطاليا بحكم القانون أن تغزل وهى سائرة فى الطريق الرئيسى أو حتى أن تحمل مغزلها مكشوف للأبصار فقد كان مثل ذلك ئحمل خليقا بإتلاف المحصولات. وربما كانت الفكرة وراء ذلك هى أن دوران المغزل قد يؤدى إلى التفاف سيقان الحنطة بعضها ببعض فلا تنمو مستقيمة. كذلك كانت المرأة الحامل عند الاينو Ainos[1] وفى سخالين تمتنع عن الغزل وعن لف الحبال لمدة شهرين قبل الولادة جتى لا تتشابك (مصارين) الطفل وتتعقد مثلما يتعقد الخيط، وهذا هو السبب أيضا فى أنه حين يجتمع مجلس الرؤوساء فى إحدى القرى بإقليم بيلاسبور Bilas-pore فى الهند يمتنع الناس عن إدارة مغازلهم خشية أن تدور المناقشات مثلما يدور المغزل دون أن تنتهى إلى قرار أخير. وفى بعض جزر الهند الغربية يتحتم على المرء حين يأتى إلى بيت أحد قانصى الحيوانات أن يدخل مباشرة وهو منتصب القامة دون

(١) الاينو هم السكان القدامى للنصف الشمالى - على الأقل - من اليابان والكلمة ذاتها تعنى «الرجال» ولكن اليابانيين الحاليين يطلقون عليهم اسم ايبيسو أو يميشى وعلى الرغم من كل ما بدله اليابانيون للقضاء على هذا العنصر الأصلى للسكان فقد أبدى الاينو كثيرا من المقاومة خلال السنوات الألف الماضية ولا تزال بعض سماتهم تظهر فى الخصائص الفيزيقية لبعض السكان. فالإينو على العموم أطول من اليابانيين كما أن ملامح وجوههم اكثر انتظاما. ويشتغل الاينو بصيد السمك وقنص الحيوان كما انهم لا يزالون يقدسون الدبة ويقيمون بعض الشعائر السنوية والاحتفالات الطقوسية لعبادته ويؤلف الاينو على العموم أقلية ضئيلة الآن فى اليابان حيث يقل عددهم عن عشرين ألف نسمة (أ..أ).

أن يتلكأ أمام الباب، لأن التلكؤ والتردد كفيلان بجعل الفريسة تتردد بالمثل أمام فخاخ الصياد ثم تعود أدراجها بدلا من أن تقع فى الفخ. ولعل هذا أيضا هو سبب تلك القاعدة السائدة عند التورادچا فى وسط سيليبيز والتى تحرم الوقوف أوحتى التمهل على سلم البيت الذى توجد فيه امرأة حامل لأن ذلك يؤخر ولادة الطفل، كما أنه فى كثير من مناطق سومطرة يحرم على المرأة الحامل نفسها أن تقف عند الباب أو أعلى درجات السلم فى البيت خشية أن تقاسى من آلام الوضع نتيجة لسوء تصرفها واغضائها عن هذا الإجراء الوقائى البسيط. وحين يشرع سكان الملايو فى جمع الكافور فإنهم يكتفون بتناول الطعام الجاف ويحرصون أشد الحرص على الامتناع عن طحن الملح ناعما وذلك لأن الكافور يظهر فى شكل حبيبات صغيرة داخل التشققات فى جذع شجر الكافور . ومن هنا يبدو من المنطقى للملاويين أنهم إذا أكلوا الملح مطحونا طحنا دقيقا فلن يجدوا إلا ذرات دقيقة جدا من الكافور بينما تناول الملح فى شكل بلورات كبيرة يضمن لهم العثور على بلورات كبيرة أيضا من الكافور. .. وفى بورنيو يستعمل الباحثون عن الكافور الغلاف السميك الذى يغطى فروع نخيل البينانج Penang كصحاف يتناولون عليها طعامهم ويمتنعون أثناء الرحلة كلها عن غسل هذه الصحاف خشية أن يذوب الكافور كله ويختفى من الفجوات والتشققات فى جذع الشجرة والظاهر أنهم يعتقدون أن غسل الأطباق يؤدى إلى زوال بلورات الكافور من الأشجار التى تفرزه ويعتبر «اللاك» المحصول الرئيسى فى بعض أجزاء لاوس، وهى إحدى مقاطعات سيام واللاك هو نوع من الصمغ الراتينجى الذى تفرزه حشرة حمراء على فروع الأشجار الصغيرة. ويقوم الناس أنفسهم بتثبيت تلك الحشرات الصغيرة بأيديهم على الشجرة، ويمتنع كل الذين يشتغلون فى جمع اللاك عن الاستحمام وبخاصة عن غسل رؤوسهم وتنظيفها

خشية أن تؤدى إزالة الطفيليات العالقة بشعرهم إلى انفصال تلك الحشرات الحمراء وسقوطها عن فروع الشجرة. وحين ينصب الرجل عند هنود البلاكفوت الشراك لصيد النسور ويقبع لمراقبتها فإنه يمتنع تماما عن أكل براعم الورد لأنه لو فعل ذلك وحط النسر إلى جوار الشرك فإن البراعم داخل معدة الصياد سوف تجعل الطير يشعر بالأكال فى جسمه، وبدلا من أن يقبل على الطعم يتوقف لكى يحك جسمه وتبعاً لهذاالنمط من التفكير يمتنع صائد النسور أيضا عن استخدام المخراز أوالمثقاب أثناء مراقبته للشراك لأنه يدرك أنه لو خدش جسمه فسوف ينال النسر منه ويجرحه بالمثل بل إن ذلك خليق بأن يحدث إذا استعملت زوجته وأطفاله المخراز أثناء تعقبه هو للنسور، ولذا يحرم عليهم جميعا استخدام تلك الأداة أثناء غيابه حتى لا يتعرض للأذى والخطر.

وربما كان أكثر التابوات انتشارا عند الجماعات الهمجية - وأهمها فى الوقت ذاته - هى تلك التحريمات التى تفرض على تناول أنواع معينة من الطعام. والواقع أن كثيرا من هذه التحريمات مستمد عمليا من قانون التشابه، ولذا تعتبر أمثلة جيدة للسحر السلبى فكما يقبل الرجل الهمجى على أكل كثير من الحيوانات والنباتات لكى يكتسب منها بعض الصفات المرغوبة التى يعتقد أنها متأصلة فيها[1] كذلك

(١) قد تلقى هذه الاعتقادات مزيدا من الضوء على النظام الطوطمى الذى سبقت الإشارة إليه اذ الواقع ان اختيار العشيرة لنوع معين من الحيوانات مثلا ليكون طوطما لها تنتسب إليه وتعتقد أنها انحدرت منه إنما يتوقف إلى حد كبير جدا على الخصائص الأصيلة لهذا الطوطم ومدى رغبة افراد العشيرة فى اكتساب هذه الخصائص والصفات نظرا لأنها تتلاءم مع الظروف العامة التى تحيط بالعشيرة بالاضافة إلى وجود هذا الطوطم فى البيئة المحيطة بالمجتمع. ومن هنا كنا نجد القبائل التى تعيش على الحروب والاغارات والقنص تتخذ فى العادة طواطم لها من الاسود نظرا لشجاعتها وجرأتها فى الهجوم أو من الثعالب نظرا لقدرتها على المراوغة وعلى مفاجأة فريستها(أ..أ).

يتجنب تناول بعض الأنواع الأخرى من الحيوان والنبات لكيلا تنتقل إليه منها الخصائص غيرالمرغوبة التى يعتقد أنها كامنة أيضا فيها. فحين يتناول الفئة الأولى من الطعام فإنه يمارس السحر الإيجابى، بينما هو يمارس السحر السلبى حين يمتنع عن تناول الفئة الثانية من الطعام. وسوف نذكر كثيرا من الأمثلة عن السحر الايجابى فيما بعد، ولذا فإننى أكتفى هنا بالاشارة إلى بعض حالات السحر السلبى أو التابو. فمن المعلوم مثلا أنه يحرم على المحاربين فى مدغشقر تناول أنواع معينة بالذات من الطعام خشية أن تنتقل إليهم - تبعا للسحر التشاكلى - بعض الصفات الضارة أو المكروهة التى يعتقد الناس أنها متأصلة فى تلك الأطعمة. فهم يحرمون عليهم مثلا أكل لحم القنافذ «لأن القنفذ يميل بطبيعته إلى الإنطواء والإلتفاف على نفسه على هيئة الكرة حين يداخله الرعب، ولذا فإنهم يخشون أن ينقل إلى الجنود الذين يأكلون لحمه ذلك الميل إلى الإنكماش والهلع. كما يحرمون عليهم أيضا أكل ركبة الثور حتى لا تضعف ركبتا المحارب وتصبحان مثل ركبتى الثور فلايقوى على المشى الطويل ويمتنع الأبطال المحاربون أيضا عن أكل لحم الديك الذى ينفق أثناء العراك مع ديك آخر أو لحم أى حيوان آخر يموت مطعونا بالحراب، كما يحرص الناس على عدم ذبح حيوان ذكر فى بيت المحاربين أثناء اشتراكهم فى الحرب، إذ الواضح أن أكل لحم الديك الذى يموت وهو يتعارك مع غيره قد يؤدى إلى موت المحارب نفسه فى ميدان القتال، كما أن أكل لحم الحيوان الذى يقتل مطعونا قد يستتبع موت المحارب نفسه بالطريقة ذاتها، بينما ذبح أى حيوان فى بيت المحارب أثناء غيابه قد يترتب عليه ذبحه هو بنفس الطريقة بل وربما فى نفس اللحظة. ومن ناحية أخرى فإنه يتحتم على الجنود فى مدغشقر أن يأكلوا الكلى لأن الكلمة المستخدمة للكلية فى لغتهم تستخدم أيضا لطلقة الرصاص، وعلى ذلك فإن المحارب

يصبح قويا قاتلا كالطلقة حين يأكل الكلى.

وربما يكون القارىء قد لاحظ أن بعض الأمثلة السابقة عن التابو تفترض أن مفعول السحر يسرى ويمتد إلى مسافات بعيدة (١)

وأن هذا هو السبب فى أن هنود البلاكفوت مثلا يحرمون على زوجات وأطفال صيادى النسور استخدام المثاقيب أثناء غيابهم حتى لا يجرح النسر الزوج أو الأب الغائب البعيد، وأن الناس فى مدغشقر يحرمون ذبح الذكور من الحيوانات فى بيوت الجنود أثناء وجودهم فى الحرب حتى لا يترتب على قتل الحيوان قتل الرجل نفسه. ويعتبر هذا الاعتقاد فى انتقال التأثير من شخص لآخر أو من شىء لآخر رغم بعد المسافة من أهم مبادىء السحر التعاطفى. وإذا كان العلم يثير كثيرا من الشكوك حول إمكان التأثير من مسافة كبيرة فإن السحر لا يعرف مثل هذه الشكوك. فالإيمان بالتأثير عن بعد (التلباثى telepathy) يعتبر أحد المبادىء العامة فى السحر. ولن يجد أى شخص فى مجتمعنا الحديث يؤمن بفكرة إمكان تأثير العقول بعضها فى بعض من بعد أية صعوبة فى إقناع الرجل الهمجى بهذه الفكرة لأن الرجل الهمجى نفسه يؤمن بها منذ عهد بعيد، بل إنه يتصرف فعلا حسب ذلك الاعتقاد بنوع من الاطراد المنطقى لا نجده - بقدر ما اعلم - فى سلوك الرجل

(١)انتبه ايفانز بريتشارد فى كتابه عن «الشعوذة والكهانة والسحر عند الازاندى Witcheraft, Oracles and Magic Among the Azande لهذه الخاصية ويعتبر ذلك الكتاب من أفضل الكتابات الانثربولوجية الحديثة التى تعالج موضوع السحر فى مجتمع محدد بالذات. وقد تبين للمؤلف أن السحر يستطيع أن يتتبع فريسته حتى يؤذيه أو يقتله بصرف النظر عن المسافة التى تفصل بين الساحر والضحية وحتى اذا لم يكن الشخص المقصود بالسحر معروفا للسأحر معرفة شخصية، أى أن للسحر القدرة على البحث عن فريسته أيضا. بل أن العين الشريرة والشعوذة نفس الخاصية ونفس الأثر. وكثيرا ما يخفق السحر فى الوصول إلى التعرف على هدفه نتيجة لخطأ الساحر نفسه وليس لقصور فى السحر ذاته، وهنا يرتد السحر إلى صدر الساحر فيقتله، إذ لابد للسحر من أن يحقق هدفه بشكل ما (أ..أ).

المتحضر الذى يشاركه ذلك الاعتقاد، ذلك أن الرجل الهمجى لا يعتقد أن الطقوس السحرية تؤثر فى الأشخاص والأشياء من بعد فحسب، بل إنه يذهب إلى حد القول بأن الأفعال البسيطة العادية التى تحدث فى الحياة اليومية كثيرا ما يكون لها نفس القوة ونفس المفعول، ومن هنا كان سلوك وتصرفات الأصدقاء والأقارب الذين يعيشون بعيدا بعضهم عن بعض تخضع فى أحيان كثيرة - وبخاصة فى المناسبات الهامة - لقوانين دقيقة محكمة وقواعد مفصلة بحيث إن إغفالها أو الخروج عليها من أى فريق من الأقارب يؤدى إلى إلحاق الأذى بالفريق الآخر الغائب أو حتى إلى موت أحد أفراده ويتمثل هذا بوضوح فى حالة خروج جماعة من الرجال للقنص أو للحرب، إذ ينتظر فى الأغلب من ذويهم فى القرية أن يقوموا بأداء أشياء معينة ويمتنعوا عن أشياء أخرى لتأمين سلامة الصيادين والمحاربين البعيدين ونجاحهم فى مهمتهم. وسوف أذكر هنا بعض الأمثلة الخاصة بهذا النوع من التلباثى فى مظهريه الإيجابى والسلبى.

ففى لاوس، حين يخرج الرجل لصيد الفيلة يحذر زوجته من أن تقص شعرها أو أن تدهن جسمها بالدهون أثناء غيابه،لأن قص الشعر يساعد الفيل على تحطيم الشباك وهدم الفخاخ التى ينصبها له، بينما يساعده دهن الجسم على الإفلات من الفخ بسهولة. كذلك حين يخرج الصيادون من إحدى قرى الداياك لصيد الخنازير البرية فى الأدغال يمتنع بقية سكان القرية عن لمس الزيت أو الماء بأيديهم أثناء تغيب زملائهم حتى لا تصبح أيدى الصيادين رخوة ولزجة فتفلت الفريسة منهم بسهولة.

ويعتقد صيادو الفيلة فى شرق إفريقيا أن خيانة الزوجة لزوجها الغائب يزود الفيل بقوة هائلة تمكنه من التغلب على الشخص الذى يطارده فيقتله أوعلى الأقل يصيبه بجراح خطيرة، ولذا فإن الصياد هناك يترك الصيد إن سمع عن اعوجاج

زوجته ويقفل راجعا إلى القرية. وحين يفشل الصياد عند الواجوجو wagogo أو حين يهاجمه أسد مثلا فإنه يرد ذلك إلى سوء سلوك زوجته فى القرية فيعود إليها وهو فى أشد حالات الحنق والغضب. ولذا كانت المرأة هناك ترفض أن يمر رجل خلف ظهرها بعد أن يخرج زوجها للصيد. أو حتى أن يقف أمامها بينما تكون هى جالسة. كما تحرص على أن ترقد على وجهها حين تذهب للنوم. وكان هنود الماكسو فى بوليفيا يعتقدون أنه إذا خانت الزوجة زوجها أثناء غيابه فسوف يتعرض لعض الأفاعى والياغور Jaguar ، ولذا فإن وقوع مثل هذا الحادث له يؤدى بالضرورة إلى توقيع العقوبة على المرأة بصرف النظر عما إذا كانت بريئة أو مذنبة وغالبا ما تصل العقوبة إلى حد الموت. وأخيرا فإن الصيادين فى ألوسيا يعتقدون أنه من الصعب على الرجل أن يصطاد أحد قنادس الماء إذا خانته زوجته أو فقدت أخته عفتها أثناء غيابه.

وينظر هنود الهويتشول Huichol فى المكسيك بكثير من التقديس والاحترام إلى إحدى عائلات الصبار التى تسبب الغيبوبة لمن يأكلها ولا ينمو هذا النوع من الصبار فى المنطقة التى يعيش فيها الهويتشول، وإنما يخرج الرجال كل سنة لجلبه، ويقطعون من أجل ذلك رحلة طويلة تستغرق ثلاثة وأربعين يوما. وفى خلال هذه الفترة تعمل النساء كل ما فى وسعهن لتأمين سلامة أزواجهن الغائبين فيمتنعن مثلا عن المشى بسرعة فضلا عن الجرى أثناء سفر الرجال، كما يقمن بأداء كثير من الأعمال التى تساعد على تحقيق الآمال والأمانى التى يرجون حدوثها بعد عودة البعثة المقدسة. وتتمثل تلك الآمال والأمانى فى سقوط الأمطار ووفرة المحصولات.

وبناء على ذلك يخضع النساء أنفسهن لنفس القيود الصارمة التى يخضع لهاالأزواج مثل الامتناع عن الاستحمام طيلة الفترة التى تنقضى قبل الاحتفال بعيد الصبار إلا فى بعض المناسبات المعينة. والاكتفاء فى هذه الحالة باستخدام الماء الذى

يجلبه الرجال معهم من نفس المنطقة النائية التى ينمو فيها ذلك النبات المقدس والإكثار من الصيام والامتناع عن تناول الملح مع الطعام والتمسك بحياة الزهد والتقشف. ويستوى الرجل والمرأة فى ذلك معتقدين أن من يخرق هذا القانون سوف يلقى جزاءه فى شكل المرض، فضلا عن تعريض الأهداف التي يعمل الجميع لتحقيقها إلى الفشل. فالصحة وحسن الطالع وطول الحياة إنما تكتسب جميعا عن طريق جمع الصبار الذى يعتبر فى نظرهم الكأس الخاص بإله النار. وكما أنه لا يستطيع أن يفيد من النار الصافية إلا من صفت نفوسهم وسرائرهم كذلك يتعين على الناس من كلا الجنسين التمسك بأهداب الفضيلة والمحافظة على العفة والشرف أثناء تلك الفترة المعينة بالذات، بل ويتحتم عليهم أيضا أن يطهروا أنفسهم من شوائب الذنوب التى ارتكبوها فى الماضى. ولتحقيق ذلك تتجمع النساء بعد سفر الرجال بأربعة أيام أمام النار التى تعتبر بمثابة الحد الأعلى للجميع وتعترف كل واحدة منهن لها بأسماء جميع الرجال الذين وقعت فى حبهم منذ طفولتها حتى اللحظة الراهنة دون أن تغفل اسم أى شخص على الإطلاق حتى لايفشل الرجال فى الحصول على الصبار . ولكى تحتفظ المرأة فى ذاكرتها بأسماء فجميع عشاقها فإنها تحتفظ دائما بخيط طويل تعقد فيه عقدة واحدة لكل عشيق وتحمل هذا الخيط معها إلى المعبد وتقف أمام النار وتعلن بصوت مرتفع عن أسماء الرجال الذين سجلتهم على ذلك الخيط واحدا بعد الآخر، ثم تلقى بالخيط فى النار بعد أن تنتهى من ذلك الاعتراف. وحين يلتهم لإزالة الخيط فى لهيبه الصافى تكون ذنوبها قد غسلت تماما فتترك المكان فى أمن وسلام ودعة. ومنذ تلك اللحظة تأبى المرأة السماح لأى رجل حتى بمجرد المرور بالقرب منها. ويقوم الباحثون عن الصبار بشعائر مماثلة تهدف إلى غسل صدورهم من كل أسباب الضعف والوهن، فيعقدون لكل هفوة أو معصية ارتكبوها عقدة فى خيط . وبعد أن يدلوا باعترافهم إلى الرياح الخمسة يسلمون «مسبحة» ذنوبهم وآثامهم إلى قائد الرحلة فيحرقها فى النار.

وثمة اعتقاد راسخ عند كثير من قبائل ساروواك Sarawak فى أن ارتكاب الزوجة لجريمة الزنا أثناء انشغال زوجها بالبحث عن الكافور فى الغابة يؤدى إلى تبخر الكافور الذى يحصل الزوج عليه. ويستطيع الرجل أن يكتف خيانة زوجته عن طريق بعض العقد التى تظهر على جذع الشجرة . ويقال إنه كثيرا ما كان الرجال الغيورون يقتلون زوجاتهم فى الماضى دون أن يكون لديهم دليل على الخيانة أفضل من وجود تلك العقد. ومن ناحية أخرى، فإن الزوجة تمتنع تماما عن تمشيط شعرها أثناء قيام زوجها بجمع الكافور خشية أن تخلو الفجوات التى تتخلل أنياف الشجرة من بلورات الكافور الثمينة بدلا من أن تمتلىء بها، مثلما توجد مسافات خالية تفصل بين أسنان المشط. وفى جزر كاى kei الواقعة إلى الجنوب الغربى من غينيا الجديدة نجد أنه بمجرد أن يبدأ أحد القوارب فى الإبحار إلى إحدى الموانى البعيدة يغطى المكان الذى كان القارب يرسو فيه إلى الشاطىء بفروع النخيل ويعتبر مكانًا مقدسا(١) فلا يسمح لإنسان بعد ذلك بالمرور فيه حتى يعود القارب من رحلته وإلا تعرض القارب ذاته للدمار والأكثر من ذلك أن الناس هناك يختارون ثلاث أو أربع فتيات صغيرات للقيام بعملية الاتصال التعاطفى مع بحارة القارب طيلة الفترة التى تستغرقها الرحلة، ويعتبر سلوكهن ضمانا لسلامة الرحلة ونجاحها. وأثناء هذه الفترة لا يسمح لهن بمغادرة الحجرة التى تخصص لإقامتهن إلا لقضاء الحاجات الضرورية جدا، بل

---

(١) يبدو أن فريزر يستخدم كلمة «مقدس» هنا بنفس المعنى السائد فى كتابات عدد كبير من علماء الاجتماع وبخاصة علماء الاجتماع الفرنسيين وعلماء الانثربولوجيا الذين تعرضوا فى كتاباتهم على الخصوص لفكرة التابو والتحريم المفروض على أشياء معينة لاسباب خاصة، ويصف الانثربولوجيون هذه الاشياء بأنها تابو لأنها مقدسة، فالتقديس هنا لا يحمل بالضرورة المعنى الدينى كما نفهم نحن الدين وإنما يحمل معنى الابتعاد والتحاشى خشية إيذاء الشىء المقدس للناس أو الحاق الأذى به هونفسه(أ..أ).

إنه يتحتم عليهن مادام القارب فى البحر أن يجلسن بغير حراك على قطعة من الحصير وقد شبكت كل منهن يديها بين ركبتيها فلا تتلفت يمنة أو يسرة ولا تصدر عنها أية حركة مهما صغرت حتى لا تؤدى حركتها إلى ارتجاج القارب واضطرابه فوق صفحة الماء، كما يحرم عليهن تناول أى نوع من الطعام اللزج كالأرز المسلوق فى لبن جوز الهند مثلا، لأن لزوجة الطعام تقلل من سرعة اختراق القارب للماء. وحين يعتقد الناس أن البحارة وصلوا إلى بر الأمان تخف حدة هذه القيود المفروضة عليهن بعض الشيء. ولكن يحرم عليهن طيلة الفترة التى تستغرقها الرحلة كلها أن يأكلن الأسماك ذات الأشواك والزعانف الحادة مثل سمك الراى الوخاز Sting-Ray حتى لا يتعرض البحارة للمتاعب القاسية.

وحيث تنتشر مثل هذه الاعتقادات حول قيام الروابط والصلات التعاطفية بين الأصدقاء البعيدين لن يكون ثمة ما يدعو إلى العجب إذا وجدنا أن الحرب ـ التى تستصرخ أكثر من أى شيء آخر بندائها الصارم المشبوب أعمق وأرق العواطف الانسانية ـ تستثير فيما تخلفه وراءها من قلق ولهفة الرغبة فى توجيه تلك الصلة التعاطفية إلى ما فيه خير الأشخاص الأعزاء الذين يشتركون فى القتال ويتعرضون فى كل لحظة للموت. ومن هنا يعمل أصدقاء المحاربين الذين يمكثون فى أرض الوطن على تحقيق تلك النتائج الطبيعية المرغوبة، وذلك عن طريق أداء بعض الأفعال التى قد تثير فينا نحن الأسى أو السخرية تبعا لاختلاف نظرتنا إلى الهدف منها والوسائل التى يتبعونها لتحقيق هذا الهدف. مثال ذلك أنه فى بعض أنحاء بورنيو حين يخرج الرجل عند الداياك لقنص الرءوس تتقلد امرأته ـ أو أخته إن كان أعزبا سيفا بالليل والنهار حتى يظل هو نفسه طيلة الوقت شاهرا سلاحه. كما أنها تمتنع عن النوم أثناء النهار ولا تذهب إلى فراشها قبل الثانية صباحا حتى لا يفاجيء الأعداء زوجها

أو أخاها أثناء نومه. وحين يخرج الداياك البحريون فى بانتنج Panting بسراواك للحرب تخضع النساء لعدد من القواعد الصارمة. بعضها سلبى والبعض الآخر إيجابى، ولكنها كلها تقوم على مبادىء التشاكل السحرى وعلى التلباثى، إذ يتعين عليهن ـ على سبيل المثال ـ الاستيقاظ فى الصباح الباكر جدا وفتح النوافذ بمجرد ظهور الضوء حتى لا يستمر الأزواج الغائبون يغطون فى نومهم أكثر مما يجب كما يتحتم عليهن الامتناع عن دهن شعرهن بالزيوت حتى لا ينزلق الرجال إلى الأرض، وأن يتجنبن النوم أو حتى الإغفاء بالنهار حتى يكتسب الرجال مزيدا من خفة الحركة، وأن يقمن بتنظيف وترتيب حجرات البيت بحيث ترص الصناديق مثلا إلى جوار الجدران فلا يتعثر فيها شخص وذلك حتى لا يتعثر الأزواج الغائبون أنفسهم ويقعوا تحت رحمة الأعداء كذلك تحرص المرأة على أن يترك قدرا صغيرا من الأرز فى الوعاء بعد كل وجبة وتضعه جانبا حتى يجد الغائبون دائما شيئا يأكلونه فلا يشعرون بالجوع أبدا وتمتنع النساء تماما عن الجلوس طويلا أمام النول حتى لاتتخدر سيقانهن من طول الجلوس فيصاب الرجال بتصلب فى المفاصل يقعدهم عن الحركة السريعة لملاقاة أعدائهم أوالهرب من الخطر. ولذا كانت المرأة تحرص على أن تتوقف عن العمل على النول من حين لآخر وتتمشى فى الشرفات كى تحتفظ سيقان الرجال بليونتها ومرونتها ومن ناحية أخرى تحرص المرأة أشد الحرص على عدم تغطية وجهها حتى لا يضل الرجل طريقه خلال الحشائش الطويلة وبين الأدغال كما تمتنع عن الحياكة واستعمال الإبرة حتى لا يطأ الرجل بقدمه الأشواك أوالمسامير الحادة التى يبثها الأعداء فى الطريق. ويسود الاعتقاد هناك بأن خيانة الزوجة لزوجها أثناء غيابه سوف ترسله بالضرورة إلى حتفه فى بلاد الأعداء . ولقد ظلت النساء فى بانتنج يتمسكن بكل هذه القواعد وبغيرها ويراعينها بكل دقة إلى عهد

قريب جدا حين ذهب رجالهم للقتال مع الإنجليز ضد الثوار ولكن مما يؤسف له أن هذه الإجراءات الوقائية الطريفة الرقيقة لم تفدهم كثيرا. فقد قتل كثير منهم رغم كل ما بذلته نساؤهم الوفيات المخلصات فى التمسك والمحافظة على هذه القواعد والعادات.

وفى جزيرة تيمورTimor يقيم رئيس الكهنة فى المعبد طيلة الحرب فلايفارقه، حتى أنهم يأتون بطعامه هناك أو قد يطهى له الطعام فى المعبد ذاته. ويحرص فى الوقت نفسه على أن تظل النار مشتعلة باستمرار لأن انطفاءها يؤدى إلى نزول الكوارث بالأبطال المحاربين الذين تحيط بهم الأخطار من كل جانب إذا خمدت النار فى الموقد. ويتحتم على ذلك الكاهن طيلة غياب المحاربين ألايشرب سوى الماء الحار، لأن كل رشفة من الماء البارد توهن من عزيمة الجيش فلا يعود قادرا على إبادة الأعداء. وفى جزيرة كاى kei حين يرحل المحاربون تقر النساء فى بيوتهن ويشغلن أنفسهن بدهن أنواع معينة من السلال المليئة بالفواكه والأحجار بالزيت ثم يضعنها على لوحة من الخشب وهن ينشدن «يا إله الشمس والقمر» أبعد الرصاص عن أزواجنا وإخوتنا وأحبابنا وأقاربنا الآخرين ودعها تسقط بعيدا عنهم مثلما تتساقط قطرات المطر عن هذه الأشياء التى ندهنها بالزيت. وبمجرد سماع صوت أول طلقة فى الحرب تترك النساء السلال ويمسكن بالمراوح فى أيديهن ويندفعن خارجات من البيوت إلى شوارع القرية وهن يلوحن بالمراوح تجاه الأعداء وينشدن أيتها المراوح الذهبية اجعلى رصاصنا يصيب ورصاص أعدائنا يخيب وواضح من هذه العادة أو الطقوس الخاصة بدهن الأحجار بالزيت حتى يرتد الرصاص عن صدور الرجال مثلما تسقط قطرات المطر عن الأحجار المدهونة هو نوع من السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة الخالص بينما الصلاة والابتهال للشمس بأن تزيد من مفعول

التعويذة وتأثيرها هما إضافة دينية يحتمل أن تكون أدخلت على الطقوس السحرية فى وقت لاحق[١] كما أن التلويح بالمراوح يقصد به التدخل فى توجيه رصاص الأصدقاء نحو صدور الأعداء وتشتيت رصاص الأعداء أنفسهم.

ويذكر أحد المؤرخين الشيوخ فى مدغشقر أنه بمجرد أن يخرج الرجال للحرب تأخذ الفتيات والنساء فى الرقص بدون توقف كما يمتنعن عن النوم وعن تناول الطعام فى بيوتهن حتى يعود المحاربون وعلى الرغم من ميل النساء هناك للخلاعة والتبذل فلن تستطيع أية قوة فى العالم أن تغرى إحداهن بالخروج مع رجل آخر أثناء وجود الزوج فى الحرب. اعتقادا منهن بأن مثل هذا الفعل يؤدى إلى فشل الزوج فى مهمته أوإصابته بجروح، بعكس الرقص الذى يمده بكثير من القوة والشجاعة ويساعده على إنجاز مهمته بنجاح، ولذا فإن المرأة لاتركن فى مثل هذه الظروف إلى الراحة بحال، بل إنها تنظر إلى هذه العادات فى كثير من الخشوع والرهبة والإجلال.

وعند القبائل الناطقة بلغة التشى Tshi[١] التى تسكن ساحل الذهب تدهن زوجات المحاربين الغائبين أنفسهن باللون الأبيض ويزين أجسامهن بالخرز والأحجبة. وفى اليوم الذى يتوقعن فيه حدوث المعركة تجرى النساء هنا وهناك وقد تسلحت كل منهن بالبنادق أوالعصى المصنوعة على شكل بنادق، ثم يأخذن بعض ثمار البوبو

---

(١) يتفق هذا الكلام مع رأى فريزر وكثيرين من علماء الانثربولوجيا فى القرن التاسع عشر فى أن السحر كان أسبق فى الظهور من الدين، وان وجود بعض الشعائر أو الطقوس الدينية ضمن الممارسات السحرية دليل على أن المجتمع الذى يجمع بين نوعى الممارسات إنما مر بمرحلة السحر الخالص فى طريقة إلى مرحلة الدين وبالتالى فإن مثل هذا المجتمع يمثل نمطا أكثر تقدما وتطورا من النمط الاجتماعى والثقافى الذى يسود فى المجتمعات البدائية التى تمثل بدورها ـ عند التطوريين ـ أولى مراحل التطور الاجتماعى وسوف يعود فريزر إلى هذه النقطة أكثر من مرة وبخاصة الفصل الرابع من الكتاب(أ..أ)

Paw-Paw (وهى نوع من الفاكهة يشبه الشمام) فيقطعنها بالسكين كما لو كن يحززن رؤوس الأعداء ويعتبر هذا التمثيل الصامت نوعا من التعاويذ والرقى السحرية التى تقوم على المحاكاة بقصد مساعدة الرجال على أن يفعلوا بأعدائهم مثل ما فعلت النساء بالبوبو وأثناء حروب الأشانتى التى كانت لا تزال دائرة حتى سنوات قليلة مضت ـ شاهد فيتزجرالد ماريوت Fitzgerald Mariot فى بلدة فرامين Framin رقصة تقوم بها النسوة اللاتى ذهب أزواجهن إلى ميدان الحرب للعمل كحمالين وقد دهن النساء أنفسهن باللون الأبيض. ولم تكن ترتدين سوى تنورة قصيرة. وكانت تتزعمهن فى الرقص ساحرة عجوز واهنة كانت ترتدى هى أيضا تنورة بيضاء بالغة القصر وتعقص شعرها الأسود على شكل قرن طويل بارز، وقد نقشت على وجهها الأسود وثدييها وذراعيها وساقيها عددا كبيرا جدا من الدوائر والأقواس البيضاء، وكانت كل امرأة تحمل فى يدها مكنسة بيضاء طويلة من ذيول الجاموس أو الخيول ، وكان الجميع ينشدن أثناء الرقص «لقد ذهب أزواجنا إلى بلاد الأشانتى، ألا فليكنسوا أعداءهم من فوق وجه الأرض.

وحين يخرج الرجال من هنود طومسون فى كولومبيا البريطانية للحرب كانت النساء يقمن بأداء بعض الرقصات على فترات متقاربة على اعتبار أن ذلك يكفل

---

(١) نظرا للصعوبات الكثيرة التى يصادفها علماء الانثربولوجيا فى تصنيفهم بطريقة قاطعة للجماعات القبلية المتخلفة أو لما يعرف على العموم باسم الجماعات البدائية على اساس السلالة أو الثقافة أو التنظيم الاجتماعى فإنهم يلجئون إلى تصنيف هذه الجماعات على أساس المجموعات اللغوية التى ينتمون إليها، وذلك على اعتبار أن القبائل المتجاورة ـ كما هو الحال مثلا فى شرق افريقيا ـ يتكلمون لهجات مختلفة تنتمى إلى لغة واحدة تتميز عن اللغة التى تسود عند مجموعة أخرى من القبائل، فالشعوب الناطقة بلغة الناندى Nandi Speaking Peoples مثلا تضم قبائل الناندى والكبسجيس Kipsigis والبوكوت Pokot وغيرها (أ.أ).

للحملة للنصر. وكانت الراقصات يلوحن بالسكاكين فى الهواء ويقذفن إلى الأمام بقطع ممن العصى الطويلة ذات الأطراف الحادة المدببة أو يدفعن إلى الامام بعض العصى التى يثبت فيها خطاف معقوف ثم يسحبنها إلى الوراء ويرمز قذف العصى إلى الامام إلى طعن الأعداء وطردهم وردهم على أعقابهم بينما يرمز سحب هذه العصى إلى انسحاب جنود القبيلة ذاتها وابتعادهم عن موطن الخطر والواقع أن الخطاف المثبت بطرف العصا كان يوضع بطريقة خاصة توحى بأنه يصلح للقيام بمهمة انقاذ الحياة من الأخطار ويلاحظ أن النساء كن يلوحن دائما بأسلحتهن فى اتجاه بلاد الأعداء كما كن يصبغن وجوههن بالمساحيق الحمراء ويرددن الأناشيد والأغانى أثناء الرقص ويضرعن إلى الأسلحة أن تحفظ حياة أزواجهن وتساعدهم على قتل أكبر عدد ممكن من الأعداء. فإذا ماانتهى الرقص عمدت النساء إلى اخفاء الأسلحة، حتى إذا ما أخرجت إحداهن سلاحها من مخبئه وخيل إليها أنها ترى عليه بعض الشعر أو قطعة من فروة الرأس أدركت أن زوجها تمكن من قتل أحد الأعداء . أمارذا رأت عليه بقعة من الدم فإنها كانت تدرك أنه هو نفسه قد جرح أو مات. وحين كان رجال قبيلة يوكى Yuki فى كاليفورنيا يخرجون للحرب والقتال كانت النساء يحرصن على البقاء مستيقظات بغير نوم، ولذا كن يعكفن على الرقص فى شكل حلقة وبدون توقف وهن يرددن الأغانى والأناشيد ويلوحن ببعض الفروع المورقة اعتقادا منهن أن الرقص المستمر كفيل بإبعاد الإحساس بالتعب والضجر عن الرجال كذلك الحال عند هنود الهايدا Haida فى جزر الملكة شارلوت Queen Char-lott Islands حين يخرج الرجال للحرب فقد كانت النساء يحرصن حينذاك على الاستيقاظ من النوم ميكرات ويقمن بتمثيل بعض مناظر الحرب مثل التظاهر بالهجوم على أطفالهن وأخذهم أسرى حرب وعبيدا على أمل أن يساعد ذلك التمثيل أزواجهن

فى تحقيق نتائج مشابهة. أما إذا خانت الزوجة زوجها وهو فى طريقه إلى المعركة فمن المحتمل أن يؤدى ذلك إلى موته. كذلك كانت النساء يراعين أن تتجه رءوسهن أثناء النوم فى الاتجاه الذى سارت فيه الحملة وبعد عشر ليال يتغير الوضع إلى الاتجاه الآخرالمقابل على زعم أن المحاربين أصبحوا فى طريق العودة عبرالبحر إلى الوطن وكذلك كانت نساء الهايدا فى ماسيت Masset يرقصن وينشدن أناشيد الحرب طيلة الفترة التى يمضيها الرجال فى ميدان القتال. ويحرصن فى الوقت ذاته على ترتيب أثاث البيت فى وضع خاص اعتقادا منهن أن المرأة التى لا تراعى مثل هذه العادات والأمور إنما تقتل زوجها وعند هنود الكاريب فى أورينوكو Orinico حين كانت إحدى الجماعات تخرج للحرب كان أصدقاؤهم الذين يتخلفون وراءهم فى القرية يحسبون بقدر الإمكان اللحظة التى يعتقدون أنهم بدأوا فيها تقدمهم للهجوم على أعدائهم فيمسكون باثنين من الصبية ويرقدونهما على مقعد ثم ينهالون على ظهريهما العاريين فى قسوة ووحشية، وكان الصبيان يتقبلان هذا التعذيب دون أن يصدر عنهما أى صوت يدل على الألم، فقد نشأ الصبية منذ الصغر على الاعتقاد الراسخ بأن تحمل هذا التعذيب القاسى بصبر وجلد يتوقف عليه ثبات رفاقهم ونجاحهم فى المعركة.

ومن بين الحالات الكثيرة التى أمكن فيها للبراعة الإنسانية أن تسخر فيها مبدأ «السحر التشاكلى» أو «سحر المحاكاة» لصالح الانسان استخدام ذلك النوع من السحر فى العمل على زيادة خصوبة الأشجار والنباتات بحيث تؤتى أكلها فى المواسم المحددة تماما وبوفرة ففى تورنجن Thuringen مثلا نجد أن الفلاح الذى يقوم ببذر الكتان يحمل البذور فى كيس طويل يمتد من كتفيه حتى ركبتيه ثم يمشى بخطوات طويلة بحيث يتأرجح الكيس على ظهره اعتقادا منه بأن ذلك يساعد النبات

على النمو والارتفاع بحيث يموج ويهتز بفعل الهواء، وفى المناطق الداخلية فى سومطرة تقوم النساء ببذر الأرز وقد أسدلن شعرهن الطويل على ظهورهن عسى أن ينمو الأرز بسخاء ووفرة وتطول سيقانه. وبالمثل كان الناس فى بلاد المكسيك القديمة يقيمون عيدا للاحتفال بإلهة الذرة أو «الأم ذات الشعر الطويل» كما كانوا يسمونها . وكان هذا الاحتفال يبدأ فى الوقت الذى يبلغ فيه النبات ذروة نموه بحيث تبرز الشعيرات من أطراف القناديل الخضراء دلالة على اكتمال نمو الحبة. كذلك كانت النساء يسدلن شعورهن أثناء هذه الاحتفالات فلا يقصصنه وذلك لكى يهتز ويتموج ويتناثر أثناء الرقص الذى كان يعتبر أهم عنصر فى الاحتفال، عسى أن يساعد ذلك على كبر حجم القنديل ونمو الحبوب ذاتها مما يعود على الناس أنفسهم آخر الأمر بالرخاء والخير وفى أجزاء كثيرة من أوروبا يعتبر الرقص والقفز عاليا فى الهواء نمطا مقبولا من السحر التشاكلى الذى يساعد على وفرة المحصول ونمو الزرع. ويعتقد الناس فى فرانش كونتيهFranche Conté مثلا أن الرقص فى الكرنفال كفيل بأن يساعد على نمو وارتفاع نبات القنب.

وتظهر فكرة قدرة الإنسان على التأثير فى النباتات تأثيرا سحريا عن طريق سلوكه وتصرفاته من إحدى الملاحظات التى صدرت عن امرأة ملايوية. فقد سئلت عن السبب فى أنها تكشف عن الجزء العلوى من جسمها وتعريه أثناء حصدها للأرز فذكرت أن ذلك يساعد على جعل قشرة الأرز رفيعة ورقيقة، وأنها لجأت إلى ذلك بعد أن نالها الضجر والتعب من دق سيقان الأرز الغليظة. وواضح من ذلك أنها كانت تعتقد أنه كلما قلت كمية الملابس التى تضعها على جسمها كلما قل سمك القشرة التى تغلف حبات الأرز . ويعترف الفلاحون فى باقاريا والنمسا بقدرة المرأة الحامل على نقل الخصوبة إلى النبات بطريقة سحرية ويعتقدون أن إعطاء باكورة ثمار إحدى

الأشجار للمرأة الحامل لتأكلها خليق بأن يؤدى إلى زيادة ثمار هذه الشجرة ووفرتها فى العام التالى. ويعتقد الباجندا Baganda من ناحية أخرى أن عقم الزوجة يمكن أن ينتقل إلى زراعة زوجها فلا تعود الأشجار قادرة على الإثمار، ولذا فإنهم كانوا يطلقون الزوجة العاقر فى الحال(١). ولقد كان اليونانيون والرومان يقدمون الأضحيات والقرابين من الحيوانات الحبلى إلى إلهة الحنطة وإلهة الأرض حتى تزيد من خصوبة التربة فتمتلىء السنابل بالتالى بالحبوب الناضجة الممتلئة . وحين انتقد أحد رجال الدين الكاثوليك مسلك هنود أورينوكو فى سماحهم لزوجاتهم بالقيام ببذر البذور فى الحقول تحت أشعة الشمس المحرقة وهن يرضعن أطفالهن فى الوقت نفسه كانت إجابة الرجال على ذلك النقد والاحتجاج: «أيها الأب: إنك لا تفهم شيئا فى هذه الأمور ولذا فهى تثير سخطك ولكنك تعرف بلاشك أن للنساء قدرة على

(١) من الصعب قبول رأى فريزر فى أن المرأة العاقر تطلق لمجرد الخوف من انتقال عقمها إلى النباتات. وصحيح أن الباجندا ـ ومثلهم في ذلك مثل الجماعات القبلية فى افريقيا الشرقية والوسطى ـ يرون أن عقم المرأة يؤدى عن طريق (العدوى) إلى عقم النبات والحيوان وانهم يتجنبون الزواج من العائلات التى تشتهر نساؤها بقلة الخصوبة وضعف القدرة على انجاب الاطفال إلا أن السبب الرئيسى لذلك هو الرغبة فى انجاب الذرية فى المحل الاول والمرأة العاقر تمنع بحكم الواقع من تحقيق رغبة القبيلة ـ وليس الزوج وحده ـ فى انجاب الأطفال من كلا الجنسين. ولا تكاد هذه الجماعات القبلية تفرق بين الذكر والانثى من حيث اهميتهما لحياة القبيلة بل ولا تكاد تضع أولوية مطلقة لأحد الجنسين على الجنس الاخر، فإذا كان الذكر هوالذى يحمل اسم الجماعة القبلية ويقوم بالمناشط الاقتصادية الاساسية كالرعى بالاضافة إلى دوره المهم فى الحروب والغارات فإن الانثى تلعب دورا لا يقل أهمية عن ذلك وبخاصة فى المجال الاقتصادى، ليس فقط لأنها هى التى تضطلع بأعمال الزراعة وفلاحة الارض بل أيضا لأنها مصدر هام جدا ـ حين تكبر ـ لتزويد العائلة بالماشية. فمهر العروس يدفع فى تلك المجتمعات من الابقار ، والمهر المثالى هو أربعون بقرة يقدمها أهل العريس إلى أهل الفتاة. وتعتبر الابقار أهم عنصر فى الثروة هناك علاوة على أنها تحدد المكانة الاجتماعية للفرد والجماعة وأذن فطلاق المرأة العاقر عند الباجندا أوغيرهم يرجع فى العادة إلى أسباب أهم بكثير من مجرد تأثيرها السحرى الضار فى النبات (أ..أ).

الحمل والوضع بعكس الرجال. وحين تبذر المرأة البذور فإن عود الذرة الواحد تحمل قندلين أو ثلاثة قناديل ، كما أن بذور التوكا tucca تغل ما يكفى لملء سلتين أو ثلاث ، بل إن كل شيء يتضاعف بنفس النسبة فما سبب ذلك ؟ سببه ببساطة هو أن المرأة التى تعرف كيف تحمل وتلد تعرف بالتالى كيف تجعل البذرة التى تبذرها تحمل وتثمر . دع المرأة تبذر إذن لأننا معشر الرجال لا نعرف فى هذه الأمور مثلما تعرف النساء». وعلى ذلك ، فإنه تبعا لنظرية السحر التشاكلى يستطيع أى شخص أن يؤثر فى الخضرة أو الزرع تأثيرا طيبا أو ضارا حسب أفعاله وأحواله ومزاجه. . . فالمرأة الولود تساعد النبات على الإثمار ، بينما تجعل المرأة العاقر النبات عقيما . ومن هنا نشأ الاعتقاد فى أن الخصائص الضارة المؤذية التى تتصف بها بعض التصرفات أوالخصائص أوالأحداث الشخصية هى التى أدت إلى ظهور عدد من التحريمات وقواعد التحاشىavoidance فالناس يمتنعون عن القيام بأشياء معينة خشية أن تؤثر أحوالهم وظروفهم السيئة فى ثمار الأرض عن طريق التشاكل. وكل هذه العادات المتعلقة بالتجنب أو قواعد التحاشى هى أصل السحر السلبى أوالتابو. وعلى ذلك فإن جماعات الجاليلاريز مثلا الذين يؤمنون بما يمكن تسميته بعدوى الأفعال أو التصرفات الشخصية يرون ضرورة الامتناع عن الرمى بالقوس والسهام تحت أشجار الفاكهة خشية أن تلقى الأشجار بكل ثمارها ويرون أن ذلك قد يحدث فى نفس اللحظة التى تسقط فيها السهام ذاتها على الأرض.

ويحرص الجاليلاريز أيضا حين يأكلون البطيخ على عدم خلط اللب الذى يلفظه المرء من فمه باللب الذى يحتجزه جانبا ليستخدمه كبذور . إذ على الرغم من أن اللب الذى يلفظه من الفم ينمو ويزدهر فإن البراعم ذاتها سوف تسقط بالتأكيد أولا بأول مثلما تساقط ذلك اللب نفسه من الفم، وبالتالى فإنه لن يعطى أى ثمار على الإطلاق

وهذا النوع من التفكير ذاته هو الذى يدفع الفلاح فى باڤاريا إلى الاعتقاد بأن سقوط الطعم الذى يطعم به شجرة الفاكهة من يده على الأرض يؤدى إلى سقوط تلك الثمار ذاتها من تلك الشجرة قبل اكتمال نضجها. كما أن هذا النمط من التفكير أيضا هو الذى يجعل جماعات التشام Cham فى الصين يأكلون الأرز جافا فى طعامهم حين يريدون بذر البذور لزراعة الأرز الجافة معتقدين أن ذلك يكفل منع المطر من السقوط وبالتالى إنقاذ الزرع من أن يفسد بفعل المطر.

والأمثلة السابقة كلها تبين قدرة الإنسان على التأثير فى الخضرة تأثيرا تشاكليا وأن الفرد الذى يفترض فيه وجود تلك القوة إنما يؤثر فى الأشجار والنبات تأثيرا نافعا أوضارا تبعا للأحوال والأحداث التى يمر بها هو نفسه والتى يستمد منها هذه التأثيرات ذاتها، إلا أن مبدأ السحر التشاكلى يقضى بأن يكون التأثير متبادلا. فالنبات يستطيع أن «ينقل العدوى » للإنسان بمثل ما يتقبل العدوى منه تماما فالفعل ورد الفعل فى السحر والفيزياء ـ على ما أعتقد ـ متساويان ومتقابلان . ولقد حصل هنود الشيروكى على درجة عالية جدا من المعرفة بخصائص النبات مكنت لهم استخدامها بطريقة المحاكاة والتشاكل فى كثير من أوجه حياتهم اليومية. فنبات «أمعاء القط» مثلا يتميز بجذور طويلة ورفيعة وبدرجة كبيرة من الصلابة والقوة تجعله يقاوم المحراث مقاومة شديدة ويكاد يمنعه تماما عن حرث الأرض، ولذا فإن النساء هناك يستعملنه فى غسل رءوسهن بعد غليه فى الماء حتى يكتسب الشعر صلابة وقوة مماثلتين كما أن لاعبى الكرة عندهم يغسلون أجسامهم به كى تقوى عضلاتهم وتشتد[1] ويعتقد الجاليلاريز أن المرأة التى تأكل إصبعين من أصابع الموز

---

(١) ترجمت بشىء من التصرف(أ..أ)

ينمـوان مـعـا داخل قـشـرة مـوز واحـدة سـوف تلد توأمين. وبالمثل يعـتـقـد هـنود الجـورانىGuarani فى امـريكا الجنوبيـة أن المرأة سـوف تلد توأمين إذا أكلت حـبـة مزدوجة من حبوب الذرة ولقد كان هذا المبدأ نفسه يستخدم فى العصور الفيدية Ve-dicاسـتـخداما غريبا فى عمل التعاويذ التى تساعد الأمراء المنفيين على استرداد عروشهم[1] فقد كان الأمير المخلوع يتناول طعاما مطبوخا على نار توقد من أخشاب أخذت من جذع شجـرة كان قد سبق قطعهـا من قبل اعـتقـادا منهم أن القـوة النمـائيـة التى أظهـرتهـا تلك الشـجـرة فى اسـترداد قـوتهـا سـوف تنتـقل فى الوقت المناسب عن طريق النار إلى الطعـام ومنـه إلى الأمـيـر نفسـه الذى أكل ذلك الطعـام الذى تم طبخه على النار التى استـخدم فى إشعـالها ذلك الخشب الذى نما من تلك الشجرة وتعتقد الشعوب السودانية أنه إذا تم بناء بيت من خشب بعض الأشجار الشوكية فإن حياة الناس الذين يسكنون فيه ستكون بالمثل شائكة ومليئة بالمتاعب ومن ضروب السحر التشاكلى التى لها فاعلية واضحة ذلك الضرب الذى يستعين بالموتى فى تحقيق أهدافه. فكما أن الموتى لا يرون ولا يسمعون أو ينطقون كذلك يمكن ـ تبعا للمبادىء التشاكلية ـ جعل الناس عميانا وصما وبكما باستخدام عظام رجل ميت أو أى شىء آخر يكون قد اتصل بالموت من قريب أو بعيد. مثال ذلك أنه

---

(٢) يقوم الدين الهندوكى أصلا على مجموعة من الكتب المقدسة التى تعرف باسم الفيداVedas ويسود الاعتقاد عند الهندوس أن براهما نفسه هو الذي وضع تلك الكتب التى تضم تعاليم الدين الاساسية وذلك منذ بدء الخلق، ثم قام الحكيم فياساVyasa بترتيبها منذ حوالى خمسة آلاف سنة فى وضعها الحالى. وتبشر كتب الفيدا بوجود إله واحد هو براهما متجسدة فى عمليات الخلق والاستمرار أوالمحافظة على السكون ثم التدمير والفناء، وتتجلى فى أسماء ثلاثة هى براهما نفسه وفيشنو Vishnu وسيفا Siva على التوالى وهم الآلهة الثلاثة الكبار أوالرئيسيون عند الهندوس وهذا لا يمنع من وجود آلهة أقل أهمية مثل اندرار إله السماء والرعد والمطر(أ.أ).

حين يخرج شخص عند الجاليلاريز لمقابلة معشوقته بالليل فإنه يتناول حفنة من التراب من أحد القبور فيذروه على سطح بيتها فوق المكان الذى يرقد فيه أبواها متوهما أن ذلك سوف يمنعهما من الاستيقاظ أثناء مناجاته لها، على أساس أن تراب القبر سيجعلهما ينامان نوما عميقا كنوم الموتى. وقد كان اللصوص فى كل العصور وفى الكثير من البلاد يعتمدون على مساعدة هذا النوع من السحر المفيد فى ممارسة مهنتهم، ولذا كان اللص فى سلاڤونيا Slavonia مثلا حين يريد السطو على أحد المنازل يبدأ عمله أحيانا بأن يلقى بقطعة من عظام رجل ميت فوق البيت وهو يقول بسخرية لاذعة كما أن هذه القطعة من العظام لا تستطيع أن تعود إلى الحياة كذلك لا يستطيع سكان هذا البيت أن يقوموا من رقادهم، فلايستطيع أى شخص فى ذلك المنزل أن يفتح عينيه بعدها. وفى جاوا ينثر اللصوص تراب أحد القبور حول البيت الذى ينوون السطو عليه على اعتبار أن ذلك كفيل بأن يجعل النوم يدب إلى أجفان السكان . كذلك ينثر اللصوص عند الهندوس الرماد من المحرقة أمام البيت بينما ينثر الهنود الحمر فى بيرو التراب المتخلف من عظام الموتى. أما اللصوص فى روتانيا Ruthania فإنهم يفرغون النخاع من عظمة ذقن الميت ويصبون فيها الشمع الأبيض ثم يشعلون فيها النار ويسيرون ثلاث مرات حول البيت الذى يريدون السطو عليه وهم يحملون ذلك المشعل الآدمى فيتغلب النوم على السكان ويروحون فى سبات عميق، أو قد يصنعون مزمارا من عظمة ساق الميت ويعزفون عليه فيدب النعاس فى عيون جميع من يسمعونه، وكان الهنود الحمر فى المكسيك يستخدمون لتحقيق أهدافهم الشريرة عظمة الساعد الأيمن لامرأة مات أثناء أول ولادة لها، ويشترطون أن تكون الذراع مسروقة، فيدقون بها على الأرض قبل أن يتسللوا إلى البيت الذى يريدون السطو عليه. فيفقد السكان القدرة على الكلام والحركة ويبدون ساكنين كالأموات بحيث يرون كل ما يدور حولهم فى البيت دون أن يستطيعوا التدخل، بل إن بعضهم كان ينام بالفعل ويرتفع شخيره. وكان الناس فى أوروبا يزعمون أن «يد

المجد Hand of Glory مثل هذه الخصائص والقدرات ويد المجد عبارة عن يد رجل مشنوق تؤخذ وتملح وتحفظ حتى إذا وضعت فيها شمعة مصنوعة من شحم مجرم تم شنقه أيضا ثم أضيئت مثلما تضاء الشموع في الشمعدانات فقد جميع الحاضرين قدرتهم على الحركة وأصبحوا عاجزين تماما حتى عن أن يحرك أحدهم أصبعه أكثر مما يستطيع الشخص المشنوق نفسه. وفي بعض الأحيان كانت يد الميت كلها تستخدم كشمعة أوعلى الأصح كمجموعة من الشموع، فكانت النار توقد في كل الأصابع الجافة الذابلة ، وكان عدم اشتعال النار في أحد الأصابع يعني وجود شخص مستيقظ في البيت، ولم يكن يفلح في إطفاء هذا الضوء البشع سوى اللبن. وكثيرا ما كان الأمر يقضي بأن تصنع شمعة اللص من إصبع طفل حديث الولادة أو طفل ولد ميتا، وهو الأفضل. وفي أحيان أخرى كان اللصوص يفضلون أن يحملوا معهم شموع بعدد سكان البيت الذي يزمعون السطو عليه حتى لا تكون هناك فرصة لبقاء شخص مستيقظا فيلقي القبض عليهم. ولم يكن يفلح في إطفاء هذه الشموع الصغيرة أيضا إلا اللبن. وقد كان اللصوص في القرن السابع عشر يقتلون النساء الحوامل ليحصلوا من أرحامهم على تلك الشموع. كذلك كان اللصوص في بلاد اليونان القديمة يعتقدون أن بإمكانهم إسكات أشد كلاب الحراسة وحشية وضراوة، بل وحملها على الهرب بأن يحملوا معهم بعض الجمرات من إحدى المحارق الجنائزية، كما كانت النساء في بلاد الصرب وبلغاريا حين تشتد عليهن وطأة العمل المنزلي ينزعن قطع النقود البرونزية التي توضع على عيون الجسد الميت ويغسلنها بالنبيذ أو بالماء ثم يقدمن السائل بعد ذلك لأزواجهن وبمجرد أن يشرب الزوج من هذا الشراب يصبح أكثر ميلا إلى التساهل واللين مع زوجته فيتغاضى عن هفواتها ونزواتها، بل إنه يعمى تماما عن إدراكها شأنه في ذلك شأن الشخص الميت الذي كانت تلك النقود تغطي عينيه. ومن ناحية أخرى فإن كثيرا من الناس يتصورون أن الحيوانات تملك بعض الخصائص والصفات المفيدة النافعة التي يمكن أن تنتقل إليهم

بشكل أو بآخر عن طريق السحر التشاكلي أو سحر المحاكاة. من ذلك مثلا أن بعض البتشوانا Bechuanas يلبسون جلد ابن مقرض Ferret كتعويذة تبعد عنهم شر الموت غيلة. نظرا لشدة تشبث هذا الحيوان بالحياة، بينما يحاول البعض الآخر تحقيق نفس النتيجة عن طريق تغطية أجسامهم بأنواع معينة من الحشرات المشوهة التى تظل متمسكة بالحياة رغم تشوهاتها، وكثيرا ما يلبس المحاربون عندهم أيضا شعر ثور بغير قرون فوق شعرهم هم أنفسهم أو يضعون جلود الضفادع فوق مآزرهم نظرا لقدرة الضفدعة على الإفلات والهرب وصعوبة الإمساك بالثور المنزوع القرنين من الناحية الأخرى. فحمل مثل هذه التعاويذ يجعل من الصعب الإيقاع بصاحبها بنفس الطريقة التى يصعب بهاالإمساك بالثور المنزوع القرنين أو بالضفدعة وبالمثل فإنه يبدو واضحا أن المحارب فى جنوب افريقيا الذى يعقص شعره الأسود المجعد على بعض خصلات من شعر فأر سيكون له من القدرة على الإفلات من حراب الأعداء مثل ما للفأر المرن من القدرة على الإفلات من الأشياء التى يرمى بها ومن هنا يشتد الطلب بكثرة على شعر الفيران فى تلك المناطق حين يتوقع الناس نشوب إحدى الحروب. وتذكر إحدى الكتب الهندية القديمة أنه حين يراد تقديم بعض القرابين من أجل النصر فإن التراب الذى يستخدم فى بناء المذبح يجب أن يؤخذ من المكان الذى يتمرغ فيه الخنزير البرى على اعتبار أن قوة ذلك الخنزير تنتقل إلى ذلك التراب وحين يلعب الشخص على المعزف ذى الوتر الواحد ويشعر بتصلب فى أحد أصابعه فإنه يتعين عليه أن يمسك بأحد عناكب الحقول التى تتميز بطول أرجلها فيشويه ثم يغزل الإصبع برماده، لأن ذلك كفيل بأن يكسب الإصبع الليونة والسرعة اللتين تتميز بهما أرجل العنكبوت ، حسب ما يعتقد الجاليلاريز على الأقل. وحين يحاول العرب اللحاق بالعبيد الذين يفرون من الرق فإنهم يرسمون دائرة سحرية على الأرض ويرشقون مسمارا في وسطها ثم يربطون خنفساء فى الخيط إلى المسمار بحيث تكون الخنفساء من نفس جنس العبد الهارب. وكلما دارت الخنفساء حول

المسمار التف الخيط حوله أيضا وتصر طوله بذلك واقتربت الخنفساء بالتالى من المركز (المسمار) بعد كل دورة ويفضل هذا النوع من السحر التشاكلى يعود العبد الهارب إلى سيده من جديد. وعند القبائل الغربية فى غينيا الجديدة البريطانية يحرص الرجل حين يقتل ثعبانا على أن يشويه فى النار ثم يدهن ساقيه بشىء من رماده كلما ذهب إلى الغابة فيجنبه ذلك شر التعرض لعض الثعابين لعدة أيام بعده، وحين يزمع أحد الأشخاص فى سلافونيا الجنوبية الاختلاس أو السرقة من أحد الأسواق فإنه يقوم أولا بحرق قط أعمى ثم يلقى بحفنة من رماده على الشخص الذى يريد خداعه، وبذلك يتمكن من أن يأخذ ما يشاء من حانوته دون أن ينتبه المالك إلى ما يفعل، لأنه أصبح يماثل فى العمى القط الميت الذى ألقى عليه شىء من رماده. بل إن الجرأة قد تصل بالسارق إلى حد أن يسأل التاجر «هل دفعت لك الثمن؟ فيجيب التاجر المخدوع «طبعا ، بكل تأكيد » ومن الأمور التى تماثل ذلك فى البساطة وقوة التأثير ما يلجأ إليه أهالى وسط استراليا حين يرغبون فى إطالة لحاهم فينخسون الذقن فى كل المواضع بقطعة مدببة من العظام، ثم يمسحون عليها فى عناية ورفق بقطعة من الخشب أو الحجر المسحور الذى حفر على هيئة نوع معين بالذات من الفئران المشهورة بطول شواربها، على أمل أن تنتقل خاصية الشوارب الطويلة إلى قطعة العصا أو الحجر التى تشبه الفأر ومنها بالتالى - عن طريق النقلة البسيطة - إلى الذقن ذاتها التى لا تلبث أن تغطيها وتزينها لحية طويلة كثة. ولقد كان الإغريق يعتقدون أن أكل لحم «عصفور الليل» أو «القبرة الساهرة» كفيل بطرد النوم عن الشخص، وأن تكحيل عينى الشخص الأعشى بمرارة الصقر تزيد فى قوة إبصاره وحدته، وأن بيض الغراب الأسود يكسب الشعر الأشيب الفضى سوادا كسواد الغراب نفسه. وكل ما يستلزمه الأمر من الشخص الذى يلجأ لهذه الوسيلة الأخيرة لإخفاء عاديات الزمن هو أن يظل فمه مليئا بالزيت طيلة الوقت الذى يضمخ فيه خصلات شعره الوقور بالبيض وذلك حتى لاتتلون أسنانه باللون الأسود الحالك الذى

لا يفيد الحك أو الغسل فى إزالته واسترجاع الأسنان للونها الأبيض القديم. والواقع أن مفعول هذا العلاج لإعادة لون الشعر كان على درجة من القوة يتعرض الشخص معها لأخطار جسيمة لا تتناسب مع ما يطلبه منه.

وتثير النقوش والأشكال الجميلة التى تزين ظهور الأفاعى إعجاب هنود الهويتشول، ولذا فحين تبدأ المرأة هناك فى النسج والتطريز يمسك زوجها بأفعى كبيرة ويثبتها فى عصى مشقوقة فتمر الزوجة بيدها على ظهرها كله من الرأس حتى الذيل ثم تلمس بعد ذلك جبينها وعينيها على أمل أن تكتسب من الحذق والمهارة ما يمكنها من أن تصنع فى النسيج نقوشا ورسوما لها نفس جمال النقوش التى تزين ظهر الأفعى.وتمشيا مع مبدأ السحر التشاكلى فإن الأشياء غيرالحية وكذلك النباتات والحيوانات تستطيع أن تنشر النقمة أو النعمة فيما حولها تبعا لطبيعتها الذاتية من ناحية، وقدرة الساحر على تفجير ينابيع الخير أو منع الكروب والويلات من ناحية أخرى حسب مقتضيات الموقف. ففى سمرقند مثلا تعطى الأم لطفلها بعض الحلوى لكى يمصها وتضع فى كفه بعض الغراء حتى يشب عذب الحديث معسول اللفظ وحتى تلتصق الأشياء الثمينة بيده كما لو كانت مثبتة بالصمغ أو الغراء وكان اليونانيون القدماء يعتقدون أن الثوب المصنوع من صوف أحد الأغنام التى مزقتها الذئاب يؤذى صاحبه ويسلط الأكال على جلده. كما كانوا يظنون أن وضع قطعة من الحصى فى النبيذ بعد أن يكون قد لفظها كلب من فمه كفيل بإثارة الشقاق بين كل من يشرب من ذلك النبيذ، وكثيرا ما تستعير المرأة العاقر عند عزب مؤاب رداء امرأة أخرى ذات أطفال كثيرين أملا فى أن يساعدها ذلك على اكتساب شىء من خصوبة صاحبته الأصلية. وكان الكافير فى سوفالا Sofala بشرق إفريقيا يرتاعون أشد الارتياع إذا ضربهم شخص بأى شىء مجوف كالبوص أو القش ويفضلون على ذلك أن يضربوا بهراوة غليظة مثلا أو حتى بقضيب من الحديد رغم ما قد يلحقه بهم من أذى، وذلك نظرا لاعتقادهم بأن ضرب الشخص بأداة مجوفة يؤدى إلى تسرب جوفه

حتى يذوى ويموت ويوجد فى البحار الشرقية Eastern Seas نوع معين من الأصداف تطلق عليه جماعات البوجينيس Buginese الذين يعيشون فى سليبيز اسم «الرجل الشيخ» (كادجاووKadjawo) وفى يوم الجمعة من كل اسبوع يضع الناس هناك هؤلاء الرجال الشيوخ على ظهورهم أمام عتبات بيوتهم اعتقادا منهم أنه ما من شخص يمر فوق عتبة هذا البيت إلا ويعيش حتى يبلغ أرذل العمر. ويحرص الصبى عند البراهمة أثناء حفلات تكريسه[1] على أن يطأ بقدمه اليمنى قطعة من الحجر بينما يردد الناس قائلين « قف فوق الحجر وكن ثابتا راسخا مثله» وهذه الطقوس ذاتها

---

(١) المقصود بحفلات التكريس الحفلات التى تقام لتأهيل الفتيان لحياة الرجولة وتعدهم لتحمل المسئوليات الخاصة بتلك المرحلة من حياتهم الاجتماعية. وتكاد حفلات التكريس تكون عنصرا ثقافيا عاما فى المجتمع الانسانى على اختلاف درجات تقدمه وإن كانت تتخذ مظاهر مختلفة كما أنها أوضح عند الشعوب البسيطة. والعادة أن يعزل الفتيان أثناء مراسيم التكريس عن بقية المجتمع فيعيشون فى الغابة مثلا كما يخضعون للكثير من القيود والتحريمات القاسية ويتعرضون لأنواع مختلفة من التعذيب كما يتلقون تدريبات خاصة تتعلق بالقواعد الخلقية السائدة فى الجماعة القبلية التى ينتمون إليها.. ويجب أن نفرق بين نوعين من شعائر التكريس: الشعائر الجماعية والشعائر الفردية ومعظم شعائر التكريس هى من النوع الجماعى بينما لا تسود الشعائر الفردية إلا عند عدد قليل من القبائل فى استراليا وافريقيا وعند بعض الهنود الحمر. ويعتبر الختان أهم عنصر فى الشعائر الجماعية عند معظم الشعوب والقبائل البسيطة. ولكن هناك كثيرا من الشعائر الاخرى التى تحل محل الختان مثل اجراء بعض العمليات الجراحية البسيطة فى أجزاء مختلفة من الجسم كا هو الحال فى تشليخ الجبهة أو الخدود الذى يمارسه كثير من الشعوب الافريقية والسودانية، أو خلع بعض الاسنان على ما سوف يذكر فريزر نفسه فى الصفحات التالية.. وقد يتعرض الشبان فى بعض المجتمعات إلى أنواع من التعذيب أقل قسوة من هذه العمليات الجراحية كالجلد بالسياط مثلا أو الوخز بالاشواك أوالشجيرات الشوكية أواجبارهم على تناول طعام ساخن ملتهب أوعلى العكس من ذلك حرمانهم من الطعام لفترات طويلة يختلف طولها من مجتمع لآخر حسب العرف والتقاليد. وعلى أى حال فإن الهدف من كل هذه الأساليب المختلفة فى المعاملة القاسية هواختبار قوة احتمال الشبان على ملاقاة الصعاب التى سوف يصادفونها فى حياتهم وبخاصة حين يخرجون للحرب أوالقنص، كما أن بعضها كالختان - يعتبر خطوة هامة فى سبيل ممارستهم لوظائفهم الجنسية فى المجتمع. أما شعائر التكريس الفردى فالأغلب أنها لا تنطوى على مثل هذه العناصر العنيفة وإنما يكتفى فيها بمطالبة الفتى بطعن أحد الثيران القوية بشرط أن يقتله من الطعنة الأولى وإلا سقط الفتى كمحارب شجاع فى نظر المجتمع وهذه أيضا وسيلة لإعداد الشبان للحرب والقنص . وعلى أية حال فإن شعائر التكريس تعتبر الرخصة التى بمقتضاها يصبح الفرد لأول مرة فى حياته عضوا كاملا فى المجتمع، فينفصل عن مجتمع النساء الذى كان ينتمى إليه أو يلتصق به التصاقا شديدا أويلحق بمجتمع الرجال ويحتل بذلك مركزا اجتماعيا محددا، له التزاماته ومسئولياته (أ..أ)

تمارس على العروس يوم زفافها. وفى مدغشقر يدفن الناس قطعة من الحجر تحت العمود الضخم الرئيسى الذى يقوم عليه البيت كله وبذلك يدفنون الحظ العاثر أو سوء الطالع الذى يلازم صاحبه. ويمكن إلى حد ما رد العادة الشائعة عند كثير من الشعوب عن حلف اليمين على قطعة من حجر إلى الاعتقاد فى أن صلابة الحجر أو قوته تعطى مزيدا من التوكيد والتعزيز للقسم . وفى هذا الصدد يذكر المؤرخ الدانماركى القديم ساكسو جراماتيكوس Saxo Grammaticus أنه حين كان القدماء يختارون ملوكهم فإنهم كانوا يحرصون على أن يعتلوا بعض الأحجار التى كانوا يغرسونها فى الأرض غرسا للإدلاء بأصواتهم من فوقها. مشيرين بذلك إلى قوة ورسوخ وثبات رأيهم فيمن يختارون.

ولكن فى الوقت الذى تزعم فيه أن جميع الأحجار تتمتع بخاصية سحرية عامة نظرا لما تتميز به كلها من صفات الثقل والصلابة. فإن هناك من الحجارة ما ينفرد ببعض مميزات وصفات سحرية خاصة بها تتفق وخواصها الذاتية من حيث الشكل واللون. مثال ذلك أن هنود بيرو كانوا يستخدمون أنواعا معينة من الحجارة لزيادة محصول الذرة وأحجارا أخرى لزيادة محصول البطاطس ونوعا ثالثا لزيادة الماشية وهكذا. وكانت الأحجار المستخدمة لزيادة نمو الذرة تبدو على شكل قناديل الذرة بعكس الأحجار المستخدمة فى تكاثر الماشية فقد كانت تبدو على هيئة الأغنام.

ويعتقد الناس فى كثير من أنحاء ميلانيزيا أن بعض الأحجار المقدسة تتمتع بنوع من القوى الإعجازية التى تتوافق فى طبيعتها مع شكل تلك الأحجار. مثال ذلك أن أحجار المرجان الملقاة على الشاطىء كثيرا ما تتشكل بفعل الماء بحيث تشبه فاكهة الخبز bread fruit شبها قويا، وعلى ذلك فحين يعثر الرجال هناك على بعض هذه الأحجار المرجانية فإنه يدفنها تحت أشجار فاكهة الخبز على أمل أن يؤدى ذلك إلى

زيادة ثمار الشجرة. فإذا جاءت النتيجة محققة لآماله وتوقعاته فإنه يأخذ من جيرانه قطع المرجان التى لم تحقق مثل هذه الفاعلية ويدفنها بجوار أحجاره هوعسى أن تستمد منها شيئا من الخاصية السحرية الكامنة فيها، وبذلك يوفر لجيرانه أيضا ما يكفيهم من العيش. كذلك تعتبر قطع الحجارة التى تظهر عليها رسوم على شكل حلقات ودوائر صغيرة وسيلة للحصول على النقود. فإذا عثر شخص على قطعة كبيرة منها وتحتها قطع أخرى صغيرة بحيث تبدو جميعها كأنثى الخنزير بين صغارها فإنه يستبشر بأن بيعها لغيره نظير أى مبلغ من المال سوف يعود إليه أخيرا فى شكل خنازير ولا يعزو الملانيزيون تلك القوة الخارقة إلى الحجر ذاته وإنما إلى الروح التى تسكن فيه، ولذا فكثيرا ما يحاول الرجل على مارأينا من قبل أن يسترضى تلك الروح ويستميلها إليه عن طريق تقديم القرابين والأضاحى فوق تلك الأحجار. بيد أن فكرة استرضاء الأرواح واستعطافها تقع خارج دائرة السحر الذى نناقشه هنا وتدخل فى دائرة الدين وفى الحالات التى ترتبط فيها هذه الفكرة بالأفكار والممارسات السحرية الخالصة كما هو الشأن هنا فإنه يمكن ببساطة اعتبار هذه الأفكار والممارسات السحرية هى الأصل الأول وأن فكرة الدين إنما طرأت عليها فى فترة لاحقة من الزمن. والواقع أن هناك أسسا قوية للاعتقاد بأن السحر يمثل مرحلة سابقة على الدين فى التطور الفكرى. وسوف نعود إلى هذه النقطة فيما بعد.

ولقد كان العلماء يعلقون أهمية كبرى على الخصائص السحرية التى تتمتع بها الأحجار النفيسة والحقيقة أن هناك ما يدل على أن هذه الأحجار كانت تستخدم كتعاويذ وأحجبة قبل أن تستخدم فى الزينة بوقت طويل . فقد كان اليونانيون يطلقون اسم شجرة العقيق على نوع من هذه الأحجار التى تظهر عليها رسوم ونقوش تشبه تلك الشجرة. كما كانوا يعتقدون أنه إذا ربطت قطعتان من هذه

الأحجار إلى قرنى وعنق الثور أثناء الحرث فسوف يؤدى ذلك إلى تحقيق وفرة هائلة فى المحصول . كذلك كانوا يستخدمون «حجر اللبن» لزيادة إدرار اللبن إذ شربته المرأة مذابا فى شراب العسل المتخمر. ولا تزال أحجار اللبن تستخدم للآن عند النساء اليونانيات فى كريت ومياوس، كما أن الأمهات المرضعات فى ألبانيا يلبسن تلك الأحجار لزيادة إدراراللبن عندهن. كذلك كان اليونانيون يعتقدون فى وجود حجر يشفى من عضة الثعبان ولذا كانوا يسمونه «حجر الثعبان» ولكى يختبر المرء مفعوله كان يكفى أن يطحنه على شكل مسحوق ثم يرشه على الجرح. وقد استمد «الجمشت» النبيذى اللون اسمه - الذى يعنى حرفيا غير سكران - من الاعتقاد الشائع بأنه يساعد حامله على الاحتفاظ باتزانه، كما كانوا ينصحون الأخوين اللذين يريدان العيش معا فى اتفاق ووئام بأن يحملا معهما دائما قطعتين من المغناطيس تمنعانها بلاشك من التنازع والانفصال نتيجة لانجذاب القطبين أحدهما نحو الآخر.

وتشير كتب الهندوس القديمة إلى إحدى القواعد الهامة التى تحتم على الرجل أن يجلس ليلة زواجه صامتا مع زوجته إلى أن تبدأ النجوم تتلألأ فى السماء، حتى إذا ما ظهرت «نجمة القطب» كان عليه أن يلفت نظر زوجته إليها ثم يخاطب النجم قائلا «أيها النجم الثابت، إننى أراك ثابتا قويا فى مكانك، فلتقف إلى جانبى إذن أيها النجم اللامع الوضاء». ثم يلتفت بعد ذلك إلى زوجته ويقول لها « لقد منحنى بريهاسباتى Brihaspati إياك حتى تحصلى عن طريقى أنا زوجك على الذرية والنسل. ألا فلتعيشى معى لمائة خريف وواضح أن هذه الطقوس تهدف إلى الاحتياط ضد تقلبات الحظ وعدم الاستقرار بفضل التأثير القوى المستمر المستمد من ذلك النجم الدائم. وتعبر قصيدة كيتس Keats الغزلية الأخيرة عن هذه الأمنية ذاتها حين يقول:

«أيها النجم المتلألىء ألاليت لى مثل ثباتك وقوتك ورسوخك وأن تطل من علياء

مـجدك وعـزلتك وانفـرادك طيلة الليل» وليس من شك فى أن الأقـوام الذين يعـيشـون قريبا من البحـر يتأثرون بحركة المد والجزر المستمرة وأن ذلك خليق - تبعا لمبادىء تلك الفلسفة الفجة السـاذجة عن التعاطف والمشابهة التى نناقشها هنا - بأن يجعلهم يكتشفون نوعا من العلاقة المستورة والتوافق الخفى بين الجذر والمد من ناحية وحياة الإنسان والحيوانات والنباتات من الناحية الأخرى. فارتفاع المد بالنسبة لهم ليس مجرد رمز، وإنما هو سبب وعلة للوفرة والحياة والنجاح، بينما هم يرون فى انحسار الماء عاملا حقيقيا من عوامل الفشل والضعف والموت ورمزا كئيبا لهذه الأشياء ويتصور الفلاح فى بريتانى أن البرسيم الذى يبذره أثناء ارتفاع المد سوف يجود نموه، بعكس الحال بالنسبة للبرسيم الذى يبذر أثناء انخفاض الماء وتراجع المد، إذ لن يتم نضجه أبدا كما أن الماشية التى تغتذى عليه يكون مصيرها الموت. وتعتقد زوجة هذا الفلاح أن أفضل أنواع الزبد هى تلك التى تصنع وقت أن يبدأ المد فى الارتفاع، وأنه إذا ظهرت الرغوة فوق سطح اللبن وهوداخل المخضة فإنها لن تزول إلا بانتهاء فترة ارتفاع المد، كما أن الماء الذى تسحبه من البئر وكذلك اللبن الذى تحلبه من البقرة أثناء ارتفاع المد سوف يغلى فى الإناء حتى يفيض منه على النار. وكان بعض القدماء يزعمون أن جلد الفقمة - حتى بعد سلخه - يشعر دائما بطريقة خفية بالحنين إلى البحر، وأنه هذه الجلود كثيرا ما كانت تشاهد وهى تتلوى من الألم والحنين أثناء تراجع البحر وقت الجذر ومن الاعتقادات القديمة التى تعزى إلى أرسطو أنه لا يمكن لكائن أن يموت إلا عند انحسار المد. ولو صدقنا ما يقوله بلينى فى هذا الشأن لوجدنا أن التجربة ذاتها تعزز ذلك الاعتقاد، على الأقل فيما يتعلق بالجماعات التى كانت تعيش على شاطىء فرنسا. كذلك يؤكد لنا فيلوستراتوس Phi-lostratus أنه حين كانت الوفاة تأتى الناس فى قادش فإنهم لم يكونوا يسلمون الروح

أبدا مادام الماء مرتفعا. ولا تزال مثل هذه الأوهام تساور الناس في بعض أنحاء أوروبا، إذ يعتقد سكان الساحل الكانتابري أن الشخص الذي يموت نتيجة لأحد الأمراض المزمنة أوالحادة إنما يلفظ أنفاسه الأخيرة في اللحظة التي يبدأ المد فيها في التراجع. كما أن الكثيرين من الناس في البرتغال وعلى طول ساحل ويلز وفي بعض أجزاء ساحل بريتاني يعتقدون أن المرء إنما يولد لحظة أن يبدأ المد في الارتفاع ويموت لحظة أن يبدأ في التراجع والانحسار. ويؤكد لنا ديكنز Dickens أن هذه الخرافة ذاتها توجد في انجلترا، كما أن السيد بيجوتي Peggotty يذكر أن سكان الساحل لا يموتون أبدا إلا حين يشرف المد على الانحسار تماما وأنهم لا يولدون إلا بعد ارتفاعه بشكل ملحوظ، وأن عملية الولادة ذاتها لا تتم إلا بعد اكتمال الفيضان. والظاهر أن الاعتقاد في أن معظم حالات الوفاة تحدث وقت انخفاض البحر يسود بالمثل على طول الساحل الشرقي لانجلترا من نورثمبرلند حتى كنت kent وليس من شك في أن شيكسبير كان على علم تام بهذا الاعتقاد لأنه يجعل فولستاف Fulstaff يموت بالضبط بين الساعة الثانية عشرة والساعة الواحدة وهو وقت تراجع المد. كذلك يوجد ذلك الاعتقاد على الساحل الباسفيكي لأمريكا الشمالية عند الهايدا. فحين يشرف أحد الرجال الطيبين هناك على الوفاة يخيل إليه أنه يرى أمامه قاربا يحمل عددا من أصدقائه الموتى وهم يقبلون عليه مع المد لدعوته وللترحيب به في عالم الروح، فيقولون له « قم معنا الآن، فالمد على شوك التراجع. لابد لنا من أن نعود » ولقد كان الأهالي الوطنيون في بورت ستيفنس Port Stephens بويلز الجنوبية الجديدة يدفنون موتاهم دائما حين يكتمل المد ويتحاشون القيام بهذه المهمة أثناء الجزر، وذلك لكيلا يحمل الماء معه في انحساره روح الميت إلى بلد آخر بعيد.

ولقد كان الصينيون يستعينون ببعض التعاويذ المعقدة لكى يضمنوا لأنفسهم الحياة الطويلة وتهدف هذه التعاويذ إلى استيعاب الجوهو السحرى وتركيزه فى أنفسهم ، وكانوا يعتقدون أن ذلك الجوهر السحرى يفيض ـ تبعا للمبادىء التشاكلية ـ من الأزمنة والفصول ومن الأشخاص والأشياء الجامدة على السواء. وكانت الوسيلة الوحيدة لنقل هذه التأثيرات الطيبة هى «رداء القبر» الذى كان كثير من الأهالى يحرصون على إعداده أثناء حياتهم ويراعون أن يعهدوا بأمر تفصيله وخياطته إلى الفتيات غير المتزوجات أو إلى امرأة منزوجة صغيرة فى السن، نظرا لأن هناك فرصة مؤكدة لأن تعيش مثل هذه الفتاة أو المرأة لسنوات طويلة مقبلة، وأن جانبا من قابليتها للحياة الطويلة سوف تنتقل بغير شك إلى تلك الملابس التى تخيطها مما سوف يؤجل بالتالى لعدة سنوات اللحظة التى يستخدم فيها ذلك الرداء. وكان الناس هناك يفضلون صنع «رداء القبر» فى السنوات الكبيسة. فقد كان يبدو من البديهى للعقل الصينى أن رداء القبر الذى يصنع فى سنة ذات طول غير عادى يكون أقدر على إطالة حياة صاحبه بدرجة غيرعادية. ومن بين هذه الملابس كان يوجد بوجه خاص رداء كانوا يبذلون فى إعداده الكثير من الجهد والصبر كى تسرى إليه هذه الخاصية الثمينة. وهوعبارة عن عباءة طويلة من الحرير الأزرق القاتم يطرز عليه كلمتا« الحياة الطويلة» بخيوط من الذهب. وكان الصينيون يعتبرون إهداء هذه العباءة الثمينة الفاخرة التى تعرف باسم «ثوب الحياة الطويلة» عملا من أعمال البر بالوالدين ورمزا رقيقا إلى الاهتمام والعناية بأمرهما. ولما كان الهدف من هذا الثوب هو إطالة الحياة فإن صاحبه كان يكثر من ارتدائه وبخاصة فى المناسبات والاحتفالات، كى يتيح لتأثير إطالة الحياة الذى يشع من الحروف الذهبية الكبيرة التى طرز بها هذا الرداء أن يسرى فى جسمه ويتغلغل إلى أعماقه، وأهم من هذا

كله أن الرجل كان يحرص أشد الحرص على أن يرتدى تلك العباءة يوم عيد ميلاده فالحكمة والتفكير السليم يفرضان على المرء أن يحصل فى ذلك اليوم على أكبر قدر ممكن من النشاط الحيوى الذى يتمثل فى مظاهر الصحة والقوة البادية على صاحبها وأن يختزن منها رصيدا ينفق منه خلال بقية العام ولذا كان المالك السعيد المحظوظ لمثل هذا الثوب يتقبل بسرور وانشراح تهانى أصدقائه وأقاربه الذين يعبرون بحرارة عن إعجابهم بتلك الملابس الفخمة الرائعة وبالبنوة الطيبة التى دفعت أبناءه إلى أن يقدموا مثل هذه العباءة الجميلة المفيدة لمن كان السبب فى وجودهم، بينما يلف هو جسمه بعناية وحرص فى ذلك الكفن الرائع الفاخر كى يمتص مفعوله الطيب المبارك بكل مسامه.

كذلك يظهر مبدأ التشابه «الشبيه ينتج شبيه» فى الاعتقاد السائد فى الصين من أن مصير أى مدينة من المدن وقدرها يتأثران تأثرا عميقا بشكلها العام. ومن هنا كانت مصائر المدن وحظوظها تختلف بإختلاف الأشياء التى تقاربها فى الشبه. ولذا يقال أن مدينة تسوين شيوفو Tsuen - cheu - fu العتيقة والتى يشبه هيكلها العام سمك الشبوط كانت تتعرض فى كثير جدا من الأحيان للنهب والسلب والإغارات من مدينة يونج شون Yung- chun المجاورة والتى كانت تشبه فى تخطيطها العام شبكة صيد السمك. وقد ظل الحال كذلك حتى وضع سكان المدينة الأولى خطة جديدة أقيم بمقتضاها معبدان مرتفعان فى وسط المدينة لا يزالان موجودين للآن ، فكان لهما تأثير عجيب جدا فى تغيير مصيرها لأنهما كانا يعترضان تلك الشبكة الوهمية قبل أن تهبط وتطبق بعيونها وفتحاتها الكثيرة على سمكة الشبوط المتخيلة. ومنذ حوالى أربعين سنة تقريبا بذل الحكماء من سكان شنغهاى جهودا جبارة للكشف عن سبب اندلاع الاضطرابات المحلية بكثرة فى المدينة وقد هداهم البحث الدقيق إلى أن

السبب فى حركات التمرد يكمن فى نفس شكل أحد المعابد الجديدة الكبيرة الذى كان قد بنى لسوء الحظ على شكل السلحفاة المائية، وهى حيوان سىء الخلق والسلوك إلى أبعد الحدود. ولقد كانت المشكلة التى تواجه المدينة صعبة للغاية بقدر ما كان الخطر داهما. فقد كان هدم المعبد يعتبر عملا معاديا للدين واعتداء عليه، بينما كان الإبقاء عليه بصورته الراهنة يعنى استمرار الاضطرابات والمخاطر التى قد تؤدى إلى أسوأ النتائج. وعلى أية حال فقد مكنت عبقرية أساتذة ضاربى الرمل الذين حفزتهم خطورة الموقف إلى العمل من أن يتغلبوا على تلك العقبة ويتفادوا بالتالى الأخطار المترتبة عليها وذلك عن طريق ردم بئرين فى المعبد كانا يمثلان عينى السلحفاة. واستطاعوا بذلك إلحاق العمى بذلك الحيوان الشرس المزعج، فلم يعد قادرا على إثارة الشغب والمتاعب.

وقد يلجأ الناس فى بعض الأحوال إلى السحرالتشاكلى أوسحر المحاكاة للتغلب على الفأل السىء وإبطال مفعوله، وذلك عن طريق المحاكاة وتقليد النتائج المتوقعة، على أمل أن تخدع هذه العملية القدر المحتوم فيتم استبدال الكارثة الوهمية بالنكبة الحقيقية. وهذا الأسلوب فى خداع الأقدار يستخدم بطريقة منهجية منظمة فى مدغشقر ، حيث يعتقد الناس أن حظ المرء فى الحياة يتأثر بيوم وساعة مولده فإذا صادف مولده ساعة نحس مثلا كان النحس هو قدره المحتوم إلا إذا أمكن ابعاد الشر ـ أو نزعه كما يقولون ـ عن طريق إيجاد بديل له. وثمة طرق كثيرة متنوعة تحقيق ذلك فإذا كان مولد الشخص فى اليوم الأول من الشهر الثانى من السنة (فبراير مثلا) فإن ذلك يعتبر نذيرا بشبوب حريق فى بيته حين يشب هو عن الطوق. ولكى يسبق الزمن فى ذلك ويتجنب هذه الكارثة فإن أصدقاء الطفل يقيمون كوخا فى أحد الحقول أو مرابض الماشية ويحرقونه، ويراعون أن تكون الأم وطفلها أثناء

ذلك فى الداخل فيقومون بإنقاذهما من الكوخ المحترق بصعوبة قبل أن تأتى عليهما النيران، وذلك إمعانا منهم فى أن يكون لتلك التمثيلية تأثير أقرب إلى الحقيقة والواقع. كذلك يعتبر شهر نوفمبر الذى تهطل فيه الأمطار بغزارة شهر الدموع. وعلى ذلك فإن الطفل الذى يولد فى ذلك الشهر إنما يولد للحزن والأسى. ولكى تنقشع الغيوم التى تتجمع فوق مستقبل حياته يتحتم عليه أن يرفع بيديه الغطاء عن إناء به ماء يغلى وأن يحركه حول جسمه حتى تحقق القطرات المتساقطة من الغطاء مصيره وقدره لأنها تحل محل الدموع التى كان مقدرا أن تنهمر من عينيه حين يكبر وإذا كان القدر يضمر لإحدى الفتيات الصغيرات التى لم تتزوج بعد أن تقوم فى المستقبل بتشييع أبنائها - الذين لم يولدوا بعد أيضا - إلى القبر وأن تراهم يدفنون أمام عينيها وقد تملكها الحزن والأسى، فإنها تستطيع أن تبعد عنها هذه المصيبة بأن تقتل إحدى حشرات النطاط ثم تقوم بتكفينها فى قطعة من القماش وتأخذ فى البكاء عليها مثلما كانت راشيل تبكى أولادها وتنشد لنفسها السلوى والعزاء ، ثم تتناول عددا من تلك الحشرات ذاتها فتنزع عنها بعض أطرافها وأجنحتها الزائدة وترصها حول جسد النطاط الميت الملفوف فى الكفن. ويعتبر الطنين الصادر من تلك الحشرات نتيجة للألم والعذاب. وكذلك اختلاجات أعضائها المشوهة بمثابة الصرخات وحركات التوجع التى تصدر من أهل الميت أثناء الجنازة على الميت. وبعد أن يتم دفن النطاط الميت تترك الفتاة تلك الحشرات الأخرى تواصل بكاءها ونحيبها حتى يخلصها الموت من آلامها ثم تعقص من جديد شعرها الأشعث المتناثر وتعود أدراجها إلى البيت من القبر بخطوات متثاقلة كما لو كان الحزن قد هدها إلا أنها تستطيع منذ تلك اللحظة أن تنظر إلى المستقبل فى بهجة وسرور وأمل لترى أبناءها يعيشون من بعدها، لأنه من غير المعقول أن يدفن المرء أولاده مرتين ويحزن عليهم،

وإذا عبس القدر لشخص ما عند مولده واختاره الفقر حليفا له فإنه يستطيع بسهولة أن يبعد عنه شبح الفاقة، وذلك بأن يشترى اثنتين من اللآلىء الرخيصة التافهة ويدفنهما فى التراب فالأثرياء وحدهم هم الذين يستطيعون فى هذا العالم الاستغناء عن اللآلىء ورميها.

٣ـ السحر الاتصالى :

كانت دراستنا قاصرة فى معظمها حتى الآن على ذلك الفرع من السحر التعاطفى الذى أطلقنا عليه اسم السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة . ولقد رأينا أن المبدأ الرئيسى فيه هو أن «الشبيه ينتج الشبيه» وهذا معناه بقول آخر أن المعلول يشبه علته. والفرع الكبير الثانى للسحر التعاطفى هو ما أسميناه بالسحر الاتصالى وهويقوم على فكرة أن الأشياء المتصلة تظل ـ حتى بعد أن تنفصل تماما أحدها عن الآخر ـ فى علاقة تعاطف بحيث إن ما يطرأ على أحدها يوثر بالضرورة تأثيرا مباشرا على الآخر. وعلى ذلك فالأساس المنطقى للسحر الاتصالى هو وجود نوع من الترابط الخاطىء بين الأفكار كما هو الحال بالنسبة للسحر التشاكلى أيضا. أما الأساس المادى له ـ إذا أمكن الكلام عن مثل هذا الشىء ـ فإنه يشبه تماما الأساس المادى له ـ إذ أمكن الكلام عن مثل هذا الشىء ـ فإنه يشبه تماما الأساس المادى للسحر التشاكلى، وهو وجود وسيط مادى من نوع ما نزعم أنه يقوم بتوحيد وربط الأشياء البعيدة ونقل الانطباعات والتأثيرات من أحدها للآخر على ما يفعل الأثير مثلا فى الفيزياء الحديثة وربما كان أشهر مثل السحر الاتصالى هو التعاطف السحرى الذى يفترض وجوده بين الانسان وأجزاء جسمه كالشعر والأظافر حتى بعد أن تنفصل هذه الأجزاء عنه بحيث أن وقوع شعر شخص ما أو أظافره فى يد

شخص آخر يجعله خاضعا لإرادته مهما بعدت المسافة بينهما . وتشيع هذه الخرافة في العالم كله ، ولذا فسوف نذكر كثيرا بينهما وتشيع هذه الخرافة في العالم كله ولذا فسوف نذكر كثيرا من الأمثلة عنها فيما بعد.

ونحن نعرف أن القبائل الأسترالية تلجأ أثناء حفلات التكريس التي يمر بها أفراد القبيلة من الذكور إلى خلع سن أو أكثر من أسنان الفرد منهم قبل أن يسمح له بالتمتع بحقوق ومزايا الرجل البالغ المكتمل الرجولة. وسبب هذا الاجراء غامض وغير مفهوم[1] ولكن الذي يهمنا هنا هو الاعتقاد باستمرار وجود علاقة التعاطف بين ذلك الصبي وأسنانه بعد خلعها من لثته . ولذا نجد أن بعض القبائل التي تعيش حول نهر دالنج في نيوساوث ويلز يضعون السن المنزوعة في لحاء إحدى الأشجار القريبة من النهر أو من إحدى عيون الماء فإذا نما اللحاء فوق السن أو إذا وقعت السن ذاتها في الماء فإن ذلك يعني أن الأمور سوف تسير على ما يرام . أما إذا انكشف اللحاء عنها وهاجمتها أسراب النمل فإن الأهالي يعتقدون أن ذلك الصبي سوف يقاسي الشيء الكثير من أمراض الفم. كذلك نجد عند المورينج Murring وغيرهم من القبائل التي تعيش في المنطقة ذاتها أن السن المنزوعة كانت تسلم في بداية الأمر لأحد الشيوخ فيحيطها بكثير من العناية والرعاية ويحتفظ بها لبعض

(١) تشيع عادة خلع أسنان الذكور المراهقين أثناء حفلات تكريسهم في كثير من الشعوب والقبائل البدائية وبخاصة في افريقيا وفي السودان الجنوبي بالذات كما هو الحال عند النويرNuer وقد تعرض عالم الانثربولوجيا البريطاني الاستاذ ايفانز برتشارد E.E. Evans- Prichard لهذه العادة أثناء دراسته لنظام طبقات العمر عند النوير مع غيرها من العادات والممارسات التي تؤلف في مجموعها شعائر التأهيل والتكريس هناك. ويذكر ايفانز بريتشارد من ضمن الاسباب التي يتذرع بها النوير لخلع اسنان الشاب أثناء تكريسه الرغبة في أن يبدو فمه مثل فم الضبع علامة على أنه أصبح من المحاربين الذين يحق لهم أن يقوموا بالهجمات والإغارات على القبائل المعادية المجاورة(أ..أ)

الوقت ثم يعطيها لزعيم آخر من زعماء القبيلة وتظل السن تنتقل من زعيم لآخر إلى أن تمر على المجتمع المحلى كله وتصل إلى والد الصبى ومنه إلى الصبى نفسه فى آخر الأمر. ولكن مهما تعددت الأيدى التى تتناولها بهذه الطريقة فقد كانوا جميعا يحرصون أشد الحرص على ألا توضع فى مكان به أى مادة من المواد التى يستعين بها الأهالى هناك فى السحر حتى لايتعرض الصبى لكثير من الأخطار. ولقد حدث أن عهدت هذه القبيلة للدكتور هاويت Howitt ببعض الأسنان التى اقتلعت من عدد من الفتيان أثناء إحدى حفلات التكريس وطلب إليه شيوخ تلك القبيلة فى حزم وتوكيد أن يحفظها فى مكان آمن، وألا يضعها فى كيس كانوا يعرفون أنه يحتفظ فيه ببعض بلورات الكوارتز وذلك حتى لا ينتقل سحر تلك البلورات إلى الأسنان فيصيب الصبية أنفسهم الأذى. وبعد مرور ما يقرب من عام على عودة الدكتور هاويت من الاحتفال زاره أحد رؤوساء القبيلة بعد أن قطع فى رحلته ما يقرب من مائتين وخمسين ميلا لكى يسترد منه تلك الأسنان ، وذكر له أنه أوفد فى تلك المهمة لأن أحد الفتية وقع فريسة للمرض فاعتقد الناس أن الأسنان ذاتها قد لحقها بعض الأذى الذى انتقل إلى الفتى نفسه. ومع أن هاويت أكد له أنها محفوظة فى أمان فى صندوق خاص وأنها بعيدة بذلك عن التعرض لتأثير أى جوهر سحرى مثل بلورات الكوارتز فقد رفض الرجل أن يعود إلى موطن قبيلته إلا بعد أن استعاد الأسنان ولفها فى حرص وعناية لكى يخفيها تماما. كذلك يحرص الباسوتو Basutos على اخفاء أسنانهم المنزوعة حتى لا تقع فى أيدى بعض الكائنات الأسطورية التى تحوم بين القبور والتى تستطيع أن تلحق الأذى بصاحب تلك الأسنان عن طريق التأثير السحرى. ولقد حدث منذ خمسين سنة تقريبا ان اعترضت إحدى الخادمات فى سكس Sussex على إلقاء أسنان أحد الأطفال بعد نزعها على أساس أنه لو عثر عليها أحد

الحيوانات أوعض عليها بأنيابه فسوف تشبه أسنان الطفل الجديدة أنياب ذلك الحيوان وقد استشهدت على صدق ذلك بما حدث لسيدها السابق وكان يدعى سيموند. فقد كانت تبرز من فكه العلوى سن كبيرة جدا تشبه سن الخنزير، وكان هو نفسه يؤكد أن أمه هى المسئولة عن ذلك التشويه لأنها ألقت إحدى أسنانه حين سقطت فى زريبة الخنازير بدون تفكير أو روية . وقد أدت هذه الاعتقادات وأمثالها إلى ظهور بعض الممارسات التى تهدف - تبعا لمبادىء السحر التشاكلى - إلى تعويض الأسنان القديمة بأسنان أخرى أفضل . وعلى ذلك نجد أن الناس فى كثير من أنحاء العالم يميلون إلى وضع أسنان الطفل حين تسقط فى مكان ما بحيث يسهل أن يعثر عليها فأر على أمل أن تكتسب الأسنان الجديدة - بفضل التعاطف الذى يستمر قائما بين الأسنان وصاحبها القديم - نفس القوة والصلابة اللتين تتمتع بهما أسنان القوارض. ويقال إن معظم الناس فى ألمانيا مثلا يعتقدون بأنه ينبغى على المرء حين تسقط إحدى أسنانه أن يضعها فى جحر فأر، وأن وضع أسنان اللبن بالذات فى ذلك المكان يجنب الطفل وجع الأسنان حين يكبر.

كذلك يضع الألمان الأسنان المنزوعة خلف الموقد أو يقذفون بها من فوق رؤوسهم وراء ظهورهم يقولون «أيها الفأر، أعطنى سنك الحديدية الصلبة وخذ بدلا منها سنى المصنوعة من عظم» ويعتقدون أن ذلك كفيل بأن يحافظ على أسنان الشخص على الدوام. وتوجد مثل هذه الممارسات خارج أوروبا أيضا بل وفى أماكن بعيدة جدا عنها مثلما يحدث فى راراتونجا Rara-tonga فى المحيط الهادى حين يردد الناس فى العادة الدعاء التالى:

«أيها الفأر الكبير .. أيها الفأر الصغير

هذه سنى القديمة .. خذاها

وأعطيانى بدلامنها سنا أخرى جديدة

ثم يلقى بالسن بعد ذلك فوق سطوح البيت المغطى بالقش حيث تقيم الفئران فى العادة جحور ها فى تلك الأماكن المهجورة. وليس من شك فى أن السبب فى توجههم بذلك الدعاء إلى الفئران بالذات هوأن أسنان الفئران هى أقوى أنوا ع الأسنان التى يعرفها الأهالى هناك.

ومن الأجزاء الأخرى التى يعتقد كثير من الناس باستمرار وجود الصلة التعاطفية بينها وبين الجسم بعد أن تنقطع كل الروابط الفيزيقية بينهما حبل السرة وكل ما ينزل من جوف المرأة بعد الولادة بما فى ذلك المشيمة. والواقع أن الناس يرون أن هذه الصلة تتمتع بدرجة من القوة والمكانة بحيث تحدد أقدار الأفراد وحظوظهم فى الحياة ونصيبهم من الخير أو الشر. ومن هنا كان الاعتقاد بأن المحافظة على الحبل السرى والمشيمة والعناية بهما تؤثران تأثيرا مباشرا فى نجاح الشخص فى حياته، بينما تعريضهما للتلف أو الضيا ع يكون له تأثير مماثل على صاحبهما. ومن هنا أيضا كان الاعتقاد الشائع عند بعض قبائل غرب استراليا من أن إجادة الرجل للسباحة أو فشله فيها يتوقف على إذا ماكانت أمه قد ألقت بحبله السرى فى الماء بعد الولادة أو لم تفعل. ويعتقد الأهالى الوطنيون الذين يقيمون على ضفاف نهر بنيفاذرPennefather فى كوينزلاند بأن جزءا من روح الطفل تظل ساكنة فى المشيمة، ولذا فإن جدة الطفل تأخذ المشيمة بعد الولادة وتدفنها فى الرمال وتضع على مكان الدفن علامة تميزه كأن تغرز فى الأرض بعض الفروع فى شكل دائرى ثم تربط أطرافها العلوية بعضها إلى بعض بحيث تكون فى نهاية الأمر على شكل مخروط، حتى إذا جاء آنجيا Anjea ـ وهو الكائن الذى يسبب الحمل عند النساء عن طريق وضع أطفال من الطين فى أرحامهن ـ أمكن التعرف على موضع الدفن بسهولة فينقل

الروح إلى أحد الأماكن التى يكثر التردد عليها أوالتى يسكنها مثل الأشجار أو الفجوات التى تتخلل الصخور أو إحدى البحيرات فتظل الروح هناك لمدة سنوات حتى يعود إليها مرة أخرى ليضعها فى جسم طفل آخر لكى تولد من جديد فى هذا العالم، وفى بوناب Ponapw وهى إحدى جزر الكارولين، يوضع الحبل السرى فى إحدى الأصداف ويعامل بطريقة تهدف إلى إعداد الطفل ذاته وتهيئته على أكمل وجه للتكيف مع الحرفة التى اختارها له أبواه. فإذا كانا يريدان مثلا أن يشتغل ابنهما متسلقا للأشجار فإنهما ينقلان الحبل السرى فى أعلى الشجرة وهكذا. ويعتبر سكان جزر كاى kei الحبل السرى أخا أوأختا للطفل، ولذا فإنهم يعلقونه على فروع إحدى الأشجار حتى يستطيع أن يرعى من مكانه شئون الطفل وعند الباتاك Ba-takes فى سومطرة ـ وكذلك عند كثير من الشعوب الأخرى فى نفس المنطقة ـ تعتبر المشيمة هى الأخ الأصغر أو الأخت الصغرى للطفل تبعا لجنس الطفل ذاته ولذا فإنها تدفن أسفل البيت. ويرى الناس للمشيمة صلة قوية بسعادة الطفل أو شقائه، وأنها فى حقيقة الأمر مركز للروح المفارقة(١) القابلة للانتقال والتجول والتي سوف نعود للكلام عنها فيما بعد. ويؤكد باتاك الكارو أن للرجل روحين وأن تلك الروح التى تعيش مع المشيمة أسفل البيت هى روحه الحقيقية أى الروح التى تنجب الأطفال.

---

(١) الروح المفارقة اصطلاح كثير الشيوع فى الكتابات الانثربولوجية القديمة وبخاصة كتابات القرن التاسع عشر التى يتبع أصحابها نظرية الانيميزم Animism أوالنظرية الحيوية التى ترى أن كل ما فى الوجود يتمتع بنصيب من الحياة بشكل أوبآخر. ويذهب أصحاب هذه النظرية إلى أن الرجل البدائى يعتقد بوجود أنواع كثيرة من الأرواح وأن الانسان يملك أكثر من روح واحدة لكل منها خصائصها ووظائفها، وأن الروح المفارقة مثلا لها القدرة على مفارقة الجسد وهو نائم والتجول والاتصال بغيرها من الأرواح وأن هذا النشاط الذى تقوم به أثناء نوم صاحبها هو الذى يبدو له على شكل أحلام. انظر فى ذلك كتابنا عن «تايلور» المرجع السابق ذكره(أ..أ)

ويعتقد الباجاندا أن كل شخص له قرين double يولد معه، ويربطون ربطا قويا بين هذا القرين والمشيمة التى يعتبرونها طفلا آخر. وتقوم الأم بدفن المشيمة عند جذور إحدى أشجار الطلح التى تصبح بذلك شجرة مقدسة إلى أن يتم نضج ثمارها فتقطعها ويقام عليها وليمة مقدسة للعائلة. وعند الشيروكى Cherokees يدفن الحبل السرى للطفل الأنثى أسفل الهاون الذى تدق فيه الحنطة لكى تصبح الفتاة خبازة ماهرة حين تكبر بينما على العكس من ذلك يعلق الحبل السرى للطفل الذكر فوق إحدى الأشجار فى الغابة لكى يصبح الطفل صيادا ولقد كان الإنكا[1] في بيرو يحفظون الحبل السرى للطفل الذكر بعناية فائقة ثم يعطونه للطفل حين يمرض لكى يمصه كذلك كان سكان المكسيك الأقدمون يعطون حبل الولد السرى لجنودهم ومحاربيهم ليدفنوه فى ميدان المعركة حتى يشب الولد شجاعا ومحبا للحرب. بينما كانوا يدفنون حبل البنت السرى بجوار الموقد فى البيت على أمل أن أن يساعد ذلك على تقوية الميل عندها لأداء الأعمال المنزلية وإتقان الطبخ والخبز.

وحتى فى أوروبا نفسها لايزال كثير من الناس يعتقدون أن مصير الشخص مرتبط إلى حد ما بحبله السرى أو بمشيمته . ومن هنا كان الناس فى المناطق

(١) الانكا فى الاصل هم حكام بيرو القدماء، وكانت امبراطوريتهم تعتبر من اكبر الامبراطوريات ، التى كونها الهنود الحمر وارتبطت بها حضارة متقدمة فى المرتفعات المغربية من امريكا الشمالية. وقد ظهرت تلك الامبراطورية حوالى القرن الحادى عشر حتى سقطت عام ١٥٣٣ على أيدى الغزاة الاسبان ويبدو أنها امتدت إلى ما وراء حدود بيرو وحتى شملت أجزاء من اكوادور وشيلى وبوليفيا والارجنتين ولم يلبث اسم الانكا ان اطلق على كل القبائل التى دخلت فى تلك الامبراطورية وليس على العائلة الحاكمة وحدها. وكانت لهم لغة تعرف باسم كيشوا Quechua ولا تزال هى اللغة الوطنية، وكان للمملكة زعيم يعرف باسم ساباSapa ولها قضاة متخصصون يعينهم الرئيس نفسه. وكان مجتمع الانكا مجتمعا اشتراكيا تحرم فيه ملكية الارض ولذا كان الناس يمنحون مساحات من الارض تزيد أو تنقص حسب حاجتهم. وتشتهر حضارة الانكا بمبانيها الضخمة التى تبني من كتل حجرية صماء كما هو الحال على الخصوص في معابد الشمس عندهم(أ..أ).

المتاخمة من بافاريا لنهر الرين يلفون الحبل السرى فى قطعة قماش من التيل القديم ويحفظونه لفترة معينة من الزمن يقطعونه بعدها إلى أجزاء صغيرة أو يخزونه عدة مرات تبعا لما إذا كان الطفل ذكرا أو أنثى حتى يشب الطفل صانعا ماهرا أو خياطة حاذقة.

وفى بدلين تقوم القابلة (الداية) فى العادة بتسليم الحبل السرى بعد تجفيفه إلى والد الطفل مع توكيد التنبيه عليه بضرورة المحافظة عليه والاعتناء به كى ينمو الطفل ويكبر وينجو من الأمراض كذلك يحرص الناس فى بوس وبيرش Beauce & Perche على عدم إلقاء الحبل السرى فى الماء أو النار حتى لايموت الطفل غريقا أو محروقا.

وبناء على ذلك كله فإنه كثيرا ما ينظر إلى الحبل السرى أوإلى المشيمة على العموم كما لو كان حيا، ويعتبر بذلك أخا أو أختا للوليد، أو قد يعتبر بمثابة شىء مادى تسكن فيه الروح الحارسة للطفل أو حتى جزء من روح الطفل نفسه، وزيادة على ذلك فإن العلاقة التعاطفية التى يفترض وجودها بين الشخص ومشيمته أوحبله السرى تظهر بوضوح وجلاء فى العادة الشائعة لدى كثير من الشعوب والتى تتمثل فى معالجة المشيمة أو الحبل السرى بطرق وأساليب يعتقد أنها تؤثر فى خلق الشخص وعمله وحياته كلها، كأن تساعده على السرعة والمرونة إن كان متسلقا للأشجار، أو تمنحه القوة إن كان سباحا، أوتكسبه المهارة والدقة إن كان صيادا أوتهبه الشجاعة إن كان جنديا، كما تمنح المرأة الحذق والمهارة فى أعمال الحياكة والخبز وهلم جرا. وعلى ذلك فإن المعتقدات والممارسات المتعلقة بالمشيمة، وإلى درجة أقل بالحبل السرى، تشبه إلى حد كبير جدا النظرية الشائعة عن الروح المفارقة أوالروح الخارجية والعادات التى تقوم عليها تلك النظرية وعلى ذلك فليس من الإسراف فى شىء أن نذهب إلى القول بأن التشابه ليس مجرد عملية من عمليات

الصدفة العابرة لأن المشيمة تقدم لنا أساسا فيزيقيا (وإن لم يكن بالضرورة هو الأساس الوحيد) لنظرية الروح الخارجية والممارسات المتعلقة بها. ولكننا نرجىء الكلام عن هذا الموضوع إلى موضع آخر من الكتاب.

ويتمثل أحد التطبيقات الغريبة لنظرية السحر الاتصالى فيما يتصوره كثير من الناس من وجود علاقة قوية بين الشخص الجريح ومصدر الجرح بحيث أن كل ما يطرأ على ذلك المصدر أو ينشأ عنه يكون له بالضرورة تأثير مماثل فى الشخص المريض نفسه، سواء أكان ذلك التأثير مفيدا أوضارا ويذكر لنا بلينىpliny أنه لو أصاب شخص ما شخصا آخر بجراح ثم شعر بالأسى لما فعل فما عليه إلاأن يتفل على اليد التى سببت الجرح فيزول الألم فى الحال. وفى ميلانيزيا يبذل أصدقاء الرجل الجريح جهدهم ليحصلوا على السهم الذى أصابه ثم يضعونه فى مكان رطب أو يدفنونه بين أوراق الشجر الندية فيخفف ذلك من التهاب الجرح ويبرأ بعد فترة وجيزة من الزمن، وذلك فى الوقت الذى يعمل فيه العدو الذى أطلق السهم كل ما فى وسعه لكى يزيد الجرح سوءا كأن يشرب هو وأصدقاؤه السوائل والأشربة الساخنة الملتهبة أو يمضغوا الأوراق الحريفة، أملا فى أن يزيد ذلك من التهاب الجرح وتهيجه. بل إنهم يضعون القوس أيضا بالقرب من النار لكى يحققوا نفس الغاية كذلك يحرص الناس على جعل وتر القوس مشدودا ويقرعون عليه من حين لآخر فيزداد ألم المصاب من توتر الأعصاب وتقلصات التتانوس ويقول بيكون Ba-con إنه كثيرا ما يقال إن تزييت السلاح الذى تسبب فى الجرح أو دهنه يساعد على التئام الجروح ذاتها ولكن أهل الخبرة يقولون - وإن كنت أنا نفسى لا أميل إلى تصديق ما يقولون - إنه فى اجراء هذه التجربة لابد من مراعاة بعض الأمور الهامة. وأول هذه الأمور أن يصنع الدهان ذاته من عدد من العناصر المختلفة لعل أغربها وأندرها هو الطحالب أوالعفن الذى يظهر على جمجمة شخص مات ولم يدفن بعد موته.

وكذلك الدهون المستخلصة من أنثى خنزير وأنثى دب ماتا أثناء الولادة. ولم يكن ذلك الدهان الثمين المركب من هذه العناصر وغيرها يوضع ـ كما يقول ذلك الفيلسوف ـ على الجرح. نفسه بل على السلاح، وأن هذا هو ماكان يحدث حتى فى الحالات التى يوجد المصاب فيها فى مكان بعيد جدا ولايعرف عنه شىء. كذلك يذكر لنا أنه أثناء إجراء إحدى هذه التجارب حاول البعض إزالة الدهن عن السلاح بدون علم المصاب فكانت النتيجة أن شعر المريض فى الحال بموجة عنيفة من الألم تلبث أن اختفت بعد أن أعيد دهن السلاح من جديد. ويؤكد الناس من ناحية أخرى أنه إذا استحال الوصول إلى السلاح الذى أحدث الجرح أو الإصابة فإنه يمكن أن يوضع فى الجرح أى أداة أخرى من الحديد أوالخشب تشبه السلاح ذاته بحيث يدمى الجرح ثم تدهن تلك ازداة بذلك الدهان فيكون له نفس الأثر والمفعول . ولاتزال هذه الأنواع من الأدوية التى يرى بيكون أنها تستحق الاهتمام شائعة للآن فى المقاطعات الشرقية من انجلترا. ففى سفولك Suffolk مثلا إذا جرح شخص نفسه بالمطواة المعقوفة أو المنجل فإنه يحرص على أن يحتفظ بالسلاح لامعا، كما يدهنه بالزيت من حين لآخر حتى يحفظ الجرح من التقيح. كذلك إذا دخلت شوكة أو «شجيرة» ـ كما يقول ـ فى يده فإنه يدهن تلك الشوكة بعد إخراجها بالزيت أو الدهن . وقد زار رجل ما أحد الأطباء ليعرض عليه يده الملتهبة نتيجة لدخول شوكة فيها بينما كان يصلح سياج مزرعته. فلما ذكر له الطبيب أن يده متقيحة قال له الرجل:«لم يكن ينبغى أن يحدث ذلك لأننى قمت بتزييت الشوكة جيدا بعد أن أخرجتها من الجرح» وحين تجرح قدم الحصان نتيجة لدخول مسمار فيها، فالعادة أن يحتفظ السائس فى سفولك بالمسمار ويعكف على تنظيفه وتزييته كل يوم حتى لا يتقرح الجرح. وبالمثل فإن العمال فى مقاطعة كمبردج يعتقدون أنه إذا دخل مسمار فى قدم

حصان فإن الأمر يستلزم دهن المسمار بالشحم أوالزيت ووضعه فى مكان آمن وإلا استحال شفاء الحصام. ولقد حدث منذ سنوات أن استدعى أحد الجراحين البيطريين لعلاج حصان أصيب ببعض تمزقات فى جسمه نتيجة لاحتكاكه بمفصلات بوابة إحدى المزارع. وحين وصل الطبيب إلي المزرعة وجد أن الناس لم يفعلوا أى شيء على الإطلاق للحصان المجروح. بينما كان أحد الرجال يعمل بجد ومثابرة فى نزع المفصلات من عامود البوابة لكى يقوم بدهنها وتزييتها ثم الاحتفاظ بها فى مكان آمن، وذلك تبعا لإيمان حكماء كمبردج من أن ذلك العمل يؤدى إلى سرعة شفاء الحصان. كذلك يعتقد القرويون فى اسكس Essex أنه إذا طعن رجل بسكين فإنه يجب لشفائه تشحيم السكين ووضعها على السرير الذى يرقد عليه المريض وينصح الناس في بافاريا بأن تغمس قطعة من التيل فى الشحم ثم تربط إلى حد الفأس الذى تسبب في الجرح مع مراعاة أن يتجه الجانب الحاد إلى أعلى، وسوف يلتئم الجرح بمجرد أن يجف الشحم على السلاح، وبالمثل فإن الناس فى جبال هارتز Harz يقولون إنه حين يجرح شخص نفسه فإنه يجب عليه أن يدهن السكين أو المقص بالدهن وأن يضعه بعد ذلك فى مكان جاف باسم الأب والابن والروح القدس، وسوف يلتئم الجرح حين يجف الدهن أيضا، وعلى أية حال فإن الكثيرين من الناس فى ألمانيا يرون أنه يتعين على المرء أن يضع السلاح الذى يجرحه فى مكان رطب من الأرض، على أساس أن الجرح يلتئم حين يصدأ السلاح، بينما ينصح آخرون فى بافاريا بدهن الفأس أو أى سلاح آخر بالدم ثم وضعه تحت طنف البيت لنفس الغاية.

هذا النوع من التفكير الذى يشترك فيه أهل الريف فى انجلترا وألمانيا من ناحية

والشعوب الهمجية فى ماليزيا وأمريكا من ناحية أخرى[١] يذهب خطوة أبعد من ذلك عند السكان الأصليين فى وسط استراليا الذين يعتقدون أنه يتعين على أقارب الجريح الأقربين تحت ظروف معينة أن يغطوا أجسامهم تماما بالشحم ويفرضوا قيودا معينة على طعامهم وأن يتصرفوا بطريقة معينة أيضا فى مختلف المناسبات حتى يضمنوا شفاء المريض. وعلى هذا الأساس، فحين يتم ختان أحد الصبية فإن الأم تمتنع عن أكل لحم الأوبســــوم Opoosum[٢] ولحم نوع مـــعين بالذات من العظايا(السحالى) والثعابين والدهون بمختلف أنواعها لكى يلتئم الجرح بسرعة ولايتأخر شفاء ابنها. كذلك تقوم الأم بتزييت عصا الحفر[٣] التى تستخدمها ولا تدعها تغيب عن بصرها قط، لدرجة أنها تضعها بجانب رأسها بالليل - حين تنام ولا تسمح لأحد غيرها حتى بأن يلمسها. يضاف إلى ذلك أنها تدلك جسمها كل يوم بتلك

---

(١) يظهر هنا بوضوح منهج فريزر فى المقارنة من ناحية وفكرته عن تطور المجتمع البشرى من ناحية أخرى، فالمقارنة عنده كما هى عند غيره من علماء الانتربولوجيا فى القرن التاسع عشر تعنى جمع المعلومات المتشابهة من مختلف المجتمعات والشعوب بصرف النظر عن اختلافات الزمان والمكان والانماط الثقافية والابنية الاجتماعية، بينما كانت النظرة التطورية السائدة بين علماء ذلك القرن ترى أن المجتمعات الانسانية المختلفة القائمة حينذاك تمثل مختلف المراحل التطورية التى مر بها المجتمع الانسانى فى عمومه خلال تاريخه الطويل، ومن هنا فإن فريزر يربط بين أهل الريف فى المانيا وبريطانيا من ناحية والشعوب الهمجية فى ماليزيا على اعتبار أنهم يمثلون - من بعض الوجوه على الزقل - مرحلة تطورية واحدة، وهى مرحلة أرقى من تلك التى يمثلها أهالى وسط استراليا الاصليون الذين يذهبون فى تصوراتهم الخاطئة للعلاقات بين الاشياء إلى أبعاد لا تجدها عند الملانيزيين أو فلاحى أوروبا، وذلك على أساس أنه كلما تقدم المجتمع الانسانى خضع الفكر البشرى لمحكات ومعايير ومقاييس منطقية أكثر دقة، كما أن ترابط الافكار وتداعى المعانى أصبح أقرب إلى الصحة والصدق والواقع.(أ.أ)

(٢) الاويوسوم أحد الحيوانات الثديية الكيسية

(٣) المقصود بعصا الحفر Digging stick العصا التى يستخدمها أهالى استراليا الاصليون وكثير من الشعوب البدائية فى افريقيا وغيرها فى نبش الارض لاستخراج الدرنات والجذور المدفونة فى باطنها، وتعتبر هناك الاداة الوحيدة لتقليع الارض.

الدهون رجاء أن يساعد ذلك بشكل أو بآخر على التئام الجرح. ويتخذ هذا المبدأ صورة أكثر تهذيبا وتطورا عند الفلاحين الألمان، إذ يقال إنه حين يكسر ساق أحد الخنازير أو أحد الأغنام فإن الفلاح فى المناطق المتاخمة للراين من بافاريا يربط ساق أحد الكراسى بالضمادات والأربطة بنفس الطريقة التى تتبع فى تجبير الكسور ويمتنع عن الجلوس عليه أونقله من موضعه أو حتى لمسه لبضعة أيام خشية أن يتسبب ذلك فى زيادة آلام الحيوان المصاب وتأخر شفائه. وواضح فى هذه الحالة الأخيرة أننا قد خرجنا تماما من نطاق السحر الاتصالى إلى مجال السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة. فساق الكرسى التى تعالج بدلا من ساق الحيوان لاتنتمى بأى حال إلى ذلك الحيوان كما أن ربطها بالأربطة والضمادات هو مجرد تمويه لطريقة العلاج التى قد تتبعها الجراحة العلمية فى علاج المريض الحقيقى.

وربما كانت العلاقة التعاطفية المفروض وجودها بين الرجل والسلاح الذى جرحه ناشئة من فكرة أن الدم الذى يلوث السلاح يستمر فى الإحساس والتجاوب مع الدم الذى يسرى فى جسم الجريح. ولمثل هذا السبب تحرص جماعات البابوان Papuans فى تومليو Tumleo - وهى إحدى الجزر القريبة من غينيا الجديدة - على أن يلقوا فى البحر بالضمادات الملوثة بالدماء بعد أن تكون قد استخدمت فى تضميد الجروح وذلك حتى لا تقع فى أيدى أعدائهم فيستخدموها فى ممارسة السحر للإضرار بهم وإيذائهم. ولقد حدث ذات مرة أن جاء رجل إلى مقر إحدى الإرساليات التبشيرية هناك والدم ينزف من فمه بينما كانت زوجته تتبع خطواته وتبذل كثيرا من الجهود المضنية لكى تجمع كل الدم الذى نزف منه لإلقائه فى البحر. وعلى الرغم من كل ما يبدو من شذوذ هذه الفكرة وغرابتها بالنسبة لنا فقد تكون أقل غرابة من الاعتقاد فى استمرار التعاطف السحرى بين الشخص وملابسه بحيث أن ما يحدث للملابس

ينعكس بالضرورة على صاحبها مهما كان بعيدا عنها فى ذلك الوقت. مثال ذلك أن الساحر فى قبيلة وتجوابالوك Wotjobaluk فى ڤيكتوريا قد يحصل على قطعة من فراء الأويسوم التى يستخدمها أحد الأشخاص ويشويها ببطء على النار فيشعر صاحبها بالمرض بداخله أثناء ذلك. فإذا أمكن إقناع الساحر بأن يوقف مفعول سحره فإنه يسلم قطعة الفراء إلى أصدقاء المريض ويطلب إليهم أن يضعوها فى الماء كما لو كانوا يطفئون النار وبمجرد أن يتم ذلك يشعر المريض بالراحة والهدوء حتى يشفى تماما. وفى جزيرة تانا Tanna وهى إحدى جزر الهبريد الجديدة New He-prides يحاول الرجل الذى يحمل ضغنا لآخر ويتمنى موته أن يحصل على أى قطعة من القماش تكون قد لامست جسم غريمه وعلق بها شىء من العرق. فإذا أفلح فى ذلك فإنه يحكها جيدا بأوراق وفروع شجرة معينة بالذات ثم يلفها كلها معا على شكل لفافة أسطوانية ويضعها فى النار لكى تحترق ببطء وحين تبدأ النار تلتهم تلك اللفافة يقع ذلك الغريم فريسة للمرض ثم يموت بمجرد أن تتحول اللفافة إلى رماد. ومهما يكن من شىء فإن التعاطف السحرى فى هذا النوع الأخير من الممارسات لا يقوم بين الرجل وقطعة القماش بقدر ما يقوم بينه وبين العرق الذى يفرزه جسمه، وإن كانت هناك حالات أخرى مماثلة يتبين منها أن الملابس قد تكفى وحدها لتمكين الساحر من النيل من ضحيته . فالساحرة فى ثيوكريتوسTheocritus(١) مثلا تصهر

(١) من اهم الشعراء اليونان الذين ارتبطوا بما يعرف باسم «شعر الرعاة» ظهر فى القرن الثالث قبل الميلاد، وهو فى الاصل من صقلية وقد عاش بعد ذلك فى الاسكندرية وكان شاعر البلاط فى عهد بطليموس الثانى (فيلادلفوس) ويعتبره كثير من مؤرخى الآداب القديمة منشىء الشعر الرعوى كفرع متميز فى الأدب اليونانى القديم وان الشعراء الذين جاءوا من بعده وتغنوا بالاناشيد الرعوية من امثال فرجيل فى الادب اللاتينى كانوا مجرد مقلدين من أهم أناشيده الرعوية أنشودة، يصور فيها الحياة فى الاسكندرية على ايامه(أ..أ).

تمثالا أو قطعة من الشمع لكى (يذوب) فى حبها حبيبها الغادر، ولا تنسى فى الوقت نفسه أن تلقى فى النار بعض الخيوط التي سقطت من عباءته أثناء وجوده فى منزلها، ويقول الناس فى بروسيا أنه إذا أفلح اللص فى الافلات والهرب فإن أفضل ما يمكن عمله هو الحصول على أى شيء يكون قد سقط من ملابسه أثناء فراره و(ضرب) ذلك الشيء بقسوة وعنف فيقع اللص نفسه فريسة للمرض. ويبدو أن هذه مسألة شائعة واعتقاد راسخ فى أذهان عامة الناس هناك، فمنذ ما يقرب من ثمانين أو تسعين سنة اكتشف الناس فى منطقة قريبة من بيرند perend رجلا يحاول سرقة بعض عسل النحل ولكنه أفلت تاركا معطفه وراءه. وحين سمع اللص أن صاحب العسل ينوى أن يمزق المعطف إربا للانتقام منه استولى عليه الرعب الذى أفقده الحركة حتى مات.

وليس من الضرورى أن يتم السحر التعاطفى فى كل الحالات عن طريق الملابس أو بعض أجزاء الجسم بعد انفصالها عنه، إذ كثيرا ما يستعان فيه بالآثار التى يطبعها الجسم على الرمل أوالتراب ويتمثل هذا بوضوح فى الخرافة الشائعة فى كل أنحاء العالم من أنه يمكن إلحاق الأذى بأقدام الشخص عن طريق الأثر الذى تتركه قدماه فى الأرض. فأهالى جنوب شرق استراليا مثلا يعتقدون بأنه فى الإمكان إصابة الشخص بالعرج إذا غرزت بعض الشظايا الحادة من الكوارتز أو الزجاج أو العظم أو الفحم الحجرى فى آثار قدميه. وكثيرا ما تنسب الآلام الروماتيزمية عندهم إلى هذا السبب. ولقد سأل الدكتور هاويت ذات مرة رجلا يعرج بشكل ملحوظ فى تاتونجولانج Tatungplung عما أصابه فأجابه بأن شخصا ما قد وضع (قارورة) فى قدمه. وكان الرجل يعانى فى حقيقة الأمر من الروماتيزم ولكنه كان يتصور أن أحد أعدائه تعرف على آثار قدميه فى الأرض فغرز فيها قطعة زجاج من قارورة مكسورة

فانتقل مفعولها السحرى بالتالى إلى أقدامه.

والواقع أن هذه الممارسات تشيع فى كثير من أنحاء أوروبا ذاتها. ففى مكلنبرج Mecklenburg مثلا يسود الاعتقاد بأن غرز مسمار فى الأثر الذى تتركه القدم يصيب صاحبها نفسه بالعرج، وإن كان البعض يشترطون لذلك أن يكون المسمار ذاته منزوعا من نعش شخص ميت. وكثيرا ما يلجأ الناس فى بعض أنحاء فرنسا إلى هذه الطريقة لإيذاء أعدائهم. ويروى عن إحدى العجائز التى كان تتردد على ستو Stow فى سفولك حيث كانت تمارس السحر والشعوذة أنه حين كان شخص ما يسير خلفها ثم يغرز مسمارا أو سكينا فى آثار قدميها فى التراب فإنها كانت تقف فى الحال فى مكانها فلا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة حتى ينزع المسمار أو السكين. وعند السلاف الجنوبيين تحاول الفتاة أن تجمع التراب الذى انطبعت فيه آثار أقدام الرجل الذى تعشقه ثم تضعه فى آنية الزهور وتزرع فيه إحدى أزهار القطيفة الذهبية (الماريجولد marigold) - وهى من الزهور التى لا تذبل أبدا - أملا فى أن ينمو حبها دائما فى قلبه فلا يذبل أبدا مثلما تنمو القطيفة الذهبية وتزدهر وينتقل مفعول هذه التعويذة الغرامية إلى الرجل عن طريق التراب الذى داس عليه ولقد كان الدينماركيون القدامى حين يريدون إبرام أحد الاتفاقيات أوالمعاهدات يلجئون إلى طريقة ترتكز فى أساسها على نفس فكرة العلاقة التعاطفية بين الرجل وآثار قدميه. فكان الأطراف المعنيون يسكبون بعض قطرات من دمائهم على آثار أقدام بعضهم بعضا كضمان الاخلاص والولاء. ويبدو أن مثل هذه الخرافات كانت تشيع عند الإغريق القدماء الذين كانوا يعتقدون أنه لو داس حصان على الاثار التى تتركها أقدام الذئب فى الأرض تخدرت أقدام الذئب نفسه، كما كان يعزى إلى فيثاغورس أنه كان ينهى الناس عن غرز المسامير أو السكاكين فى الاثار التى تتركها أقدام

الآخرين فى التراب.

ولقد كان الصيادون فى كثير من أنحاء العالم يأخذون هذه الخرافة ذاتها فى اعتبارهم ويستغلونها فى التغلب على القنيصة، فكان الصياد الجرمانى مثلا يغرز مسمارا منزوعا من نعش فى الأثر الذى يتركه الحيوان الذى يطارده ، اعتقادا منه أن ذلك سوف يعطل الحيوان عن الهرب، كذلك يلقى أهالى ڤيكتوريا الأصليون بعض الجمرات الملتهبة فى الطرق والمسارب التى تسلكها الحيوانات حين يطاردونها . بينما يلقى الصيادون عند الهوتنتوت[1] Hottentot فى الهواء بقبضة من الرمال يأخذونها من مواطىء أقدام الحيوانات اعتقادا منهم أن ذلك سوف يقيد حركتها ويمنعها من الهرب. ولقد كان من عادة هنود طومسون أن يضعوا التعاويذ السحرية فى طريق الغزلان الجريحة ويرون أنه ليس ثمة ما يدعوهم بعد ذلك إلى متابعة الحيوان فى ذلك اليوم على الأقل، لأن التعويذة سوف تمنعه من الهرب أو حتى الابتعاد، وأنه لن يلبث أن يموت . وبالمثل كان هنود الأوچبواى يضعون «الدواء ـ على حد تعبيرهم ـ فى طريق أول دب يصادفونه معتقدين أن ذلك سوف يجعل الحيوان يبدو قريبا منهم بحيث يصبح على مرمى البصر، حتى ولو كان يبعد عنهم فى واقع الأمر مسيرة

---

(١) من الشعوب الهامة فى جنوب افريقيا، وينتمون مع البوشمن إلى نفس السلالة ونفس الثقافة وان كانت ثقافتهم خضعت لكثير من التغيير بعد اتصالهم بعدد من الشعوب الاخرى. ويمثل الهوتنتوت على العموم إحدى المراحل الدنيا من التطور الاجتماعى فهم يعتمدون فى معاشهم فى الأغلب على قنص الحيوان، ولذا ينقسمون إلى عدد من الزمر الصغيرة حتى يسهل عليهم التنقل والحركة وراء الصيد. ومع ان لكل زمرة من هذه الزمر رئيسا ينظم لهم رحلات القنص فإنه لا يتمتع فى حقيقة الامر بأى سلطة سياسية حقيقية بحيث أن الكثيرين من علماء الانثربولوجيا يميلون إلى أن ينكروا عليهم وجود أى تنظيم سياسى بالمعنى الدقيق للكلمة. ويرتكز النظام الدينى عند الهوتنتوت على عبادة الاسلاف.

يومين أو ثلاثة، لأن من خصائص تلك التعويذة أنها تختزل الرحلة التى تستغرق بضعة أيام إلى عدة ساعات فقط. ويطعن الصيادون فى قبيلة الريواEwa بغرب إفريقيا آثار أقدام الحيوان بعصا ذات طرف مدبب لكى يقعدوه عن الحركة ويتمكنوا بذلك من اللحاق به.

ومع أن آثار الأقدام هى أوضح الآثار التى يمكن للجسم أن يتركها وراءه فإنها ليست الشىء الوحيد الذى يمكن الاستعانة به فى التأثير السحرى على الإنسان. فالأهالى الوطنيون فى جنوب غرب أستراليا يعتقدون أنه من السهل إلحاق الأذى بأى شخص عن طريق دفن بعض شظايا الكوارتز أو الزجاج أوغير ذلك من الأجسام الحادة فى الأثر الذى يطبعه جسمه أثناء الاسترخاء فتسرى الخاصية السحرية التى تكمن فى تلك الأجسام الحادة إلى جسم الضحية وتسبب له آلاما مبرحة يردها الأوروبيون (الجهلة) إلى الروماتيز. وهذا يفسر لنا السبب فى أن الفيثاغورثيين كانوا يعتبرون من أهم المبادىء التى يجب على المرء التمسك بها أن يقوم بترتيب فراشه بمجرد الاستيقاظ من النوم حتى تختفى كل الاثار التى طبعها جسمه على الفراش فليست هذه القاعدة - بكل بساطة - سوى إجراء وقائى ضد السحر، وهى بذلك جزء من قانون كلى عام يصدق على جميع القواعد والمبادىء الخرافية التى كان القدماء ينسبونها إلى فيثاغورس وإن لم يكن ثمة أدنى شك فى أنها كانت معروفة لدى الأسلاف الهمج الذين انحدر منهم اليونانيون القدماء قبل أن يولد الفيلسوف بعهد طويل.

٤ـ تقدم الساحر:

ونقف عند هذا الحد فى دراستنا للمبادىء العامة التى يقوم عليها السحر التعاطفى. ولقد استمدت الأمثلة الموضحة لهذه المبادىء فى الأغلب مما قد يمكن تسميته بالسحر الخاص Private Magic وهو الطقوس والتعزيم التى تمارس إما لصالح أفراد معينين بالذات وإما لإلحاق الأذى بأشخاص آخرين معينين أيضا. ولكن يوجد فى العادة بالإضافة إلى ذلك فى المجتمع الهمجى ما يمكن تسميته بالسحر العام أو السحر العمومى Public Magic وهو السحر الذى يمارس من أجل المجتمع كله. فحيث تمارس الطقوس التى من هذا النوع الذى يهدف إلى تحقيق الخير أو الصالح العام يكون من الصعب اعتبار الساحر ذاته مجرد ممارس خاص، وإنما يصبح إلى حد ما «موظفا» أو ممارسا عاما. ويعتبر ظهور هذه الفئة من «الممارسين» أو «الموظفين» خطوة هامة جدا فى التطور السياسى والدينى للمجتمع[1] فحيث

---

(١) الواقع أن الفرق بين الساحر العمومى وبين رجل الدين ليس واضحا تماما فى كثير من المجتمعات «البدائية» وبالتالى فى كثير من الكتابات الانثربولوجية والاجتماعية.وقد أدى هذا الغموض إلى تضارب الآراء حول ما يمكن اعتباره سحرا وما يصح ادخاله ضمن دائرة الدين. وقد يكفى للتدليل على ذلك أن تقارن بين موقف فريزر نفسه وموقف عالم الاجتماع الفرنسى اميل دوركايم فبينما يذهب فريزر إلى أن الدين يشترط الاعتقاد فى الكائنات الروحية أو الآلهة وأن السحر يتألف من الاعمال والممارسات التى تتصل بالكائنات الاخرى يرى دوركايم أن الطقوس التى تتعلق بالاشياء المقدسة، أيا كانت هذه الاشياء والتى تمارس على المستوى الجماعى تعتبر دنيا، وذلك بعكس الشعائر والطقوس والممارسات الفردية فإنها تدخل فى باب السحر. ويبدو عمق هذا التضارب حين ننظر إلى بعض الطقوس والشعائر المحددة بالذات. وربما كان أفضل مثل لذلك هو الاجتماعات الدورية التى تقيمها العشائر الطوطمية وتمارس فيها بعض الطقوس التى تهدف إلى إرضاء الطوطم والتقرب إليه ثم ذبحه وأكل لحمه لاكتساب صفاته وخصائصه. فمثل هذه الممارسات تعتبر فى نظر فريزر أقرب إلى الممارسات والطقوس السحرية(العامة) وهى تخرج بذلك عن مجال الدين لأنها لا تتعلق بالكائنات الروحية نظرا لأن الطوطم ليس إلا الحيوان.الذى يعتقد أفراد العشيرة أنهم انحدروا منه كما ان الغرض من تلك الطقوس هو تقوية الروابط التى تربطهم به. أما دوركايم فيرى الممارسات الطوطمية ممارسات دينية لأنها تتعلق بالكائنات المقدسة (الطواطم) حتى وان لم تكن كائنات روحية كما أنها تمارس على المستوى الجماعى نظرا لأن جميع أفراد العشيرة يشتركون فيها، علاوة على أنها تهدف فى آخر الأمر إلى صالح الجماعة ككل. انظر فى ذلك كتابنا البناء الاجتماعى ـ الجزء الثانى ـ الانسان، صفحات ٥٣٠ وما بعدها(أ..أ).

يتوقف خيرالقبيلة وصالحها مثلا على أداء هذه الممارسات السحرية فإن الساحر نفسه يحتل مركزا عاليا ويحظى بقدر هائل من النفوذ وحسن السمعة، بل إنه قد يرقى إلى مرتبة الرئيس أوالملك ويتمتع بسلطاته. ومن هنا كانت هذه المهنة تجذب إلى صفوفها عددا من أكفأ رجال القبيلة وأكثرهم طموحا لأنها تفتح لهم باب الأمل فى تحقيق المجد والثروة والسلطة بشكل لايتوفر فى أى مهنة أخرى. ويدرك أصحاب العقول الناضجة الذكية كيف يستطيعون أن يخدعوا بسهولة زملاءهم الذين يقلون عنهم ذكاء وفطنة ، وأن يستغلوا نزعتهم لتصديق الخرافات فى تحقيق أغراضهم ومصالحهم الخاصة. ولايعنى هذا أن الساحر شخص كذاب ومخادع دائما وبالضرورة، إذ غالبا ما يكون مخلصا فى اعتقاده بأنه يمتلك بالفعل تلك القوى العجيبة التى يعزوها إليه أتباعه السذج فى المجتمع. ولكن كلما كان الساحر أكثر حكمة وفطنة وذكاء كان أقدر بالتالى على أن ينفذ ببصيرته خلال المغالطات والأباطيل التى ترزح تحتها الأذهان الكليلة الواهنة. وعلى ذلك فليس ثمة شك فى أن أفراد المهنة الأكثر ذكاء ودهاء يميلون بشكل أو بآخر إلى الغش والخداع عن قصد وعمد. وأن هؤلاء الأفراد أنفسهم هم الذين يستطيعون بفضل قدراتهم الفائقة أن يبلغوا القمة ويحتلوا أعلى مناصب السلطة والقيادة. ويعترض طريق الساحر المحترف كثير من المزالق بحيث لا يستطيع أن يشق طريقه بسلام فى العادة سوى الشخص الذى يتمتع بنصيب وافر جدا من القدرة على ضبط النفس وتمالك الأعصاب ونفاذ البصيرة.

إن مهنة السحر، بل كل ما يقدمه الساحر للناس من أعمال وممارسات ليست سوى ادعاءات باطلة لا يمكنه التدليل عليها والاستمرار فيها إلا بالخداع المتعمد أو غير المتعمد. ومن هنا فإن الاسحر الذى يؤمن بإخلاص فى صدق أعماله وممارساته

الشاذة الغريبة يكون دائما عرضة للخطر من الساحر المخادع الذى يلجأ إلى الغش والاحتيال عن عمد، كما أن استمراره فى ممارسته للمهنة لن يدوم طويلا.

فالساحر الشريف يتوقع دائما أن تؤدى تعاويذه إلى النتائج المفروض حدوثها. وحين تفشل هذه التعاويذ والتعازيم فى تحقيق النتائج المرجوة يتملكه الارتباك والحيرة ليس فقط نتيجة لفشله بل وأيضا للنتائج الخطيرة التى سوف تترتب على ذلك الفشل. فهو على العكس من زميله المخادع المحتال لا تحضره المعاذير الجاهزة التى يبرر بها فشله. وقبل أن يعثر على عذر ملائم يكون عملاؤه قد انقلبوا عليه وهم فى غمرة اليأس والغضب وفتكوا به.

والنتيجة الهامة من هذا كله هى أنه فى هذه المرحلة من التطور الاجتماعى تميل السلطة العليا إلى التركز فى أيدى أشد ذكاء وأبعدهم عن استقامة الخلق. ولو استطعنا أن نوازن بين الأضرار الناشئة عن التجائهم إلى الغش والفوائد التى يجنيها المجتمع من الاستعانة بخبراتهم وذكائهم فقد نجد آخر الأمر أن كفة الخير ترجح بكثير على كفة الشر. فليس ثمة شك فى أن الشرفاء الأغبياء الذين يشغلون مناصب عليا قد جلبوا على الدنيا من الشرور والويلات أضعاف ما تسبب فيه الأشرار الأذكياء فالأغلب أنه حين يفرغ المخادع الذكى من تحقيق مآربه بحيث لا تبقى له بعدها أية رغبات أو أهواء شخصية أخرى فإنه يسخر ملكاته وقدراته ومواهبه لخدمة الاخرين. وكثير من الناس الذين سلكوا من أجل الوصول إلى السلطة سبلا بعيدة كل البعد عن السلوك القويم أصبحوا من أكثر الناس نفعا لغيرهم بصرف النظر عما إذا كانت السلطة التى يجرون وراءها وحصلواعليها بالفعل هى السلطة السياسية أوغيرها من السلطات. وفى ميدان السياسة بالذات كثيرا ما نجد أن الشخص الذى يجيد تدبير المؤامرات وحبك المكائد ولا تقف أية اعتبارات فى

سبيل تحقيق أهدافه قد ينتهى بأن يصبح حاكما عادلا كريما فيحقق الكثير أثناء حياته ويبكيه الناس بعد مماته ويثير الإعجاب فى نفوس الأجيال التالية. ويكفى أن نذكر هنا اثنين من أفضل الأمثلة لهذه الفئة من الناس ونعنى بهما يوليوس قيصر وأغسطس. وهذا فى الوقت الذى يظل الشخص الغبى على غبائه طيلة حياته، وكلما ازداد تركيز السلطة فى يديه ازداد الاحتمال فى أن يستخدمها بطريقة تجلب الكوارث والنكبات ومن المحتمل أن أفدح النكبات فى التاريخ الإنجليزى ـ ونعنى بها الصدام مع امريكا ـ لم تكن لتحدث أبدا لو لم يكن جورج الثالث ملكا أمينا ومغفلا.

فتأثير مهنة السحرالعمومى فى تكوين المجتمع الهمجى يتضح إذن فى محاولة تركيز السلطة والإشراف على شئون ذلك المجتمع فى أيدى أكثر الناس مهارة وقدرة، ونقل توازن القوى من الجماعة إلى الفرد ثم إحلال الملكية محل الديمقراطية أوعلى الأصح محل أوليجاركية الشيوخ وكبار السن[1] لأن أمور الحكم فى المجتمع الهمجى تنحصر فى مجلس معين من الشيوخ وكبار السن وليس فى جمع أفراد المجتمع من الذكور البالغين. وبصرف النظر عن الأسباب التى أدت إلى ذلك التغير وكذلك عن أخلاق الحكام الأوائل وسلوكهم فقد كان هذا التغير مفيدا فى عمومه إلى

(١) الاوليجاركيةOLIGARCHY هى حكم القلة. وفى كثير من المجتمعات البدائية تنحصر السلطة وتصريف شئون الحكم فى أيدى شيوخ القبيلة وزعمائها أو فى أيدى كبارالسن الذين يؤلفون معا وحدة اجتماعية وسياسية متماسكة ومتمايزة عن غيرها من السكان وذلك على أساس عامل السن وحده كما هو الحال فى المجتمعات التى يخضع تنظيمها الاجتماعى والسياسى لما يعرف باسم طبقات أو فئات العمر age-set system وفى هذاالنوع من التنظيم الاجتماعى ينقسم أعضاء المجتمع من الذكور إلى عدد معين من الفئات التى تتمايز بعضها عن البعض على أساس التقارب فى السن بحيث تتولى كل فئة منها وظيفة اجتماعية محددة مثل الوظيفة الحربية التي يتولاها الشبان والرجال فى مقتبل العمر حتى سن الثلاثين مثلا، ثم الوظيفة السياسية التى يتولاها الرجال بين سن الثلاثين والخامسة والاربعين أو الخمسين، ثم الوظيفة الدينية التى يتولاها الشيوخ حتى مماتهم. وينتقل أعضاء القبيلة بين هذه الوظائف المختلفة نتيجة لتقدمهم فى العمر(أ..أ).

أبعد حد. والظاهر أن نشأة النظام الملكى كانت من الظروف الأساسية التى لابست انتقال الإنسانية من مرحلة التوحش والهمجية. فليس هناك من هو أشد خضوعا للعادات والتقاليد القديمة من الشعوب الهمجية التى تزعم أنها شعوب ديمقراطية. ولذا كان تقدم هذه الشعوب يتم ببطء وصعوبة بالغين فالفكرة القديمة الشائعة التى تصور الرجل الهمجى على أنه أكثر الناس حرية فكرة مخالفة للواقع تماما. صحيح أن الرجل الهمجى لا يخضع لاسترقاق سيد ظاهر محسوس ولكنه مع ذلك عبد للماضى ولأرواح الأسلاف الموتى الذين يترصدون خطاه منذ ولادته حتى مماته ويحكمونه بقضيب من حديد، فأفعالهم وعاداتهم هى النمط الصحيح للسلوك القويم كما أنها هى القانون غيرالمكتوب الذى يخضع له خضوعا أعمى ويقبله بدون مناقشة وعلى ذلك فلم يعد أمام المواهب الفذة التى كان يمكنها تغيير العادات القديمة إلى عادات أفضل وأحسن سوى مجال ضئيل للغاية. بل إن أكثرالرجال كفاءة ومهارة يقلل من قدرتهم على الانطلاق الأغبياء والضعفاء من أفراد المجتمع الذين يحددون في الواقع المقاييس والمستويات.

فهم أعجز عن أن ينطلقوا ويرتفعوا بأنفسهم ولكنهم قادرون مع ذلك على إسقاط الآخرين. ويكشف هذا النوع من المجتمعات فى مظهره الخارجى عن درجة عالية من الرقابة الخالية من الحياة لأنها تتجاهل التباين أوالتفاوت الطبيعى بين الناس وتغفل الاختلافات الجوهرية الطبيعية بين القدرات والطبائع رغم اتساع هذه الاختلافات وتحاول أن تردها إلى نوع من التساوى الظاهرى المزيف. وخليق بالذين يحرصون على تحقيق خير البشر ومصالحهم أن يرحبوا بكل ما من شأنه أن ينتشل المجتمع من هذه الوهدة ويتيح الفرصة للمواهب والكفاءات ويعمل على توزيع السلطات حسب القدرات الطبيعية التى يتمتع بها مختلف الأشخاص ويرقى بالمجتمع عن ذلك

المستوى الحقير الراكد الذى هلل له فى العصور التالية الغوغاء والحالمون واعتبروه الدولة المثلى بل والعصر الذهبى للإنسانية، وحين تبدأ هذه المؤثرات فى العمل للارتفاع بالمجتمع - وهى مؤثرات يصعب قمعها إلى الأبد - تزداد سرعة تقدم الحضارة نسبيا. فوصول رجل واحد صالح إلى السلطة العليا يساعد على إدخال كثير من التغيرات الهائلة التى لم يكن يكفى لحدوثها عدة أجيال كاملة. فإذا كان ذلك الشخص على قدر غير مألوف من الذكاء والحيوية. كما يحدث فى كثير من الأحيان، فإنه يستغل تلك الفرصة إلى أبعد الحدود للتغيير، فحتى نزوات الطغاة وتقلب أهوائهم قد تكون ذات نفع كبير فى التحرر من إسار التقاليد التى تثقل كاهل الرجل الهمجى. وبمجرد أن تتمكن القبيلة من التخلص من سلطان مجالس الشيوخ الحائرة المنقسمة على ذاتها وتخضع لتوجيه عقل واحد قوى راسخ فإنها تعيش فى أمن وسلام مع جيرانها وتدخل فترة جديدة من حياتها تتميز بالرغبة فى الارتقاء والسمو. وتعتبر هذه الفترة ملائمة إلى حد كبير لإحراز وتحقيق التقدم الاجتماعى والصناعى والفكرى وبخاصة فى المراحل الأولى من تاريخ المجتمع. فامتداد النفوذ سواء عن طريق الغزو العسكرى أو نتيجة لاستسلام القبائل المستضعفة من تلقاء نفسها وبمحض اختيارها يجلب للمجتمع الثروة والعبيد مما يتيح الفرصة لبعض الطبقات لتتخلص من الصراع الدائب من أجل العيش ولتقف نفسها على طلب العلم، وهو مطلب نزيه وشريف ، لأن المعرفة هى أنبل وأقوى وسيلة يمكن الاستعانة بها لتحسين حظ الإنسان ونصيبه من الحياة.

ومن الصعب فصل التقدم الفكرى الذى يتمثل فى ارتقاء الفنون والعلوم وانتشار الآراء والأفكار المتحررة عن التقدم الصناعى والاقتصادى الذى يحقق بعض الانتصارات فى فترات الغزو العسكرى وتكوين الامبراطوريات . وليس من المصادفة فى شىء أن تظهر أعنف انتفاضات العقل الإنسانى فى أعقاب الانتصارات الحربية وأن تكون السلالات البشرية التى قامت بالغزو والفتوحات الكبرى فى العالم هى التى

عملت أكثر من غيرها على تقدم الحضارة وانتشارها وبذلك تكون قد عالجت فى زمن السلم الجروح التى تسبب فيها أثناء الحرب. فالبابليون والإغريق والرومان والعرب هم أكبر الشواهد على صدق ذلك الماضى. وقد يقيض لنا أن نعيش حتى نرى انتفاضة مماثلة لها فى اليابان. كذلك ليس من الصدفة فى شىء أن نجد - إذا رجعنا خلال التاريخ إلى مراحله الأولى المبكرة - أن الخطوات الجبارة الأولى التى خطتها الإنسانية نحو الحضارة تمت كلها فى ظل حكومات استبدادية وثيوقراطية مثل حكومات مصر وبيرو، حيث كان الحاكم الأعلى يطالب بالولاء الأعمى الذليل ويتقبله من رعيته باعتباره يجمع فى شخصيته المزدوجة خصائص الملك والإله. وليس من الإسراف فى شىء أيضا أن نقول إن الطغيان كان فى تلك الحقبة المبكرة أفضل صديق للإنسانية بل وللحرية على الرغم مما قد يبدو فى ذلك القول من تناقض إذ يكمن تحت أعنف ألوان الاستبداد المطلق والطغيان الطاحن قدر من الحرية - بأنبل ما تعنيه هذه الكلمة وهى حرية التفكير وحرية الاختيار للمصير - أكبر بكثير وأنبل من تلك الحرية الظاهرية الزائفة التى نصادفها لدى الشعوب الهمجية، حيث يفرغ مصير الفرد وقدره منذ أن يولد حتى يموت فى قالب حديدى من التقاليد والعادات الموروثة (١).

---

(١) يجب ألا يؤخذ هذا الكلام على أن فريزر كان يناصر حكم الاستبداد أو نظام الحكم الديكتاتورى، وإنما ينبغى أن ينظر إليه فى ضوء نظرية التطور التى كانت تشيع فى القرن التاسع عشر والتى تأثر بها فريزر إلى حد كبير والتى كانت ترى أن المجتمع البدائى أو الهمجى عاجز بحكم الواقع وطبيعة المرحلة التى يمثلها فى تاريخ البشرية عن أن يباشر شئونه ويصرف أموره بنفسه، وأنه لابد لذلك من أن يخضع لسيطرة المجتمعات التى بلغت درجة عالية من التقدم والحضارة. وكذلك الرجل العادى فى ذلك المجتمع لايستطيع أن يشارك فى الحكم مشاركة فعالة مجدية وانما يجب أن تتركز شئون الحكم والسياسة فى أيدى الصفوة الممتازة من ابناء القبيلة أوحتى فى أيدى الفرد الواحد الذى يتميز على بقية افراد المجتمع بكفاءات وقدرات وملكات غير عادية وواضح أن هذه النظرة تختلف عن نظرة الانثربولوجيين المعاصرين الذين يعتبرون التنظيم القبلى فى كثير من المجتمعات البدائية مثالا رائعا للحكم الديمقراطى الصحيح.

وعلى هذا الأساس فإنه يمكن القول بأنه بقدر ما تعتبر مهنة الساحر العمومى وسيلة من الوسائل التى تمكن الرجل الماهر الكفء من الوصول إلى السلطة العليا فى المجتمع فإنها تسهم فى خلاص البشرية من استعباد وذل التقاليد والارتقاء بها إلى حياة أرحب وأكثر حرية تستطيع منها أن تنظر إلى العالم نظرة أوسع وأشمل وليست هذه بالخدمة الصغيرة التى تسدى إلى الإنسانية. فإذا تذكرنا بعد ذلك أن السحر استطاع من ناحية أخرى أن يمهد الطريق لظهور العلم. فسوف نجد أنفسنا مضطرين للاعتراف بأنه إذا كان الفن الأسود قد تسبب فى كثير من الشر والأذى فإنه كان مصدر كثير من الخير أيضا، وأنه إذا كان السحر هو وليد الخطأ فقد أفلح بعد ذلك فى أن يتجنب الحرية والحق.

الفصل الرابع

السحر والدين

وقد تكفى الأمثلة التى ذكرناها فى الفصل السابق لتبين المبادىء العامة التى قوم عليها السحر التعاطفى بفرعيه اللذين أسميناهما السحر التشاكلى ، والسحر الاتصالى على التوالى، ولقد رأينا أن بعض حالات السحر التى ذكرناها تفترض تدخل الأرواح، ولذا تبذل كثير من الجهود لكسب رضاها عن طريق الصلوات وتقديم القرابين. ولكن هذه على العموم حالات استثنائية يظهر فيها السحر ممزوجا بالدين. والسحر الانعطافى فى صورته النقية الخالصة يفترض تتابع أحداث الطبيعة بالضرورة وباطراد وبدون تدخل أى عامل بسيط روحى أو مشخص. وعلى هذا الأساس فإن التصور الأساسى للسحر يشبه تصورالعلم الحديث، إذ يرتكز النسق كله على الإيمان بانتظام الطبيعة واطرادها ، وهو إيمان ضمنى ولكنه راسخ وثابت فالساحر لا يشك اطلاقا فى أن نفس العلل سوف تنتج دائما نفس المعلولات، وأن ممارسة الطقوس المناسبة وإشفاعها بالتعاويذ والطلاسم الملائمة يؤديان بالضرورة وبغير استثناء إلى النتائج المرجوة، إلا إذا حدث بالطبع أن تعرضت هذه الطقوس لتأثير تعاويذ مناوئه تكون أقوى منها مفعولا فتنهزم أمامها. ولكن العادة أن الساحر لا يستعين بأى قوة أخرى أعلى منه ولا يطلب العون من أى كائن آخر لا يأمن تقلباته أو عناده، ولا يذل نفسه لسطوة الآلهة والأرباب، ومع ذلك فإن قواه ليست بالقوى التعسفية أو المطلقة التى لا تحدها أية حدود على الرغم من إيمانه هو بعظمتها وشدة بأسها. فهو لا يستطيع استخدامها إلا إذا توافق سلوكه مع أصول فنه أو معه ما يمكن تسميته بقوانين الطبيعة حسب تصوره هو لهذه القوانين. وإغفال هذه الأصول والقواعد وكذلك الخروج على هذه القوانين ولو فى أبسط تفاصيلها يجلب الفشل بل وقد يعرض الساحر غيرالماهر نفسه إلى أشد أنواع المخاطر. فإذا كان يزعم لنفسه السيادة على الطبيعة فإن هذه السيادة تحدها فى الواقع حدود وقيود صارمة. كما

أنها تمارس بحيث لا تتعارض مع الأوضاع القائمة بالفعل. وعلى ذلك فإن المماثلة بين التصورات السحرية والعلمية للعالم مماثلة قوية ومحكمة. ففى كلا التصورين يسيرتتابع الأحداث بطريقة منتظمة ومؤكدة إلى أبعد حد، إذ تحكمه قوانين ثابتة بحيث يمكن التنبؤ بنتائجا وحسابها بدقة. كما أن عناصر المفاجأة والصدفة والعرض تكون مستبعدة تماما من مجرى الطبيعة وأحداثها . كذلك يفتح كلا التصورين مجالات واسعة من الإمكانيات تبدو لا متناهية أمام الشخص الذى يعرف علل الأشياء، والذى يستطيع أن يلمس اللوالب الخفية التى تحرك ميكانيزم العالم الواسع المعقد. ومن هنا كان ذلك التأثير القوى الذى يمارسه السحر والدين كلاهما على العقل الإنسانى، ومن هنا أيضا كانت تلك الاستثارة القوية التى يثيرها كل منهما لطلب المعرفة. فهما ينيران السبيل أمام الباحث الذى أنهكه طول البحث وينتشلانه من ظلمة اليأس فى الحاضر بما يثيران فى نفسه من وعود وآمال عن المستقبل، ويرتفعان به إلى أعالى القمم الشامخة حيث يستطيع أن يرى تحت قدميه من خلال الغيوم الكثيفة والضباب المتراكم المدينة السماوية، التى قد تكون بعيدة جدا عنه، ولكنها تبدو لناظريه سابحة فى ضوء الأحلام وقد أحاط بها الجلال السماوى من كل جانب.

ويكمن الخطأ الذى يتردى فيه السحر ليس فى تسليمه العام بخضوع تتابع الأحداث لقانون معين، بل فى فكرته الخاطئة تماما عن طبيعة القوانين الخاصة التى تحكم عملية التتابع ذاتها. فإذا حللنا الحالات المختلفة للسحر التعاطفى التى عرضنا لها فى الصفحات السابقة والتى يمكن اعتبارها عينات ممثلة للكل تمثيلا صحيحا فسوف نجد كما ذكرت من قبل أنها كلها تطبيقات خاطئة لأحد القانونين الأساسيين للفكر، وهما تداعى المعانى عن طريق التشابه وتداعى المعانى عن طريق التجاور أو

الاتصال فى المكان أوالزمان، فالتداعى الخاطىء للمعانى والأفكار المتشابهة يؤدى إلى السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة، والتداعى الخاطىء للمعانى، أو الأفكار المتصلة يؤدى إلى السحر الاتصالى، وليس ثمة ما يعيب مبادىء التداعى فى ذاتها. فالواقع أنها مبادىء جوهرية وأساسية تماما للتفكير الإنسانى. وإذا تم تطبيقها بطريقة سليمة فإنها تؤدى إلى العلم بينما تطبيقها بطريقة غير سليمة و غير مشروعة يؤدى إلى السحر وهو الأخ غير الشرعى للعلم ولذا فإن من البديهى - بل إنه قد يكون مجرد تكرار للمعانى - أن نقول إن السحر بأشكاله المختلفة هو بالضرورة علم زائف عقيم لأنه لو حدث أن صدق وأثمر لخرج عن دائرة السحر ودخل فى دائرة العلم. ولقد.اهتم الإنسان منذ أقدم العصور بالبحث عن القواعد العامة التى يستطيع بها أن يخضع نظام الظواهر الطبيعية لصالحه الخاص. واستطاع خلال بحثه الطويل أن يقوم بتجميع عدد كبير من تلك القواعد التى تتفاوت فى الأهمية والقيمة. فأما القواعد الصحيحة أو الذهبية فإنها تؤلف مجموعة العلوم التطبيقية التى نسميها بالفنون وأما القواعد الزائفة فإنها تؤلف السحر.

وعلى ذلك فإذا كان السحر يعتبر من هذه الناحية أقرب أقرباء العلم فإنه يبقى علينا أن نبحث عن درجة قرابته للدين.. وليس من شك فى أن نظرتنا إلى هذه القرابة سوف تتأثر بفكرتنا عن طبيعة الدين نفسه. ولذا كان لابد لنا من أن نعرف ونحدد هذه الفكرة قبل أن نشرع فى بحث العلاقة بين الدين والسحر. وأغلب الظن أنه لا يوجد موضوع فى العالم اختلفت فيه الآراء مثلما اختلفت حول طبيعة الدين وعلى ذلك فقد يستحيل علينا الوصول إلى وضع تعريف يكون مقبولا من الجميع. ولذا فإنه يتعين علينا أولا أن نبين بوضوح ماذا نقصد بالدين ثم نستخدم الكلمة بهذا المعنى طيلة الوقت وبدون تغيير خلال الكتاب كله. والدين فى نظرى هو التزلف والتقرب إلى

القوى العليا التى تفوق الإنسان والتى يعتقد أنها توجه سير الطبيعة والحياة البشرية وتتحكم فيهما . وعلى أساس هذاالتعريف يتألف الدين من عنصرين أحدهما نظرى وهو الايمان فى وجود قوى أعلى وأسمى من الانسان، والآخر عملى وهو محاولة استمالة هذه القوى وارضائها. وواضح أن عنصر الإيمان هو أسبق العنصرين، إذ لابد من أن نؤمن بوجود كائن إلهى قبل أن نشرع فى إرضائه والتقرب إليه. ولكن إذا لم يترتب على هذا الإيمان قيام شعائر وممارسات متعلقة فإنه لا يكون دينا بل يكون مجرد لاهوتTheology وفى ذلك يقول سانت جيمسSaint James إن العقيدة التى لا تدور حولها أى شعائر أو طقوس تموت لأنها تكون وحيدة ومنعزلة ويقول آخر ، إن المرء لا يكون متدينا إن لم يكن سلوكه خاضعا ـ بشكل ما ـ للخوف من الله أو حب الله. ومن ناحية أخرى فإن الشعائر والطقوس المجردة من كل اعتقاد دينى لا تعتبر دينا، فقد يتصرف شخصان بطريقة واحدة تماما ومع ذلك يعتبر أحدهما متدينا والآخر غير متدين، فأما الذى ينبع سلوكه من حب الله أوالخوف منه فإنه يكون متدينا، وأما الذى ينبع سلوكه من حب الناس أو خشيتهم فإنه يعتبر شخصا أخلاقيا أو لاأخلاقى تبعا لكون سلوكه متفقا مع الخير العام أو متعارضا معه. ومن هنا كان الإيمان والممارسة أو بالتعبير اللاهوتى، العقيدة والشريعة، على درجة واحدة من الأهمية بالنسبة للدين إذ لا يمكن له أن يقوم بدونهما معا، ولكن ليس من الضرورى أن تتخذ الممارسات الدينية دائما شكل الشعائر، أى أنه ليس من الضرورى أن تتألف من تقديم القرابين وتلاوة الصلوات وما إلى ذلك من الطقوس الظاهرة الملموسة. فالهدف من الشعائر هو إرضاء الرب، والرب نفسه كائن يجد الغبطة فى الإحسان والرحمة والتطهر أكبر مما يجدها فى إراقة دم الأضحيات وترتيل الترانيم وحرق البخور، وعلى ذلك فإن العباد لا يستجلبون رضا الرب بالتذلل

والاسترحام أو بالتسبيح بحمده وتقديم الهدايا والقرابين الغالية الثمينة فى معابده بقدر ما يرضونه عن طريق التطهر والرحمة والإحسان للآخرين، لأنهم بذلك إنما يحاكون كمال الطبيعة الإلهية بقدر ما يسمح لهم به ضعفهم البشرى. ولقد كان هذاالجانب الأخلاقى من الدين هو الذى جعل أنبياء اليهود الذين استهواهم المثال النبيل لخير الله وقدسيته - لا يملون أبدا من الوعظ والإرشاد ولقد قال ميخا: قد أخبرك أيها الانسان ما هو صالح، وماذا يطلبه منك الرب إلا أن تضع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعا مع إلهك وفى الأزمان التالية كان جانب كبير من القوة التى استطاعت بها المسيحية أن تغزو العالم مستمدا من نفس هذه الفكرة السامية عن طبيعة الله الخلقية وعن واجب الإنسان للتوائم معها، ولقد قال سانت جيمس أيضا، إن الدين الخالص الذى لا تشوبه شائبة

قبل الاعتراف بالله والآب هو أن تزور اليتامى والأرامل وتواسيهم فى محنتهم وأن تطهر نفسك من أدران الدنيا»[1].

ولكن إذا كان الدين يعنى من ناحية الاعتقاد فى وجود كائنات أسمى من البشر تتحكم فى هذا العالم وتسيطر عليه كما يعنى من الناحية الأخرى محاولة استرضاء هذه الكائنات فإن ذلك يتضمن بغير شك الاعتراف بأن أحداث الطبيعة مرنة إلى حد ما وقابلة للتغيير، وأن باستطاعتنا أن نقنع أو نحث هذه الكائنات القوية التى تحكم الطبيعة على أن تغير سير الأحداث من مجراها الأصلى بما يحقق صالحنا الخاص. إلا أن هذه المرونة أوالقدرة على التغير التى ننسبها إلى الطبيعة تتعارض بشكل صريح مع مبادىء السحر كما تتعارض مع مبادىء العلم. نظرا لأنهما يفترضان أن

(١) سفر ميخا - الاصحاح السادس.

عمليات الطبيعة جامدة وثابتة ومنتظمة.

وأن من الصعب تحويلها من اتجاهها عن طريق الاقناع والرجاء أوحتى عن طريق التهديد والإرهاب. والتمييز بين هاتين النظريتين المتعارضتين للكون يقوم على أساس إجابة كل منهما على السؤال التالى، وهو سؤال دقيق للغاية: هل القوى التى تحكم العالم قوى عاقلة مدركة وشخصية أم هل هى قوى غير مدركة ولا شخصية؟ والدين باعتباره نوعا من استمالة واسترضاء القوى فوق البشرية يفترض الاحتمال الأول، وذلك لأن عملية الاستمالة أو الاسترضاء تعنى ضمنا أن الكائن الذى يحاول الإنسان كسب رضاه هو كائن مدرك وعاقل وله وجود مشخص وإن كان سلوكه وتصرفاته غير مضمونة إلى حد ما على الأقل ، وإن كان يمكن إقناعه بتغيير تلك التصرفات وتحويلها إلى الاتجاه المطلوب عن طريق التقرب والابتهال اللذين يتفقان تماما مع مصالحه ورغباته وعواطفه. والمرء لايستعطف أبدا الأشياء غير الحية أو الأشخاص الذين يعرف عنهم أن سلوكهم وتصرفاتهم فى المواقف المعينة إنما تحكمها الثقة البالغة واليقين المطلق. ومن هنا كان الدين الذى يفترض خضوع العالم لعوامل وقوى مدركة يمكن إقناعها بتغيير أهدافها وأغراضها يقف موقف العداء الصريح من السحر وكذلك من العلم. لأن الاثنين يسلمان بأن أحداث الطبيعة تتحدد ليس تبعا لرغبات أونزوات الكائنات الشخصية بل تبعا للقوانين الثابتة الصارمة التى تعمل بطريقة آلية، وإن كان هذا المبدأ يوجد بطريقة ضمنية فقط فى السحر بينما هو صريح وواضح فى العلم صحيح أن السحر يعامل فى كثير من الأحيان مع الأرواح. وهى اقوى شخصية من النوع الذى يفترض الدين وجوده ولكن يلاحظ أنه حين يفعل السحر ذلك بطريقته المعتادة المألوفة الصحيحة فإنه يعامل هذه الأرواح بنفس الطريقة التى يعامل بها القوى غير الحية، بمعنى أنه يجبرها أو يقهرها بدلا

من أن يعمل على إرضائها أو استمالتها كما يفعل الدين. وعلى ذلك فالسحر يفترض أن كل الكائنات الشخصية سواء أكانت كائنات بشرية أوإلهية تخضع فى آخر الأمر لتلك القوى اللاشخصية التى تسيطر على جميع الموجودات والتى يمكن مع ذلك لأى شخص أن يستميلها إلى صفة إذا عرف كيف يخضعها بالطقوس والتعاويذ الملائمة.ففى مصر القديمة مثلا كان السحرة يدعون لأنفسهم القدرة على إخضاع أعظم الآلهة لرغباتهم بل إنهم كانوا يهددون الآلهة فعلا بالدمار إذا لم يستجيبوا لهم، كما كانوا يهددون فى كثير من الأحيان ببعثرة عظام «أوزيريس» والكشف عن قضيته المقدسة إذا أظهر الإله شيئا من العناد أوالتمرد ولكنهم لم ينفذوا ذلك التهديد أبدا، وفى الهند نجد أن الثالوث الهندوكى الأعظم الذى يتألف من براهما وڤيشنو وسيڤا لايزال خاضعا لقوة السحرة الذين يتمتعون بفضل تعاويذهم بنوع من الشعور بالاستعلاء على أقوى الأرباب مما يضطر هذه الأرباب ذاتها للخضوع لهم والاستجابة لكل ما يأمرها به سادتها السحرة وتحقيق مطالبهم فى الأرض أوفى السماوات وثمة قول شائع فى كل أنحاء الهند من أن «الكون كله خاضع للآلهة، وأن الآلهة خاضعة للتعاويذ، وأن التعاويذ خاضعة للبراهمة فالبراهمة إذن هم آلهتنا.

هذا الصراع الأساسى بين السحر والدين حول المبدأ يفسر تفسيرا كافيا للعداء العنيف الذى كان رجل الدين يبديه خلال التاريخ نحو الساحر ومطاردته له. فشعور الساحر بالاستعلاء والاستكفاء وموقفه الأحمق المتعجرف من القوى العليا وادعاؤه الوقح بقدرته على السيطرة والتسلط فكلها أمور من شأنها أن تثير رجل الدين الذى يحس بالخشية وبالرهبة نحو الجلالة الإلهية ويشعر بالذلة أمامها، مما يجعله ينظر إلى دعاوى الساحر وتصرفاته على أنها نوع من الجحود والكفر والتطاول على الحقوق والامتيازات الخاصة بالإله وحده. وربما كانت هناك دوافع غير سامية تكمن

وراء عداء رجل الدين للساحر ، كأن يعتقد مثلا أنه هو الشفيع الوحيد الملائم والوسيط الحقيقى بين العبد وربه وبذلك كانت مصالحه الخاصة تتعرض للخطر كما كانت مشاعره ذاتها يلحقها الكثير من الأذى والمهانة أمام منافسه الذى كان يلجأ لتحقيق مآربه إلى وسائل وأساليب مضمونة أكثر من طريق الحب الإلهى الذى لا يخلو من محن الوعورة والزلل.

ولكن هذا العداء الذى يعتبر أمرا مألوفا فى نظرنا لم يظهر فى الحقيقة إلافى فترة متأخرة نسبيا من تاريخ الدين فكثيرا ما كانت وظيفة الكاهن ووظيفة الساحر ترتبطان معا فى المراحل المبكرة، أو بقول أصح، لم تكن هاتان الوظيفتان قد انفصلتا تماما إحداهما عن الأخرى فى تلك المراحل. ولكى يحقق الرجل أهدافه الخاصة فإنه كان يتقرب إلى الآلهة والأرواح بالصلاة وتقديم القرابين حتى يضمن حسن رضاها وفى الوقت نفسه يلجأ إلى الطقوس والتعازيم التي يعتقد أنها كفيلة بأن تحقق له بذاتها تلك النتائج المرجوة، بدون أى تدخل من الله أو من الشيطان. وبالاختصار فإنه كان يمارس الشعائر الدينية والسحرية فى وقت واحد ويردد الصلوات والتعازيم فى نفس واحد تقريبا دون أن يدرك أو ينتبه إلى ما فى هذه السلوك من تناقض نظرى، مادام ذلك السلوك يكفل له فى آخر الأمر تحقيق مآربه. ولقد رأينا كثيرا من أمثلة هذا التداخل أو الخلط بين السحر والدين حين تكلمنا عن طقوس وممارسات الميلانيزيين وغيرهم من الشعوب.

ولقد ظل هذاالخلط بين السحر والدين قائما حتى بين الشعوب التى وصلت إلى مستوى عال ورفيع من الثقافة. فهو يظهر بوضوح وجلاء فى الهند ومصر فى الأزمان الغابرة. كما أنه لم يختف تماما عند الفلاحين الأوروبيين حتى فى وقتنا الحالى. وفيما يتعلق بالهند القديمة فقد ذكر أحد كبار العلماء المتخصصين فى

السنسكريتية أن الشعائر الخاصة بتقديم القرابين فى أقدم فترات التاريخ التى لدينا عنها معلومات تفصيلية كانت تشوبها ممارسات أخرى تنم عن وجود السحر في صورة بدائية جدا. ولقد حذر الأستاذ ماسبيرو Maspero وهو يتكلم عن أهمية السحر فى الشرق وبخاصة فى مصر من أن تلحق بكلمة السحر تلك الفكرة المهينة التى تثيرها هذه الكلمة بالضرورة فى ذهن الرجل الحديث. فلقد كان السحر القديم يؤلف الأساس الأول للدين، ولم يكن أمام الإنسان المؤمن لكى يضمن لنفسه شيئا من رضا إلهه إلا أن يضع يديه على ذلك الرب، والوسيلة الوحيدة لذلك هى ممارسة بعض الشعائر المعينة وتقديم القرابين والصلوات والأدعية والترانيم التى أوحى بها ذلك الإله نفسه والتى تلزمه بأن يجيب دعوة الداعين.

كذلك لايزال هذا الخلط بين الأفكار أوالمزج بين الدين والسحر يظهر فى أشكال مختلفة بين الطبقات الجاهلة فى أوروبا الحديثة ويقال إن معظم الفلاحين فى فرنسا لايزالون يعتقدون أن القسيس يملك على العناصر قوة خفية لا تقاوم، وأنه حين يتلو بعض الصلوات المعية بالذات التى لا يعرفها سواه والتى لا يحق لغيره أن يرتلها فإنه يستطيع فى حالة الخطر الداهم أن يبطل لفترة معينة فعل القوانين الأبدية للعالم الفيزيقى أو حتى يقلبها تماما. ولكن يتعين عليه بعد أداء هذه الصلوات أن يطلب الغفران فالرياح والعواصف والبرد والمطر تخضع لسلطانه وإرادته ، وكذلك النار. بل إن ألسنة اللهب تخمد بكلمة واحدة منه. ولقد كان الفلاحون الفرنسيون أيضا يؤمنون ولعلهم لايزالون يؤمنون بأن فى استطاعة القساوسة أن يقيموا. قداس الروح المقدس الذى يمارسون فيه بعض الشعائر الخاصة التى تصل فعاليتها حدا من الإعجاز لا تجدى معه أية معارضة من الإرادة الإلهية، وإنما يجد الله نفسه مضطرا لأن يعطى كل ما يطلب إليه بهذه الطريقة مهما بلغ الطلب من الإسفاف والمبالغة. ولم يكن

الناس يرون فى ممارسة هذه الشعائر خروجا على أصول الدين أو قواعد السلوك، خاصة وأنهم لم يكن يلجئون إليها إلا حين تصل قسوة الحياة عليهم حدا بالغا لا يملكون معه إلا هذه الوسيلة الغريبة لنيل ما يريدون من مملكة السماء.ولقد كان القساوسة العاديون يرفضون فى العادة أداء قداس روح القدس بعكس الرهبان الذين كانوا يستجيبون بدون كثير من الحرج لنصرة المهمومين والمأزومين ونستطيع أن نجد شبها قويا جدا بين هذا الضغط الذى يعتقد الفلاحون الكاثوليك أن القساوسة يمارسونه على الله والسلطة التى كان المصريون القدماء ينسبونها إلى السحرة عندهم. ومن الأمثلة الأخرى على ذلك أيضا الاعتقاد الشائع فى كثير من قرى بروفانس Privence بأن القسيس يملك القدرة على تشتيت العواصف، وإن لم يكن لكل القساوسة مثل هذه الملكة، ولذا فإنه حين يتغير راعى الكنيسة فى بعض تلك القرى يبدى أتباع الأبراشية كثيرا من التلهف لمعرفة إذا ما كان الراعى الجديد يتمتع بهذه السلطة كما يسمونها، وعلى ذلك فبمجرد أن تظهر أدنى بادرة بهبوب إحدى العواصف الشديدة فإنهم يخضعونه للاختبار فيطلبون إليه القيام ببعض الشعائر والتراتيل ضد الغيوم المتكاثفة، فإذا جاءت النتائج محققة لآمالهم ضمن الراعى الجديد لنفسه عطف أتباع الكنيسة واحترامهم. ولو تصادف أن بلغت سمعة الخورى فى بعض الأبراشيات مستوى أعلى من سمعة القسيس فى هذا الصدد فإن العلاقة بين الاثنين تسوء وقد تصل إلى درجة من التوتر يجد الأسقف معها نفسه مضطرا إلى أن ينقل القسيس إلى وظيفة أخرى. ويعتقد الفلاحون فى غسقونيا أن الرجل الخبيث الذى يريد أن يثأر لنفسه من أحد أعدائه يغرى أحد القساوسة بإقامة قداس معين يعرف بقداس Mass of Saint Sécaire وهو قداس لايعرفه إلا عدد قليل من القساوسة بل إن غالبية الذين يعرفونه يرفضون إقامته بأى ثمن. والواقع أنه لا

يقوم بأداء هذه الطقوس البشعة سوى القساوسة الأشرار، وليس ثمة شك فى أنهم سوف يدفعون ثمن ذلك غالبا يوم القيامة[1] إذ لا يجرؤ أى رجل من رجال الدين حتى ولو كان أسقف آوخ Archbishop of Auch نفسه، أن يغفر لهم ذلك الإثم، لأن غفران مثل هذا الذنب هو من حق بابا روما وحده. ولايقام هذا القداس إلا فى كنيسة متهدمة أو مهجورة حيث تنعق البوم وتمرق الخفافيش وقت الغسق وتأوى إليها جماعات الغجر فى الليل، وحيث تقبع الضفادع البرية تحت مذبحها المدنس فهناك يأتى ذلك القس الشرير بالليل ومعه عشيقته الفاجرة الخليعة، وحين ترسل الساعة أولى دقاتها معلنة الحادية عشرة يبدأ يهمهم فى تلاوة القداس ابتداء من آخره إلى أوله بحيث يفرغ منه حين تبدأ دقات الساعة تعلن منتصف الليل، وتقوم عشيقته بمساعدته فى ذلك أما القربان الذى يباركه فلابد أن يكون أسود اللون، كما أنه لا يتناول النبيذ ولكنه يشرب بدلا منه بعض الماء من بئر سبق أن ألقيت فيها جثة طفل مات قبل تعميده ثم يرسم علامة الصليب ولكن على الأرض وبقدمه اليسرى، ويقوم بأداء كثير من الأعمال الأخرى التى لا يستطيع أى مسيحى أن يراها دون أن يصيبه العمى والصمم والبكم بقية حياته. أما الشخص الذى يقام القداس ضده فإنه يذوى شيئا فشيئا دون أن يدرك أحد ما أصابه، بل إن الأطباء أنفسهم يعجزون عن فهم سر مرضه وإدراك أنه يموت ببطء نتيجة لذلك القداس.

ولكن على الرغم من امتزاج السحر بالدين بهذه الطريقة فى كثير من العصور

---

(١) تكشف هذه العبارة وكثير غيرها عن مدى تدين فريزر وتأثره حتى أواخر ايامه بتربيته الدينية المبكرة. ومع أن مثل هذه العبارات تؤخذ على كتاباته لأنها احكام تقويمية يترفع عن اطلاقها علماء الاجتماع والانثربولوجيا إلا انها تكشف عن فريزر الانسان الذى يختفى وراء فريزر العالم الانثرلولوجى(أ..أ).

وكثير من البلاد فهناك من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الامتزاج ليس بدائيا وأن الانسان مر بعصر كان يعتمد فيه على السحر وحده فى إشباع تلك الحاجات التى تسمو فوق شهواته الحيوانية المباشرة. والواقع أن دراسة الأفكار الأساسية فى السحر والدين تبين فى المحل الأول أن السحر أقدم من الدين فى تاريخ الإنسانية ولقد سبق أن رأينا أن السحر من ناحية ليس إلا تطبيقا خاطئا لأبسط وأسهل عمليات الفكر، ونعنى بها تداعى الأفكار عن طريق التشابه أو التجاور، كما أن الدين من الناحية الأخرى يفترض وجود كائنات مدركة واعية وشخصية أسمى من الإنسان وتعمل من وراء ستار الطبيعة الظاهر المرئى. ومن الواضح أن فكرة القوى أو الكائنات الشخصية مسألة أكثر تعقيدا من مجرد إدراك التشابه أو الاتصال بين الأفكار كما أن النظرية التى ترى أن أحداث الطبيعة تتحدد بفعل قوى مدركة واعية هى نظرية أكثر عمقا وغموضا وتتطلب لفهمها من الذكاء والقدرة على التفكير درجة أعلى مما يتطلبه الاعتقاد فى أن تتابع الأحداث ناشىء من تجاورها أو تشابهها فحسب، فالحيوانات ذاتها تملك القدرة على الربط بين الأفكار المتعلقة بالأشياء المتشابهة أو الأشياء التى اعتادت أن تراها معا، ولو عجزت عن ذلك لما استطاعت أن تعيش يوما واحدا ومع ذلك فلا يمكن القول بأن الحيوانات تعتقد أن ظواهر الطبيعة تحدث نتيجة لتدخل عدد كبير من الحيوانات اللامرئية أو بفعل حيوان واحد ضخم له قوة هائلة تختفى وراء هذه الظواهر . ولن نبخس هذه الحيوانات قدرها إذا قصرنا شرف إقامة مثل هذه النظرية الأخيرة على العقل البشرى وحده. وعلى ذلك فإذا كان من الميسور الاستدلال على السحر من عمليات التفكير الأولية مباشرة، وإذا كان السحر كما هو الأمر فى الواقع - نوعا من الخطأ الذى يقع فيه العقل بشكل تلقائى تقريبا بينما يرتكز الدين على أفكار لا يمكن الزعم

بأن الذكاء الحيوانى توصل إليها، فإنه يصبح من المحتمل أن يكون السحر أسبق فى الظهور على الدين فى تطور الجنس البشرى، وأن الإنسان عمد إلى اخضاع الطبيعة لرغباته باستخدام التعاويذ والطلاسم وحدها قبل أن يعمل على التقرب من الإله الحى الخجول المتقلب الغضوب ومحاولة استرضائه عن طريق السلوك الهادىء الدقيق الذى يتمثل فى الصلاة وتقديم القرابين.

وهذه النتيجة التى وصلنا إليها بهذه الطريقة الاستدلالية من دراستنا للأفكار الأساسية فى الدين والسحر يؤكدها ويعززها - بشكل استقراء ما تعرفه من أن السحر يشيع عند جميع أهالى استراليا الأصليين الذين يعتبرون أشد الشعوب همجية وتأخرا، ولكن تتوفر لدينا عنهم معلومات كثيرة ودقيقة، بينما لا يكادون يعرفون الدين من حيث هو استرضاء وتزلف للقوى العليا ويمكن القول بوجه عام إن جميع الرجال فى استراليا هم من السحرة ولكن ليس بينهم قسيس واحد، وكلهم يتصورون أن فى إمكانهم التأثير فى الآخرين أو فى أحداث الطبيعة عن طريق السحر التعاطفى ولكن ليس منهم من يفكر فى استرضاء الآلهة بالصلاة أو القرابين.

ولكن إذا كان السحر قد وجد بكل هذا الوضوح فى أشد مراحل المجتمع الإنسانى المعروف لنا الآن تأخرا بينما لم يكن للدين مثل هذا الوجود، أفلا يحق لنا أن نقول إن الشعوب المتحضرة فى العالم مرت فى فترة من تاريخها بمرحلة فكرية مماثلة، وأنها حاولت أن تخضع قوى الطبيعة الجبارة لإرادتها هى قبل أن تفكر فى التقرب إليها لنيل رضاها عن طريق القرابين والصلاة؟ وبإختصار ألا يمكن لنا القول إنه مثلما كان هناك «عصر حجرى » للجانب المادى من الثقافة الإنسانية فى كل مكان، كان يوجد «عصر سحرى» للجانب الفكرى من تلك الثقافة فى كل مكان أيضا؟ إن ثمة أسبابا تجعلنا نجيب على هذا السؤال بالإيجاب. فحين نستعرض

السلالات البشرية الموجودة فى العالم الآن من جرينلند أنى تييرار أيلفويجو ومن اسكتلنده إلى سنغافوره فإننا نلاحظ أنها تتميز بعضها عن بعض بتنوع أديانها تنوعا شديدا، وأن هذه الفوارق لا تتلازم مع الاختلافات السلالية أو العرفية فحسب، وإنما تمتد إلى أصغر الأقسام فى الدول، وتوجد حتى فى المدن والقرى بل والعائلات ذاتها بحيث أن وجه المجتمع فى كل أنحاء العالم يتشقق ويتكسر ويتصدع بالتمزقات والتشققات والأخاديد الواسعة التى تنجم عن النزاع الدينى الذى يؤدى إلى التفكك والانحلال. ولكن إذا تعمقنا فى دراسة تلك الاختلافات التى تؤثر بوجه خاص فى الفئة الذكية المفكرة من أعضاء المجتمع لوجدنا تحتها كلها طبقة صلبة من التشابه الفكرى يشترك فيها الأغبياء والضعفاء والجهلة والخرافيون الذين يؤلفون لسوء الحظ الأغلبية العظمى من الجنس البشرى. ولقد كان أحد الانجازات الكبرى التى حققها القرن التاسع عشر هو التغلغل فى أعماق هذه الطبقة الذهنية الدنيا فى كثير من أنحاء العالم واكتشاف ما بينها من تماثل حقيقى فى كل مكان. والواقع أن هذا التماثل موجود بيننا نحن هنا فى أوروبا فى الوقت الحاضر، كما أنه يظهر واضحا فى مجاهل استراليا وفى كل المناطق التى لم تستطع الحضارة الأكثر رقيا أن تدفنه بعد فى باطن الأرض. وهذا الايمان العام هو فى حقيقة الأمر اعتقاد عميق بفاعلية السحر، فبينما تختلف الأنساق الدينية ليس فقط من بلد لآخر بل وأيضا داخل البلد الواحد فى مختلف العصور فإن نسق السحر التعاطفى يظل محتفظا إلى حد كبير بمبادئه وممارسته فى كل مكان وكل زمان . فالسحر السائد بين الطبقات الجاهلة التى تؤمن بالخرافات فى أوربا الحديثة يشبه إلى حد كبير جدا ما كان عليه منذ آلاف السنين فى مصر والهند كما يشبه أيضا السحر الموجود عند أدنى الشعوب الهمجية الموجودة فى الوقت الحاضر فى أقصى أرجاء العالم. وإذا كان الانتشار

والذيوع يدلان على الصدق لكان نسق السحر أقرب من الكنيسة الكاثوليكية نفسها إلى القول السائد: من أن «ما هو موجود دائما في كل وقت وعند جميع الناس» هو دليل وشهادة مؤكدة على منعته وعصمته وتنزهه عن الخطأ[1] .

وليس من شأننا أن ندرس هنا النتائج التى قد تترتب على وجود واستمرار تلك الطبقة الصلبة من الهمجية التى تكمن تحت سطح المجتمع وعدم تأثرها بالتغيرات السطحية التى تحدث فى مجالات الدين والثقافة، وأثر ذلك فى مستقبل الإنسانية. ومن الصعب على الباحث المحايد الذى تمكنه دراساته من التغلغل فى أعماقها أن يعتبرها شيئا آخر سوى نوع من التهديد الدائم للحضارة. والظاهر أننا نتحرك فوق قشرة رقيقة معرضة لأن تتكسر فى أى وقت بفعل تلك القوى الجوفية الراقدة تحتها. وقد نسمع من حين لآخر همهمة جوفاء تتصاعد من جوف الأرض أو قد يندفع فجأة نحو الفضاء لسان من اللهب نستدل منه على ما يدور تحت أقدامنا ومن حين لآخر أيضا يصدم شعور العالم المهذب بخبر فى إحدى الصحف عن العثور فى اسكتلندة مثلا على تمثال رشقت الدبابيس فى كل أجزائه بقصد قتل أحد ملاك الأراضى أو أحد الوزراء المكروهين أو قد نقرأ عن موت امرأة على أيدى إحدى الساحرات فى إيرلنده نتيجة لتعريضها للنار بحيث تشوى ببطء، أو عن مقتل إحدى الفتيات فى روسيا وتقطيع جسمها إربا ليصنع من شحمها بعض الشموع التى يستخدمها اللصوص أثناء ممارستهم لمهنتهم فى الخفاء وبعد أن يتقدم الليل. ولكن هل ستكون الغلبة فى آخر الأمر يا ترى للقوى التى تؤدى إلى تحقيق مزيد من التقدم أو لتلك التى تهدد بتدمير كل ما تم إنجازه بالفعل؟ وهل ستكون اليد الطولى للطاقة العارمة

---

(١) ترجمت بشىء من التصرف(أ.أ)

المتدفقة من الأقلية التى تستطيع أن تدفعنا إلى آفاق أعلى وأسمى، أو للأغلبية الساحقة الخاملة من الناس، قد تشدنا بكل ثقلها إلى أسفل وتهوى بنا إلى أعماق بعيدة الغور؟ هذه الأسئلة يجب أن توجه إلى الفيلسوف الحكيم وإلى عالم الأخلاق وإلى رجال الدولة والسياسة الذين تستطيع نظراتهم الثاقبة أن تنفذ إلى المستقبل، وليس إلى الباحث المتواضع الذى يقف نفسه على دراسة الحاضر والماضى. إن كل ما يهمنا هنا هو أن نسأل إلى أى حد نستطيع أن نزعم - عن طريق مقارنة ما يتصف به الاعتقاد فى السحر من اطراد وعمومية من ناحية والأشكال المختلفة المتنوعة التى تتخذها العقائد الدينية بكل خصائصها المتميزة من الناحية الأخرى - أن السحر يمثل إحدى المراحل الدنيا السابقة فى التفكير الإنسانى، وأن جميع السلالات والأجناس البشرية مرت بتلك المرحلة أو لا تزال تمر بها فى تقدمها نحو الدين ثم العلم!؟

ولو صدق ما أذهب إليه من أن «عصر الدين» سبقه دائما وفى كل مكان «عصر السحر» فإنه يصبح من الطبيعى أن نتساءل عن الأسباب التى دفعت الجنس البشرى - أو بالأحرى جانبا منه - إلى نبذ السحر كمبدأ للإيمان والسلوك والالتجاء إلى الدين بدلا منه؟ ولكن حين ننظر إلى كثرة الأمور التى يجب تفسيرها وتنوعها وتعقدها وإلى قلة ما نعرفه عنها، فإننا نستطيع حينئذ أن نعترف بأنه لا يكاد يكون هناك أمل فى الوصول إلى حل كامل مقنع لمثل هذه المشكلة العميقة، وأن كل ما قد يمكن عمله فى حالتنا الراهنة من المعرفة هو أن نجازف بإبداء بعض التخمينات المقبولة. وعلى ذلك فإنه رغم عدم شعورى بالثقة التامة فيما أقول فقد أستطيع أن أزعم بأنه على الرغم من أن الإنسان لم يدرك زيف السحر وعقمه إلا فى وقت متأخر فقد دفع ذلك الإدراك الفئة القادرة على التفكير السليم من الناس إلى البحث عن نظرية عن الطبيعة تكون

أكثر صدقا، وعن وسيلة أفضل لفهم خباياها وكنوزها . وليس ثمة شك فى أن الأذكياء من البشر استطاعوا فى وقت معين أن يدركوا أن الطقوس والتعازيم السحرية لا تحقق فى حقيقة الأمر النتائج التى وضعت من أجلها والتى لا يزال أغلب البسطاء من الناس يعتقدون أنها تحققها بالفعل. ولابد أن هذا الاكتشاف العظيم لعدم فاعلية السحر قد أحدث ثورة جذرية ـ وإن كانت بطيئة ـ فى عقول الأشخاص الذين هداهم تفكيرهم الصائب إلى ذلك الاكتشاف. والواقع أن ذلك الاكتشاف لم يكن يعنى فقط أن الإنسان أدرك لأول مرة عجزه عن تسخير بعض القوى الطبيعية لإرادته ومشيئته بعد أن كان يظنها خاضعة تماما لسيطرته بل كان أيضا اعترافا صريحا منه بجهله وعجزه. فلقد رأى أن بعض ما كان يعتبره أسبابا وعللا كان بعيدا عن ذلك تماما وأن كل جهوده للإفادة من هذه العلل الوهمية كان مجرد سراب، وبذلك ضاع عليه كل ما تحمله من مشقة وعناء كما فشلت مهارته وقدرته الفائقة فى أن تحقق أهدافه وأغراضه. لقد كان يجذب خيوطا لا يتعلق بها أى شىء. لقد كان يظن أنه يسير قدما نحو هدف محدد بالذات بينما هو يدور فى حقيقة الأمر فى دائرة ضيقة. ولا يعنى ذلك أن النتائج التى كان يعمل جاهدا للوصول إليها توقفت عن أن تكشف عن ذاتها، إذ الواقع أنها استمرت فى الحدوث دون أن يرتبط حدوثها بعمله وسحره فلقد استمر المطر فى السقوط على الأرض الأسيانة واستمرت الشمس تقوم برحلتها النهارية والقمر برحلته الليلية عبر السماء، كما استمر موكب الفصول فى سيره الصامت بين الظل والنور والغمام وضوء الشمس عبر الأرض وظل الناس يولدون للضنى والحسرة لكى يلحقوا بعد فترة إقامة قصيرة فى هذا العالم بآبائهم فى العالم الآخر الأبدى. ولقد ظلت كل الأمور الأخرى تسير كالعهد بها من قبل. ومع ذلك فقد بدا كل شىء غريبا أمام الشخص الذى اختلت الموازين القديمة فى نظره.

ذلك أنه لم يعد يستطيع أن ينعم بوهمه اللذيذ من أنه هو الذى يوجه الأرض والسماء فى مجراهما وأنهما سوف يتوقفان عن دورانهما العظيم إذا رفع يديه الواهنتين عن عجلة القيادة. ولم يعد يرى فى موت أعدائه وأصدقائه برهانا ودليلا على القدرة الكاسحة التى تتمتع بها تعازيمه هو أو تعازيم خصومه، بل أصبح يعرف أن أصدقاءه وأعداءه على السواء خاضعون لقوة أعلى من أى قوة يستطيع أن يخضعها لإرادته وأنهم جميعا يستجيبون لمصير يعجز هو تماما عن التحكم فيه.

ولقد وجد الفيلسوف البدائى نفسه بذلك وسط بحر من الشك وعدم اليقين وقد انقطعت الحبال التى كانت تربطه إلى مرساته القديمة فتزعزعت ثقته القديمة الهانئة فى نفسه واهتزت قواه من أساسها، ووقع نتيجة لهذا كله فريسة للحيرة والاضطراب وعدم الاستقرار إلى أن وجد راحته واطمئنانه آخر الأمر فى نسق جديد من الإيمان والعمل شأنه فى ذلك شأن المسافر حين يصل إلى مرفأ هادىء بعد رحلة مضطربة عاصفة. ويبدو أن هذا النسق الدينى الجديد كان قادرا على أن يقدم له حلولا لشكوكه المزعجة وبديلا لتلك السيادة التى كان يفرضها على الطبيعة والتى كان عليه أن يتنازل عنها مرغما، وإن كان بديلا غير ثابت، فإن كان العالم العظيم يسير فى طريقه بدون أى عون منه أو من أتباعه فإن ذلك إنما يتم بفعل بعض الكائنات الأخرى التى تفوقه فى القوة، وهى كائنات غير مرئية تتحكم فى سير العالم ويصدر عنها كل ما به من أحداث. كان يعتقد حتى تلك اللحظة أنها تحدث بفعل سحره هو . وبذلك أخذ يؤمن بأن تلك الكائنات - وليس هو - هى التى تسبب هبوب الرياح والأعاصير ولمعان البرق وهزيم الرعد، وأنها هى التى أرست قواعد الأرض الصلبة وحددت للبحر المائج سواحل لا يتعداها، وهى التى تجعل كل تلك الأضواء الرائعة فى السماء تشع بنورها، كما أنها هى التى ترسل الصيد إلى جوارح الطير ووحوش الصحراء،

وتمنح الأرض خصوبتها كى تثمر بوفرة وتكسو التلال العالية ثوبا من الغابات وتفجر الينابيع من تحت الصخور لتجرى فى الوديان وتجعل المراعى الخضر تنمو وتزدهر على المياه الراكدة، وهى التى نفخت فى خياشيم الإنسان فبعثت فيه الحياة، كما أنها هى التى تسلط عليه المجاعات والأوبئة والحروب فتهلكه. وبذلك بدأ الإنسان يقدم نفسه فى تواضع إلى تلك الكائنات القوية التى شهد قوتها المبدعة فى كل مظاهر الطبيعة الفخمة الرائعة ويعترف فى خشوع باعتماده على قواها غير المرئية ويضرع إليها أن تشمله برحمتها وأن تسبغ عليه من نعم الحياة وتحميه من الأذى والأخطار التى تتعرض لها حياته الفانية فى كل لحظة، وأن ترسل أخيرا روحه الخالدة بعد أن تتخلص من عبء الجسد إلى عالم أسعد لا ينالها فيه هم ولا حزن، حيث يتاح له أن يهدأمع تلك الكائنات ومع أرواح الناس الطيبين فى سرور وسعادة ونعيم مقيم.

وبهذه الطريقة - أو بطريقة أخرى تشبهها - يمكن أن نتصور أن العقول الأكثر قدرة على التفكير العميق استطاعت أن تحقق تلك النقلة الجبارة من السحر إلى الدين. إلا أن ذلك التغيير لم يكن ليتم حتى بالنسبة لتلك العقول الجبارة فجأة، بل إنه حدث ببطء شديد واحتاج لعصور طويلة كى يصل بشكل أو بآخر إلى غايته. إذ لابد أن يكون إدراك الإنسان بعجزه عن التأثير فى مجرى الطبيعة على نطاق واسع قد تم بالتدريج، وأنه كان من الصعب تجريده من كل سلطانه المتوهم بضربة واحدة. ولابد أن يكون تراجعه عن موقفه المتغطرس حدث خطوة فخطوة، وأنه أخذ يتنازل شبرا بشبر عن الأرض التى كان يعتبرها ملكا له وقد ملأته الحسرة والأسى فيعترف تباعا وعلى مرات متتالية بعجزه عن أن يخضع لإرادته الرياح أو الأمطار أو ضوء الشمس أو الرعد وهكذا. وبينما كانت «أقاليم» و«مقاطعات» الطبيعة تفلت من يده واحدة تلو الأخرى بحيث أن ما كان يبدو له من قبل بمثابة مملكته الخاصة أصبحت

آيلة للانكماش لتغدو بمثابة السجن له، كان إحساسه بالعجز إزاء الكائنات غير المرئية التي تحيط به يزاد قوة وعمقا. وهكذا فإن الدين الذى بدأ كنوع من الاعتراف السطحي والجزئي بوجود قوى أسمى وأعلى من الإنسان أخذ يزداد عمقا ويتحول إلى اعتراف الإنسان صراحة باعتماده الكلي والمطلق على ما هو إلهى نتيجة لاتساع المعرفة الإنسانية، وقد استبدل بسلوكه الحر القديم القديم موقف التذلل والخضوع أمام القوى الخفية التى تعمر العالم غير المرئى وأصبحت الفضيلة المثلى فى نظره هى أن يخضع إرادته لإرادة تلك القوى الخفية لأن فى ارادتها يكمن الأمن والسلام له. بيد أن هذا الإحساس العميق بالدين وهذا الخضوع الكامل للإرادة الإلهية كانا وقفا على أصحاب العقول الذكية والنظرة الواسعة التى تدرك مدى عظمة الكون وضآلة الإنسان. فالعقول الكليلة تعجز عن إدراك المعانى الكبيرة، إذ إنها - بفضل ضيق أفقها وقصر نظرها - تتصور نفسها أكبر وأهم ما فى هذا الوجود. ومثل هذه العقول لا تكاد ترتفع إلى مستوى الدين على الاطلاق صحيح أنها تنجذب بتأثير العقول الأقوى منها إلى نوع من التوائم الخارجى مع قوانين الدين وشرائعه وتمارس متطلباته بطريقة لفظية، ولكنها فى أعماقها تظل متشبثة بخرافاتها السحرية القديمة التى تلقى كثيرا من الاعتراض بل والتحريم وإن لم يفلح هذا كله فى القضاء عليها تماما وإزالتها من طريق الدين، لأن جذورها تتغلغل إلى الأعماق داخل الإطار الذهنى والتكوين العقلى للغالبية العظمى من الناس. وقد يتساءل القارىء كيف عجز الأذكياء من الناس عن أن يكتشفوا فى وقت أكثر تبكيرا ما فى السحر من زيف وأغاليط وكيف ظلوا يتمنون حدوث بعض الأمور التى كان مقدرا لها دائما الفشل والخيبة، وكيف ظلوا يمارسون مهازل يكسبونها طابع الوقار دون أن تؤدى إلى شيء، ويرددون كثيرا من السخف والهراء الذى لا طائل تحته، وكيف كانوا يجسرون

على أن يكرروا التجارب التى أثبتت فشلها فشلا ذريعا؟

والجواب على ذلك هو أن الزيف لم يكن من السهل اكتشافه، وأن الخطأ لم يكن واضحا تماما، لأنه فى كثير من الحالات - بل وربما فى معظم الحالات - كانت النتيجة المرجوة تحدث فعلا بعد فترة قصيرة أو طويلة من ممارسة الشعائر التى كانت ترمى إلى حدوثها وأن الأمر كان يحتاج لعقل يتمتع بدرجة غير عادية من الفطنة حتى يدرك أن تلك الشعائر لم تكن بالضرورة - حتى فى الحالات الناجحة - هى علة تلك الأحداث فالطقوس التى كانت تمارس من أجل هبوب الريح مثلا أو سقوط المطر أو موت أحد الناس كان يعقبها دائما بوقت قصير أو طويل حدوث ذلك الحادث الذى تهدف إليه. وقد يكون للرجل البدائى بعض العذر فى أن يعتبر وقوع الحادث نتيجة مباشرة لتلك الطقوس، بل وأن يرى فيه أفضل برهان ودليل على فاعلية تلك الطقوس . وبالمثل فإن الشعائر التى تمارس فى الصباح من أجل شروق الشمس وتلك التى تقام فى الربيع لإيقاظ الأرض الحالمة من نومها الشتوى كان يبدو أنها تكلل دائما بالنجاح، على الأقل فى المناطق المعتدلة حيث تضىء الشمس مصباحها الذهبى كل صباح فى الشرق وتزين الأرض نفسها من جديد سنة بعد سنة فى كل ربيع وتكسو نفسها حلة خضراء غنية. . فلا غرابة إذن إذا كان الرجل الهمجى ذو النزعة العملية المحافظة يسد أذنيه عن آراء المتشككين والنظريين والراديكاليين المتفلسفين الذين قد يلمحون بأن الشمس والربيع قد لا يكونان بعد كل شىء نتائج مباشرة لممارسة بعض الطقوس اليومية أو السنوية بدقة وانتظام، وأن الشمس قد تستمر فى الشروق كما قد تستمر الأشجار فى الإثمار إذا أهمل الناس أداءها من حين لآخر أو حتى أغفلوها تماما وليس من شك فى أن هذه الشكوك والريب كانت تقابل بالرفض والاحتقار والسخط من الآخرين الذين كانوا يعتبرونها

مجرد تأملات خيالية موجهة ضد الإيمان وتدحضها التجربة والواقع. وقد يقول الرجل الهمجي: «هل ثمة ما هو أوضح وأبسط من أننى أضيء شمعتى الرخيصة على الأرض فتوقد الشمس بعدها نارها الهائلة فى السماء؟ سوف يسعدنى أن أعرف إذا ما كانت الأشجار لا تلبس أرديتها الخضراء بعد أن ألبس أنا نفسى ثوبى الأخضر فى الربيع إن هذه حقائق جلية واضحة لكل ذى عينين ولذا فإننى أستند إليها ، إننى رجل بسيط وعملى ولست واحدا من أصحاب تلك النظريات الدقيقة أو من الذين يتلاعبون بالألفاظ. وقد تكون النظريات والتأملات وما إليها صالحة وصادقة فى ذاتها وليس لى أدنى اعتراض على اشتغالكم بها. واغراقكم فيها ما دمتم لا تحاولون تجربتها فى الواقع وكل ما أطلبه هو أن تتركونى وشأنى فى تمسكى بالوقائع لأننى حينئذ أعرف مكانى بالضبط والمغالطة فى هذا النوع من التفكير واضحة لنا لأنها تدور حول أمور انتهينا نحن فيها إلى آراء ثابتة منذ وقت طويل ولكن لو أننا طبقنا هذا النوع من الجدل على بعض الأمور التى لا تزال موضع مناقشة وتساؤل فمن المحتمل أن يتقبله الرجل البريطانى نفسه على أنه موقف سليم ، ويعتبر صاحبه إنسانا حصيفا صحيح أنه قد لا يكون رجلا لامعا أو ميالا للتفاخر وحب الظهور ولكنه امرؤ على درجة عالية من الوعى والإدراك والفهم. فإذا كانت مثل هذه الأساليب من التدليل تجد صدى قويا بيننا نحن أنفسنا فهل هناك ما يدعو إلى العجب إذا كان الرجل الهمجى أخفق فى أن يكشف زيفها لفترة طويلة من الزمن؟

رقم الإيداع : ٧٠٥١ / ٩٨

شركة الأمل للطباعة والنشر ت : ٣٩٠٤٠٩٦

إن كتاب الغصن الذهبى يعد واحدا من أهم الكتب الأنثروبولوجية، بل لعله بموسوعيته وإشاراته المتشعبة كان معينا للكتاب والأدباء والمفكرين، ومثل لبنة من اللبنات الأولى لتاريخ الفكر الإجتماعى والأنثروبولوجى وكاتبه « جيمس فريزر » يعد واحدا من العلماء المخلصين الذين ساهموا بجهد فائق فى إثراء الدرسات الإجتماعية والانثروبولوجية بما له من إلمام واسع وعميق بالأداب الكلاسيكية القديمة وعادات وتقاليد ومعتقدات الشعوب.



الأمل للطباعة

الثمن جنيهان